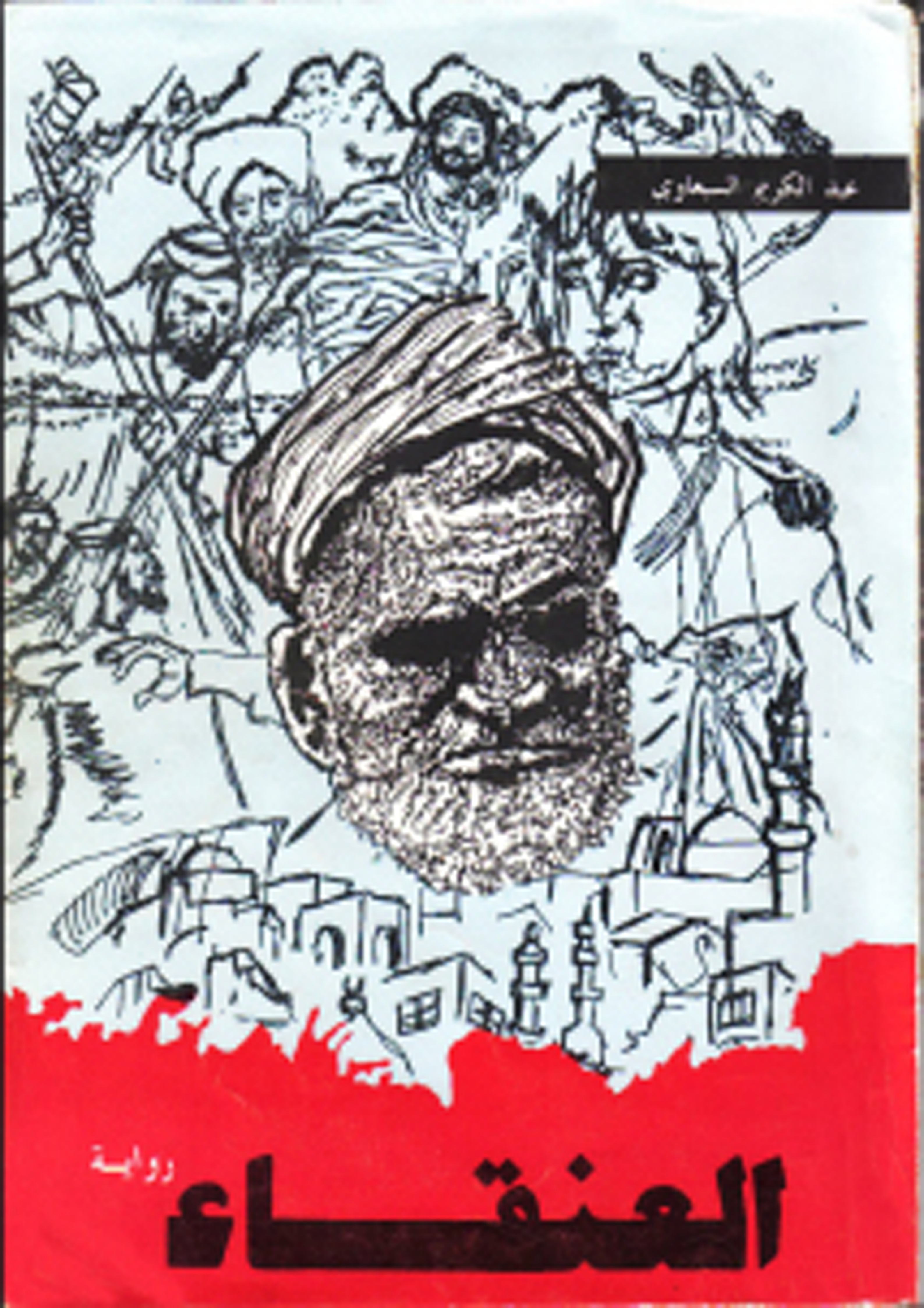
عبد الكريم السبعاوي



رواية

العنقاء

(1)

أخيراً وصل يونس .. حوت كبير اسمه الصحراء ألقى به على هذا الشاطئ الأخضر بلون الفيروز .. أية جنة تمتد على مطارح البصر .. أشجارها مثقلة بالثمار موسماً بعد موسم .. ماؤها نمير.. وخيرها كثير.. وهواؤها شفاء من كل داء .

جاء يسوق أمامه ألفاً من النوق العصافير .. في سوق تبوك باع نصف الإبل .. وفي سوق غزة باع النصف الثاني .. ثم أشار إلى مقدم عبيده :

– سنتوجه إلى المدينة نقضي الليل في أحد خاناتها .. وغداً يخلق الله ما لا تعلمون .

هتف جوهر :

– إلى غــزة .

تواثبت الخيل كأنها لا تحمل على ظهورها أحداً .. الطيور الجارحة ليست ثقيلة ولا كثيرة الشحم واللحم .. عشرون فارساً عركتهم الصحراء سنين طويلة شوت وجوههم الشمس كما يشوى الفخار فبدت أكثر سواداً مما هي عليه .. إلا وجه جوهر .. فقد كان سواده في التم منذ ولادته .. وما كان ليقبل المزيد .. ليس لهم من الثياب إلا مزقاً تستر العورة بالكاد .. ولو نزلوا عن ظهور خيلهم العربية الأصيلة لجازتهم العيون وما حسب حسابهم أحد .

نظروا إلى حيث أشار جوهر .. كانت مآذن غزة وقبابها الشامخة على مشارف البصر.

أخذوا يغذون الســير وهم يحلمــون بأطايب المدينة.. معولين على كرم سيدهم وحسن وفادته.

أما يونس فمنذ شارف أرض غزة والحنين يعتصره اعتصاراً .. حتى أنه ليغالب دموعه .. هنا ترقد أمه .. وهنا تزود من وجهها بآخر نظرة .

كان المرض قد اشتد بها وعجز أطباء البادية عن شفائها .. فحملها أبوه إلى الشام .. لكن المنية عاجلتها في وادي الزيت من أرباض غزة .. صلى عليها أهل الوادي وواروا جثمانها التراب .. ووصلوا بينه وبين هذه الأرض بصلة لا تنفصم .

استوقفهم قائد الحرس على بوابة المدينة المسماة بالداروم وهو ينشد ساخراً :

– عرب الردى منين أتيتوا بلادنا

انتو تتار وإلا أعقاب هنود

قال جوهر :

– لسنا تتارا ولا هنوداً .. لقد بعنا ابلنا في سوق غزة خلف عدوة المنطار.. ونحن بحاجة للراحة في أحد الخانات .

حينما لاحظ امتعاض قائد الحرس تابع بلهجة حاول أن يجعلها مقنعة .

- ما جئنا لننهب أو نسرق كما يفعل بعض البدو..
عزز خطابه بصرة من النقود استقرت في يد قائد الحرس الذي أجابه هاشاً باشاً هذه المرة .
- عليكم بخان الزاوية .. لن يقبلكم خان غيره وأنتم على هذه الحال .
- مضوا إلى الخان .. نام العبيد في إحدى البوايك بعد أن ربطوا خيلهم ووضعوا لها العلائق .. اتخذ يونس وجوهر غرفة في الطابق الثاني حيث ينزل التجار وعلية القوم .
في الصباح وزع عليهم جوهر أرغفة الخبز الغزاوي المستديرة المنفوخة كالكرة ..كسروها على ركبهم أرباعاً.. أخذوا يغمسونها في صحاف اللبن المغطاة بزيت الزيتون .. ويهمشون رؤوس البصل .
راقبهم يونس بغبطة ..
قال جوهر وهو يقضم نصف طاحونة من البصل دفعة واحدة في فمه الواسع كشدق التمساح:
- بلد تصلها .. كول من بصلها .
غمس لقمة كبيرة في وعاء اللبن وناولها ليونس :
- ذوق وأنا أخوك .. هذا سمن ما هو بلبن .
بعد أن انتهى إفطارهم.. وزع عليهم جوهر لبابيط العجوة المعجونة بالكسبه وهو يردد:
- تحلوا .. تحلوا .
قال يونس :
- خذهم اليوم إلى حمام السمرة .. وسوف ألحق بكم هناك .. حاول أن تعيد لهم صورتهم الآدمية .
اجتاز العبيد شوارع المدينة ببطء شديد .. كل شئ أمامهم جديد وملفت للنظر .. لم تسلم عربات الفاكهة ولا بسطات الحلوى من شرهم.. يسألون البائع :
- تشبعني بكم ؟
دون أن تكون لهم نية في الشراء .. اللهم فقط لإلهائه عن طردهم .. ثوان يبتلعون فيها ما تصله أيديهم .
عندما وصلوا الحمام أوقفهم جوهر بالباب لكي يدخل ويتفاهم مع اليهودي صاحب الحمام .. نظر السامري إلى وجه جوهر ذي الشفتين المشقوقتين كشفتي الجمل ..وعينيه الحمراوين اللتين تقدحان شرراً .. تذكر الجني الشرير في قصة الملك سيف بن ذي يزن .. قبل أن يفهم منه شيئاً كان العبيد بأسمالهم البدوية يجتاحون الحمام .. رآهم شمعون فاقشعر بدنه :
- هذه سنة البدو .

كان شمعون يكره هؤلاء البدو الجفاة.. الذين لا يعرفون النقود ولا يتعاملون بها .. أقصى ما يمكن تحصيله منهم.. كلمات الشكر والثناء التي تفيض على ألسنتهم الذربة :

– حياك الله يا وليدي .. حيي نباك .

وإذا أراد أحدهم أن يبالغ في إكرامه يعطيه عنوانه :

– إن جيت ديرة السبع اسأل عني .. تراك ضيفي يا اليهودي .

أو يساومه على الموسم :

– أدخل حمامك سبع مرات وأطعيك على الموسم كيس شعير .

لذلك فقد أمر المباشر في حمامه ألا يدخل أحداً من البدو قبل أن يقبض منه الأجرة سلفاً.

اجتاح عبيد يونس الحمام .. قبل أن يفتح اليهودي فمه كانوا ينتشرون في كل مكان وينشرون رائحتهم الكريهة .. زبائن الحمام حملوا ما استطاعوا الوصول إليه من ثيابهم .. فروا وهم يغلقون أنوفهم .

صاح أحد العبيد في اليهودي :

– الله كتب لك هالثواب .. تراني من الحول ما طب جلدي المي .

فتحوا الخزائن أخذوا كل ما وجدوه من المناشف وقطع الصابون .. قضم أحدهم قطعة صابون ولاكها ثم بصقها غير بعيد عن صاحب الحمام :

– تقول عجوة يا شيخ !

ضرب اليهودي كفاً بكف وهو يولول :

– يا خراب بيتك يا شمعون .

عرج يونس على سوق الثياب .. اشترى كسوة له وكسوة لكل واحد من عبيده .. ولم ينسى أن يخص جوهر بكسوة مميزة .

حمل صبيان التاجر الثياب إلى الحمام .. عندما سلموها لشمعون عرف أنه تسرع في الحكم على الموقف.. وأخذ يستعيد رباطة جأشه .

دخل يونس الحمام فهرع إليه شمعون مرحباً .

قال يونس :

– احرق ثيابهم القديمة في المستوقد.. قبل أن تمتلئ هذه المدينة بالقمل .

بعد الحمام خرج يونس يرتدي حلته الجديدة.. بدى كأمير من أمراء الزمن الغابر.. حتى أن شمعون لم يملك سوى أن يقبل يده :

– نعيماً سيدنا .. نعيماً .

– أنعم الله عليك .. ناوله جنيهاً ذهبياً .

ارتج على اليهودي :
– من أين أجمع لك الباقي .. إن دخل الحمام في هذا الشهر لن يكفي ..
– لا عليك .. الباقي أيضاً لك .
قاد يونس اليهودي إلى الأريكة :
– اجلس هنا .. أريد أن أتحدث إليك .
صب لهما صبي الحمام نقيع الخروب .. صرف يونس عبيده بإشارة من يده وتابع :
– حدثني عن أخبار غزة .. وصلت المدينة أمس مع رجالي.. أريد أن أعرف ما يدور في هذه البلاد .
أغلق اليهودي عينه نصف السليمة وقال :
– آه يا سيدي.. لقد نزع عمال الأتراك ملكية أراضي وادي الزيت كلها.. لأن الملاك عجزوا عن دفع ما عليها من الضريبة للملتزم الجديد شيخ المشايخ تيمور الضرغام .. أظن أن هذا الملتزم الملعون سوف يطوب الأرض باسمه بعد أن يدفع ما عليها من الضريبة .
لقد وضعوا الملاك في السجن منذ يومين.. وسوف يتم البيع بالمزاد في الدبوية غداً صباحاً .. مزاد وهمي فلا أحد يجرؤ على المزايدة إذا كان تيمور الضرغام هو الخصم .. لقد انقض هذا الرجل علينا كالبلاء .
أتعرف يا سيدي.. لو كان القانون يجيز تملك اليهود للأراضي الزراعية لاشتريت الوادي كله .. أي ثمن بخس هذا الذي سيدفع مقابل الوادي ؟
– ولماذا لا يجيز القانون تملك اليهود للأراضي الزراعية ؟
– أراضي الشام يا سيدي تعتبر من أراضي الفتح التي تعود ملكيتها لبيت مال المسلمين .. ولذلك فهي تابعة لأمير المؤمنين أو الخليفة.. ويعمل الفلاحون عليها لقاء نسبة بسيطة من الدخل تدفع لبيت المال .. ولما كان السلطان العثماني هو الخليفة الآن .. فإنه يجبي خراج هذه الأرض .. والفلاحون العاجزون عن دفع الخراج تنزع منهم الأرض وتعطى لغيرهم .. في معظم الأوقات كانت نسبة الجباية معقولة بالقياس إلى دخل الأرض .. حتى بدأت الدولة تبيع الالتزام بجمع الضرائب إلى ملتزمين جشعين من أمثال تيمور الضرغام .. تفننوا في مضاعفة المكوس وأثقلوا كاهل الفلاحين ..فر الفلاحون على وجوههم.. تاركين الأرض لقمة سائغة لهؤلاء الطغاة .. الذين أصبحوا مالكين لمساحات هائلة منها وصار الفلاحون محض إجراء عندهم .

لقد حاول اليهود مراراً مع الباب العالي.. ووسطوا سفراء وقناصل الدول الصديقة لتغيير هذا النظام دون جدوى .. ومن يدري ربما يلين الباب العالي ذات يوم فيجد أموالنا جاهزة لشراء بر الشام كله .

– أنا لست يهودياً يا شمعون ولا أريد شراء بر الشام كله .. أنا أريد فقط شراء وادي الزيت .. هل لديك طريقة تساعدني على ذلك .

ضحك شمعون وغمز بعينه نصف السليمة :

– سارة يا سيدي .. بإمكانها أن تدبر الأمر مع متصرف غزة درويش باشا .

– ومن سارة هذه ؟

– ابنة راشيل .

– ومن راشيل ؟

– أرملة المرحوم إسحاق الصائغ .

– وما علاقة سارة بالموضوع ؟

– إنها تدخل منزل الباشا في أي وقت تشاء .. تلفت حوله.. ثم أضاف بصوت كالفحيح .. إنها تنام معه هذه العاهرة الصغيرة .. يبدو أن أمها لم تحسن تربيتها بعد وفاة والدها وهرب شقيقها داوود .

– ما علينا .. كم تريد لقاء تدبير الأمر مع الباشا ؟

– نعطي الباشا مائة ذهبية .. وعشرة ذهبيات لسارة .. وخمسة ذهبيات لخادمك شـــمعون .

– كلا هذا كثير وأشار إلى جوهر :

– أعطه خمسين ذهبية للباشا واثنتان لسارة واثنتان له .. ثم التفت إلى شمعون :

– ولكنني أحذرك .. لا يمكن لأحد أن يخدعني وأن يحتفظ برأسه في نفس الوقت .. أنا لا أعرف سارة ولا الباشا .. أنا أعرف هذا فقط .. وأشار إلى رأس شمعون .

– اطمئن يا سيدي .. فلولا سارة لما استطعنا العيش في هذه المدينة .. إنها تدبر أمور اليهود مع الباشا .

– كم عدد اليهود في هذه المدينة يا شمعون ؟

– أربع عائلات فقط يا سيدي وسارة وأمها.. عائلة كوهين تتاجر بالذهب والفضة .. وعائلة عدس تتاجر بالغلال .. وعائلة روكز تتاجر بالقماش وعائلة يعقوب وهي عائلة محسوبك أفقر العائلات جميعاً .

– الذهب و الفضة والغلال والقماش .. ماذا تركتم لعشرين ألفاً يسكنون غزة وقراها ؟

– تركنا لهم الصحة والستر .. لا نسمعهم يطلبون في صلاتهم غيرها يا سيدي .

نهض يونس ومضى يتبعه جوهر.. ابتسم شمعون وهو يهمس لنفسه :

– ثلاث ذهبيات في يوم واحد .. أي صباح هذا ؟

في المساء عاد يونس وجوهر إلى الخان .. كان صاحبه أبا الطايع يجلس على أريكة عند الباب.. أحد عماله ينضح الماء حول مجلسه حتى لا يثور الغبار تحت أقدام السابلة ..

دعاهما أبو الطايع لكأس من السوس فلبيا الدعوة .. جلس يونس إلى صاحب الخان يجاذبه أطراف الحديث .. قال أبو الطايع :

– كيف وجدت غزة يا شيخ العرب ؟

– لم أجدها بعد .. أقصد أن الوقت لم يتسع لكي أرى شيئاً غير حمام شمعون .. بالمناسبة ما رأيك في شمعون يا أبا الطايع ؟

– إنه مراب بخيل شحيح .. يبيع نفسه لكل عابر سبيل .

– لقد باعني نفسه اليوم يا أبا الطايع .. وباعني الباشا وقبض الثمن .. بالله قل لي ما هي العلاقة بين هذا اليهودي وبين الباشا التركي ؟

– اليهود يا سيدي لديهم المال .. والباشا لديه القوة .. والمال دائماً بحاجة إلى القوة لتحميه وتسهل انتقاله وتكاثره .

– هل كانت سارة هي الواسطة هذه المرة أيضاً ؟

أطرق يونس برأسه وأومأ بالإيجاب .

– إذا أبشر بالقبول يا سيدي .. فالباشا لا يرد لها طلباً .

– وما علاقة سارة بالباشا ؟

– القصة طويلة.. لكن لا بأس ما دمت تريد سماعها .. والد سارة الخواجة اسحق كان يتاجر بالذهب والعملات وقد أودع لديه ثلاثة من الملاك أموالاً لهم .. فلما توفي سرق ابنه داوود المال وهرب إلى مرسيليا على أحد بواخر الغلال .. الثلاثة اشتكوا أمرهم إلى القضاء .. حكم عليه بالسجن غيابياً حتى يؤدي الأمانات إلى أهلها .. خسر داوود المال هناك وأراد العودة فكتب لأمه وأخته بتسوية القضية حتى لا يوضع في السجن فور عودته .

كانت سارة في السادسة عشر .. طافت بيوت العائلات اليهودية الأربعة لتقترض المال.. وتفي لأصحاب الودائع بأموالهم.. ولكن العائلات الأربعة رفضت إقراضها .. قابلت حاخام اليهود ولا ندري بماذا نصحها .

دخلت محلولة الشعر على سليم أفندي الصوراني أحد أصحاب الودائع في داره .. بكت وأبكت كل حريمه .. انخلع قلب الرجل .. أعطاها كتاباً بالمسامحة وهو يردد :

– الله يستر على الولايا .

رشيد عليان اشترط أن يضاجعها مقابل حصته وكان بها .. سلمان الباشق وحده أصر على المال .. وسعت دائرة نشاطها قليلاً ودبرت له المبلغ .. وهكذا صار بإمكان شقيقها أن يعود في أي وقت .

– وماذا عن الباشا ؟

– هذه مدينة تسمع ضرطة النملة .. وصل الخبر إلى الباشا .. استدعاها ليتقاضى منها الحق العام .. الغريب أن شقيقها بعد كل ما جرى عدل عن العودة إلى غزة .. والتحق بأحد الجيوش هناك .

❊❊❊

في اليوم التالي اصطحب يونس جوهر في جولة داخل المدينة التي يزورها للمرة الثانية .. طاف بالشوارع المعبدة المسقوفة أحياناً بالسوباطات .. تأمل الأقواس الحجرية والشرفات العالية المشغولة بالخشب المزخرف ..

تنسم رائحة الياسمين تتضوع من أبواب البيوت .. مد بصره أحياناً من فرجات الأبواب .. إلى عرائش الورد حول الفسقيات الجميلة التي تتوسط باحات البيوت المترفة . تأمل أهل المدينة بثيابهم النظيفة المرتبة نساءً ورجالاً .. تفقد أسواق المدينة العامرة .. وجد لكل حرفة سوقاً خاصة بها ولها شيخ حرفة يحتكم إليه أصحاب الحرفة وزبائنهم .. هذا سوق العطارين يغص بالأذرة والبذور والطيوب والتوابل .

وهذا سوق الحدادين قائم قاعد .. وهم بين نافخ كير أو ضارب على الحديد المحمي حتى يلين لابن آدم .. يتشكل مناجلا ومحاريثا وسيوفاً وسكاكيناً تلقمط الحصى .. وقد تربع شيخهم الدريملي على مصطبة السوق وحوله عدد من أبناء الكار .. ثم سوق النحاسين فالصباغين فالحلوجية فالسروجية .

أودعا حصانيهما عند أحد البياطرة ودلفا إلى القيسرية .. فالقيسرية وحدها غير مسموح لأحد أن يدخلها على ظهر حصانه .. بعد أن تعرضت لنهب البدو أكثر من مرة .. في القيسرية ما خف حمله وزاد ثمنه .. فيها سوق الصاغة حيث أفخر الحلى المصنوعة بالذهب أو الفضة .. وفيها حرائر الهند ولطائف مصر والشام .

وبينما هما في القيسرية أذن لصلاة الجمعة فهبطا الدرج الموصل بين القيسرية وبين المسجد العمري الكبير .. حبس يونس أنفاسه وهو يتأمل القباب العالية .. والأبراج التي تبرقش رؤوس الأعمدة الضخمة الشاهقة .. خلبت لبه ألوان الزجاج في النوافذ العالية التي تشتعل بضوء الشمس كالثريات .. وترسم على الجدران ألوان قوس قزح .. داخله الزهو .. همس لنفسه :

– ما أظن أحداً من قبيلتي رأى في حياته بناء كهذا .. كان الشيخ يقرأ من سورة الكهف .. استمع خاشعاً (وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه .. ذلك من آيات الله ومن يهد الله فهو المهتد .. ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً .. وتحسبهم إيقاظاً وهم رقود .. ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد .. لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً.. ولملئت منهم رعباً) .

بعد الصلاة جلس في الفناء الخارجي للمسجد .. أسند ظهره إلى أحد الأعمدة .. أخذ يتأمل السماء الزرقاء الصافية التي تغطي الأقواس والقباب .. أحس بالسكينة كأنما يصادف صديقاً طال شوقه إليه .. قال لجوهر :

– هذه هي السماء ..نفس سمائنا في البادية .. انظر .. أليس رائعاً أن تصحبك قطعة من الوطن حيثما ذهبت .. ضحك جوهر :

– أي وطن يا سيدي .. العبيد من أمثالي لا وطن لهم .

ضربه يونس على كتفه :

– كف عن هذا أيها الأحمق .

ثم ما لبث أن همس في أذن جوهر .. غداً يا جوهر سأشتري وادي الزيت .. سنحاصر الدبوية غداً .. فإذا أراد الباشا أو الملتزم أن يسخرا مني أو يرفضا بيعي .. فسوف أعلق جثتيهما على باب الدبوية .. وسوف ألحقهما بجثة أخرى على باب الحمام .. حتى تكتمل فرحة هذه المدينة .. أظن أن لدى الدولة كثيراً من هذه البضاعة ولن تعدم أن تجد متصرفاً وشيخاً آخر للمشايخ

هز جوهر رأسه وضحك حتى لمعت أسنانه .

❊❊❊

نظر درويش باشا متصرف غزة من نافذة الدبوية فرأى فرسان يونس يحاصرون المكان .. نادى شيخ المشايخ وقال له :

– انظر أي زبائن جاءوا لشراء وادي الزيت .

رآهما جوهر يطلان من النافذة فصاح بأعلى صوته :

– إما أن نقطف زيتون وادي الزيت هذه السنة .. أو نقطف بعض الرؤوس الفاسدة .

تحسس درويش باشا رقبته وتمتم :

– أمان يا ربي أمان .

قال شيخ المشايخ بعصبية بالغة :

– لماذا لا تستدعي التفكجي باشا رئيس القراقول ليتصدى لهم هو والعسكر والعيوانية ؟

– لن يتدخل التفكجي باشا إلا إذا قبض الثمن وأنت تعرف بطنه الذي لا يملأه شئ ..

أسقط في يد شيخ المشايخ وخار مثل بقرة تحت السكين :

– يغوروا في داهية هما والوادي .. بلا زيت بلا زيتون .. سلامات يا راسي .

وضع يونس صرة نقود على الطاولة .

- عدها يا باشا .. خمسمائة ليرة ذهبية .. أشار لنظمي أفندي الكلاغاصي مأمور الطابو حين أراد أن يثبت البيع في سجل الدائرة :

- يونس بن راكان بن مرشد بن راكان بن فهيد السبعاوي العنزي .. تأفف نظمي أفندي من طول اسمه فنهره بشدة :

- والله لو أسقطت اسماً واحداً مما ذكرته لك لأسقطن رأسك بسيفي هذا .

ارتجف نظمي أفندي .. تابع بصوت متحشرج :

- حدود الأرض من وادي المقدمة شرقاً حتى سابع موجة في البحر غرباً .

ظل حصان يونس ثلاثة أيام بلياليها يدور حول حدود مملكته حتى أصاب كلاهما التعب .. فناما ثلاثة أيام بلياليها .

كان بعض الفلاحين الذين نزعت منهم الأرض ما زالوا مقيمين عليها .. مر يونس ببيوتهم الطينية بيتاً بيتاً وطلب منهم البقاء :

- أنتم في جيرة الله وجيرتي .. أبقوا حيث أنتم واعملوا معي ولكم حصة من الغلة .. أنا بحاجة لكم أكثر مما أنتم بحاجة إلي .. أنتم أهل الفلحة .. وسوف أتعلم منكم .. كثيرون قبلوا عرضه بالبقاء .. وودعوه والدموع في عيونهم وحينما كانوا يقولون له :

- أنت عمنا الآن .. أنت صاحب الملك ونحن فلاحينك وأجراءك .

كان يرد عليهم بأنفة :

- الملك لله الواحد القهار .

❊❊❊

راجت قصص كثيرة حول يونس .. قيل أنه جاء هارباً بدمه من دولاب الثارات الذي ظل يحصد قبيلته كابراً عن كابر .. كانوا موتورين للقبائل المجاورة فلا يكاد الطلب عليهم ينتهي .. وقد توحدت عليهم القبائل حتى كادت تفنيهم عن بكرة أبيهم .

وقيل بل هو فاتك من فتاك الصحراء.. جمع حوله نفراً من الصعاليك.. وظل يغير على القبائل .. يثير الفتن بين قبيلته ومن والاها .. حتى خلعه أبوه ونفته القبيلة .

وقيل بل طلب ثأر أبيه المقتول ظلماً .. تسلل ذات ليلة إلى مضارب أعدائه وذبح قاتل أبيه من الوريد إلى الوريد .. واقتاد كل ما تملكه القبيلة من الإبل .. وكان ذلك أصل ثروته .. وقيل وقيل .. وقد وصلت إلى الباشا في الدبوية كل شارده ووارده فطلب مشايخ الحارات ليستطلع منهم جلية الأمر .

كان أول الواصلين إلى الدبوية شيخ حارة المشاهرة أكثر المشايخ حماقة .. دخل على المتصرف وهو يلهث من كثرة ما ركض .. وقد حسب المسكين أن الباشا استدعاه ليحاسبه على الطوشة التي وقعت أمس.. فبادره بالشكوى .

– مظاليم يا باشا .. والله العظيم مظاليم .

بسرعة البرق أدرك درويش باشا أن وراء الأكمة ما وراءها .. وأن الفرصة قد سنحت لاحتلاب نقود الشيخ الأبله .

– كيف مظاليم يا حسنات .. بتعلموا العملة اللي بتخرب دول وبتقولوا مظاليم .

– أولاد يا باشا .. أولاد جهال .. على رأى المثل بيعملوها الصغار بيقعوا فيها الكبار .

– بلا صغار بلا بطيخ .. أنت مسئول عن كل الطابق يا حسنات .. وأشار للحراس :

– أولان.. حطوا شيخ المشاهرة في السجن لغاية ما يطيع الله والسلطان .

– في عرضك يا باشا .. اسمع القصة واللي بتحكم فيه على رأسي .

– هات لنشوف .

– أولاد عبد ربو قابلوا ناطور قرقش في الطريق .. أخذوا منه قدرة عدس وأربعة أرغفة .. الجوع كافر يا باشا .

– كمان فيها قطع طريق .. اسمع يا حسنات .. لازم أهل الحارة يدفعوا غرامة ألف قرش وإلا كل أهل الحارة يروحوا في حديد .

– أمرك يا باش أمرك .. ما يكون خاطرك إلا راضي .

قال حسنات في سره :

– خرب بيت الحارة لولد الولد .

بعد أن اطمأن الباشا على الألف قرش أمر بإدخال باقي المشايخ .

سلم الجميع على المتصرف واتخذوا مجلسهم حوله .. وصل شيخ المشايخ متأخراً .. صافح الجميع .. عندما وصل إلى شيخ التفاح مد يده .. شيخ حارة التفاح تجاهل اليد الممدودة .. وتشاغل بمحادثة المتصرف .. تحامل تيمور الضرغام على نفسه وابتلع الإهانة .. ثم اتخذ مجلسه إلى جانب المتصرف .

شيخ التفاح تغير لونه منذ دخل شيخ المشايخ القاعة .. بينهما ما صنع الحداد .. وأنه ليغص به كل ما رآه .. ولولا ما تفرضه الأصول لرفض الاجتماع به تحت سقف واحد .. شيخ التفاح لا يستطيع أن ينسى أن هذا الرجل طوق حارته بالعار .. كان شيخ التفاح مسافراً للحج والعمرة .. ترك مشيخة الحارة لأخيه الحاج رجب .. استغل سالم ابن رجب الفرصة .. كان شاباً فاسد الطوية .. منصرفاً إلى اللهو مع أقران السوء .. زوجه والده ولكن ذلك لم يغير شيئاً من سيرته .. جاءت الواقعة عندما اضطر سالم أباه لكي يخطب له خضرة بنت

العامري صاحب ساقية الرماد .. أكبر سواقي الحارة .. لم يكن للرجل من ولد أو بنت سواها فعز عليه أن يعطيها لسالم .. واعتذر لأبيه .. سالم ذهب إلى شيخ المشايخ هذا الوغد تيمور الضرغام .. وادعى زورا أن العامري وجد جرة مملوءة بالذهب في أرض الساقية .. وأنه أخفاها عن العيون .

نزل شيخ المشايخ والعسكر في بيت الرجل .. ربطوه إلى الجميزة .. طلبوا أن يدلهم على مكان الذهب.. وتناوبوا على ضربه حتى مات .

اغتصب العسكر خضره في ذلك اليوم .. أي عار هذا الذي أحنى الظهور كلها .. وعصب الجباه بالمذلة :

لم ينقذ شيخ التفاح من هواجسه المرة إلا صوت المتصرف وهو يخاطبه :

– ماذا تقول يا شيخ التفاح ؟

– أقول لا إله إلا الله محمداً رسول الله .

– ماذا تقول في يونس ؟

– أن أملاكه تحد أملاك الحارة كما تعلم .. وأنه لنعم الجار .. فوالله ما نأخذ عليه شيئاً يشينه أو يضيرنا .

قال شيخ الشجاعية وقد استفزه تنويه شيخ التفاح بجيرته ليونس :

– هل سيعصر زيتونه في معاصركم أم أنه سيعصر في معاصر حارتنا .. وفي موسم جد الزيتون هل سيستعين بنا أم أنكم لن تدعوا لنا من الحب جانباً يا شيخ التفاح .. أي نعم أنتم الجار الجنب ولكن النبي وصى على سابع جار .

قال شيخ التفاح :

– أنا لم أر الرجل بعد ولم أعرف ما هي نواياه بشأن الموسم القادم يا شيخ الشجاعية .

تدخل شيخ حارة الدرج ليفض النزاع بينهما .

– لماذا تنابذتما كالديوك .. المتصرف لا يهمه أمر الموسم في شئ .. لقد جمعنا هنا ليعرف رأينا في الرجل .. هل هو رجل طيب مأمون الجانب .. أم أنه قاطع طريق ويشكل خطراً عل أمن المدينة واستقرارها .. هذا كل ما هنالك .

قاطعه المتصرف :

– ما دمت فهمت الطابق يا شيخ الدرج .. هات الجواب الشافي على سؤالي ودعك منهما.

– لعلنا أكثر الناس احتكاكاً به .. قوافل الفخار الذي تصنعه حارتنا تعبر أراضيه إلى بلاد الشام وبشارة والشقيف وجبل لبنان .. لو أراد يونس لتعرض قوافلنا أو فرض عليها إتاوة منذ حل بالوادي .. ولكنه بدلا من ذلك يوصي رجاله بحماية قوافلنا .. وكثيراً ما يدعو رجال القافلة إلى طعامه وشرابه .

احتد شيخ المشايخ :

– بلا كلام فارغ .. هذا رجل يسب الدولة .. ويشتم الوالي .. ويحرض الناس علينا .. لقد طلب من الفلاحين الذين نزعنا ملكية أرضهم في وادي الزيت البقاء ووعدهم بنصف المحصول .

تهامس الجميع :

– نصف المحصول .. ما سمعنا بشيء كهذا من قبل .. ويدفع هو من حصته ما على الأرض من ويركو .. ماذا سيتبقى له إذن .

– ألم أقل لكم .. لقد جاء هذا الرجل كما يجيء القضاء المنزل .. ها هو يتألف الناس ويجمعهم حوله .. ومن يدري قد ينزع غزة كلها من أيدينا .

أرى أن تجرد عليه حملة يا باشا وتطرده من الوادي كله وتكتب للدولة أن هذا الرجل قاطع طريق .. خرسيس .. أدب سيس .

ابتسم الباشا .. خلع طربوشة .. مسحه بكمه .. ثم أعاده إلى رأسه بتؤده وفكر قليلاً .. كأنه يدير الأمر على وجوهه المختلفة .

– تجريده .. حمله .. من أين لنا المال لندفع للعسكر والعيوانية .. هل ستصرف على الحملة يا شيخ المشايخ .. ربما كلفك ذلك أضعاف المبلغ الذي دفعه يونس لشراء وادي الزيت .

قال شيخ التفاح بحده :

– كيف يكون قاطع طريق من يؤمن الناس على أرضه .. ويدعوهم إلى طعامه وشرابه .. والله لو أرسلتم وشاية ضده لكنت أول من يتصدى لها ويكذبها .. ولو اضطرني الأمر للسفر إلى عكا .. أو حتى اسطمبول .

توتر جو الجلسة فـأراد الوالي أن يخفف عليهم .. التفت إلى شيخ المشاهرة .. فرآه يغالب النوم .

– شيخ مشاهرة إيش في ما في ؟ نريد رأيك في يونس .

تلفت شيخ المشاهرة كأنه يريد أن يستنجد بالجالسين .. لم ينجده أحد بكلمة .. تنحنح وسعل :

– اللي قالها المثل .. يا ملايكة الله لا تآذونا ولا نآذيكم .

ضحك الجميع .. دخل القاضي معروف ملهوفاً فلم ينتبه للمشايخ الجالسين .. فرد أمام الباشا ثوباً من الحرير موشى بالأزهار وهمس :

– وصلت قافلة باشا التجار من دمشق وجاءني الرجل في فتوى .

– يا لك من داهية قاضي أفندي .. أعطيته الفتوى وسلبت منه هذا الثوب .. أمان يا ربي أمان

– لقد أحضرته هدية للخانم سعادتلو .

– هديتك مقبولة يا قاضي أفندي .. اجلس .. كنا نتحدث في موضوع يونس الذي اشترى وادي الزيت .

– ذلك البدوي الذي يدعي أنه من قريش .

– نعم .

انفتحت شهية القاضي عند ذكر البدو .. تذكر طعامهم الدسم فقال على الفور :

– نزوره في مضاربه لنرى إن كان البدو ما زالوا على عاداتهم في إكرام الضيف .

تذكر الباشا كيس الذهب الذي أفرغه يونس على طاولته يوم اشترى الوادي فسال لعابه :

– فكرة جيدة .. ما رأيكم لو ركبنا جميعاً فجر الخميس القادم .. لزيارة يونس والاطلاع على أحواله عن كثب .

برطم تيمور الضرغام :

– أنا لن أذهب .. لا أريد أن أرى وجهه .

قال الباشا :

– لعلك لا تريد أن ترى الوادي بعد أن أصبح ملكاً له .. الله بيم بلا ورسم شيخ مشايخ.

-

❋❋❋

انصرف شيخ المشايخ تيمور الضرغام من المجلس وقد ضاق صدره .. تذكر غلامه يلماز فأخذ يحث الخطى إلى البيت .. كان يسكن بيتاً كبيراً له سباط ينتظم جانبي الطريق .. وكانت غرفة يلماز فوق الشارع تماماً .. تطل نوافذها على الجهتين بحيث يتسلى طوال النهار بمراقبة السابلة ومتابعة ما يجري في أكثر شوارع المدينة حركة ونشاطا ..

في الدور الأرضي كانت نساؤه الأربعة تحتل كل الغرف .. مع جيش من الأولاد والبنات .. هنيه صغراهن كانت وحدها.. لم يتسع وقته للإنجاب منها بعد .

تذكر تيمور أنه كان يعدل بين نسائه في الليل .. ويتسرى بجواريه في النهار .. لا شئ يسره قدر ما تسره القيلولة مع جارية ما زالت تراوح بين الطفولة والاحتلام .. حتى اشترى هذا الغلام القوقازي الصبوح الوجه .. الناعم البشرة .. في بياض مشرب بالحمرة .. وشعر أشقر جعد .. أنساه كل من في البيت .

عجب تيمور لنسائه كيف انتهت الحروب الصغيرة والكبيرة بينهن .. واتحدن في الكيد للغلام المسكين .. حتى أنه اضطر في الأسبوع الماضي لتأديبهن بالسوط حتى يرتجعن عنه ..

واحدة وضعت له الخروع في حسائه .. وأخرى أغرت أولادها بضربه .. حتى أن أثر الضرب مازال ظاهراً على بدنه .. لقد اشترى غلامه من اسطمبول .. التي صار يحب التردد عليها منذ أوفده إليها أول مرة ولي نعمته أحمد باشا الجزار .. ضمن سلسلة من المكائد ضد والي عكا في ذلك الحين ضاهر العمر..بعدها عينه الجزار شيخاً للمشايخ في غزة مكافأة له على خدماته .

مر عامان على شراء يلماز .. فما زاد تيمور الضرغام إلا تعلقاً به وانصرافاً إليه عن كل نسائه .. في طريقه إلى البيت عرج شيخ المشايخ على زين الدين العطار .. ما أن رآه الرجل حتى هرول باتجاهه وبيده صرة صغيرة .. تغليها في الماء وتشرب عنها وسوف يكون خاطرك راضياً يا سيدي .. تحياتي لعصفورك الصغير يلماز .. ما أجمل غناءه بالتركية ثم أخذ يغني بصوته الفظ محاولاً أن يقلد صوت يلماز (اسكي دارا جيد ركي بير ما نديل بولدوم أمان أمان) .

كان تيمور الضرغام قد خص زين الدين بسهرة معه في العلية .. ليضمن إخلاصه في العمل .

حين دخل شيخ المشايخ بيته .. لاحظ سلمى البلانة خارجة تحمل على رأسها قفتها المليئة بلوازم النساء من أمشاط ومكاحل وعطور ولبان .. تذكر ليلة نالها في بيت معلمتها السابقة البلانة بديعة .. كانت سلمى في الثالثة عشرة من عمرها .. واشترى ليلته معها بعشرة قروش .

سألها شيخ المشايخ ضاحكاً :

– كيف حال نسائي اليوم ؟

– بحاجة إليك .. هلا تركت عنك هذا الفتى الرومي ليلة أو ليلتين ؟

ضربها على إليتها فكادت القفة أن تقع .

حين انصرفت قالت في نفسها : نساؤه الثلاث مشغولات بأولادهن .. أما الرابعة فهي صغيرة وجميلة ومتطلبة .. وليس لديها أولاد تنشغل بهم .. حرام أن تترك هكذا حتى تذبل وتموت .. عيني عليك يا هنيه .. لم يعد التدليك بزيت الزيتون بعد الحمام الساخن كافياً لي أو لك .. ملعون أبو الرجال إللي زيك يا تيمور الكلب .. تفوه.

❋❋❋

التأم مجلس السمار على باب دكان الزهار .. دار الحديث سجالاً .. كما يدور كل ليلة .. قصصهم مع الضباع والأفاعي وصراعهم مع السيول والطوافين .. وحواديت الجن وأشباح القتلى .. وما تمتلئ به المخيلة المسحوقة تحت وطأة هموم الحياة الصعبة .

حلف الزهار طلاقاً بالثلاثة من زوجتيه .. أن عروسة بئر أعبية خرجت له من شور الصبر الذي يمتد على طول الزقاق إلى الساقية .

كانت ترتدي ثوباً أبيضاً .. وطرحة بيضاء .. عليها من الحلي الذهبية ما يزن رطلين .. كلما تحركت خشخش الذهب في عنقها ومعصميها ورنت خلاخيلها .

ويتابع الزهار ؟ :

– قالت اتبعني .. سأكون خيراً لك من كل النساء .. أنا بنت ملك الجان .

أعرضت عنها ومضيت دون أن التفت .. صارت تنادي بعالي الصوت :

– يا زهـــــار .

فتردد السياجات .. وأكتاف الصبر .. وكعوب الجميز .. صدى ندائها :

– يا زهـــــار .. يا زهـــــار .

وضعت إصبعي في أذني ولم التفت .. حتى لا أقع تحت سحرها .. فتسحبني إلى الساقية .. وتغرقني في البئر .. كما فعلت مع ابن المطربيعي .

كان الشباك الخلفي لغرفة خضرة يطل على ساحة الدكان .. وكانت تجلس تحته فتسمع من غرفتها كل ما يدور في الحارة ..

أما أهل الحارة فقد أقصوها عن ذاكرتهم ما استطاعوا .. حتى لا تثقل ضمائرهم بما كان .. يوم تجمعوا على باب دكان الزهار .. يستمعون لصوت استغاثاتها .. والعسكر يغتصبونها الواحد بعد الآخر .. دون أن يجرؤ أحد منهم على اقتحام الدار وتخليصها .

أثقلتهم الفجيعة أياماً وأسابيع وشهوراً .. قبل أن يرموا بذاكرتها إلى النسيان .. كانت تمر شهور دون أن يطرق بابها أحد .. لم يتقدم أي شاب لخطبتها .. ولم تجرؤ أي فتاة على مصادقتها أو الاختلاط بها .

كانت الظهور تئن تحت أحمالها الفادحة .. لم يكن هناك متسع لحمل جديد .. ثم أن عار خضرة لتنوء بحمله الجبال .. ومن يرضى أن يرزق من خضرة بولد أو بنت .. والعار في الحارة يورثه الآباء للأبناء كما يورثونهم العقار والتراث .

أول من تجافاها وأعرض عنها سالم بعد أن ظل يطاردها ليله ونهاره .. صدق فيه قول أمها :

– سالم نذل وضع عيناً عليك وعيناً على ساق الرماد .

أما آخر من تجافاها فقد كانت سكينة .. زوجة حسان السلامين .. حلف الفار طلاقاً على زوجته أن لا تدخل دار خضره أو تكلمها .. وهكذا تساوى أهل الحارة في الجحود .. بعدما تساووا في الذل .. لا مكان للتمايز في الدرك الأسفل .
تعودت خضرة على جفائهم وابتعادهم عنها .. جازتهم جفاء بجفاء .. تدبرت أمرها بعيداً عنهم .

أولاد البلبيسي الذين أخذوا الساقية من أبيها مزارعة .. ظلّوا على عهدهم معها .. يحملون إليها نصيبها من غلة الأرض .. ويقضون لها حاجاتها من السوق .
أما هي فكانت تتسل كل ليلة تحت جنح الظلام .. حتى تصل إلى ساقية الرماد .. لتسهر مع النواطير من أولاد البلابسة حتى الصباح .. ثم تعود إلى بيتها قبل أن ينبلج الفجر .
تحولت خضرة إلى طائر ليلي .. تنام في النهار وتصحو في الليل .. وقلما كان عالمها يتقاطع مع عالم أهل الحارة .. حتى أن اكثرهم لا يعرفون أن كانت ما تزال على قيد الحياة .. أو أنها لحقت بوالديها
ظل هذا دأبها حتى قررت إنهاء بياتها الشتوي الطويل .. فاجأت أهل الحارة ذات يوم بظهورها سافرة أمام المسجد .
كانوا خارجين من جامع الأيبكي بعد صلاة الظهر .. نظروا إليها .. نكسوا رؤوسهم .. مضوا كل إلى سبيله .. كأنهم ما رأوا أحداً .. أما هي فأخذت تضحك بملء صوتها وهي تراهم يهربون من طريقها .
وحده حبوش الأعمى لم يفر .. كان يهز رأسه المطربش المعمم .. يمنة ويسرة على إيقاع خطواته الثقيلة البطيئة .. فرحت لأنه بقي أمامها من تحادثه :
– كيف حالك يا عمي .
تمهل حبوش في مشيته .. مصعراً نحوها أذنه المدربة على التقاط الأصوات وتمييزها .. الذاكرة لم تسعفه .. كبرت وتغير صوتها .. أعوامً طويلة مضت منذ كان حبوش يرافق جلساتها الطويلة على قبر والديها.. منهمكاً في قيادة خطواتهما عبر مسالك الآخرة الضيقة.. بما يلقنه لهما .. وبما يقرأه عن روحهما من القرآن .. لقد ساعدهما في مواجهة ناكر ونكير اللذان أخذا يحاسبناهما في القبر على كل شاردة وورادة في حياتهما .. ولم يتسن لحبوش إدخال والديها إلى الجنة .. وضمان الغفران لهما .. إلا بعد أن تأكد أن الصبية لم يعد لديها ما تتبلغ به .. ناهيك عما تدفعه عن أرواح موتاها .
طالت وقفة حبوش وطالت حيرته .. وعاد يهز رأسه .. كما لو كان يمشي ثم سأل :
– من أنت ؟
– أنا خضرة يا عماه .

– لم تكمل فقد ولى حبوش هارباً كأن شيطاناً عرض له .. أو كمن لسعته النار .. يتعثر بأحجار الطريق .. وقد تسارعت هزات رأسه كحردون في عز صلاته .

(2)

انطلق الموكب صباح الخميس .. درويش حسين باشا متصرف غزة التركي على حصانه الأسود .. عن يمينه القاضي معروف على برذونه الأخضر .. على يساره التفكجي باشا رئيس القراقول .. خلفه مشايخ الحارات على حميرهم.. ثم عدد من العيوانيه الراجلين خلف الموكب .. وقد تسلح الجميع بالغدرات والخناجر .

خرجوا من بقايا السور القديم .. انحدروا في الطريق إلى السواقي المحيطة بالبلدة .. حيث يزرع الفلاحون الخضار على أنواعها .. اللفت والملفوف والقرنبيط والخس في الشتاء .
أما في الصيف فيزرعون الفلفل والباذنجان والبامية والملوخية .. لفت نظر المتصرف أن معظم السواقي حول المدينة مزروعة بالفلفل منذ العام الماضي فسأل :

– فلفل .. فلفل .. فلفل .. ما هذا يا مشايخ ؟

قال شيخ التفاح :

– إنه مونة أهل البلاد .. فلولا الفلفل الذي يتخذونه غموسا لهم مع الزيت والزيتون لما وجد الناس اداما سوى الملح .. الناس فقراء يا باشا وهذه مونة رخيصة لا تكلفهم شيئاً .. إنهم يأكلون الفلفل أخضرا أو مخللاً مع وجبات الطعام الأخرى كمقبل .. أو يغمسونه بالخبز مطحوناً أو يضيفونه للدقة مسحوقاً .

أثار الحديث حماس القاضي فقال :

– للفلفل فوائد لا تحصى يا باشا .. فهو فاتح للشهية .. مدر للعاب .. محرض للمعدة على العمل .. منشط للقلب .. منبه للأعصاب .. مقو للباهة .

أراد أن يسترسل ولكن الباشا قاطعه :

– أراك متحمساً كثيرا للفلفل يا قاضي أفندي .. لقد سبق وقلت لي أن كل شئ مذكور في القرآن .. فهل ورد ذكر الفلفل أيضاً .

أسقط في يد القاضي .. ما كان يتوقع سؤالاً كهذا .. لكن القريحة أسعفته في اللحظة المناسبة :

– نعم يا باشا ألم تقرأ قوله تعالى (ولا تقل لهما أف) وشهق كمن أحرقته لذعة الفلفل .. أف هذه جاءت من الفلفل الحراق .

ضحك الباشا وضحك الجميع :

– يا لك من داهية قاضي معروف .

مضى الموكب حثيثاً .. مخلفاً وراءه السواقي إلى كروم العنب واللوزيات والتفاح ..
المساحات البور التي تركتها المحاريث بين السواقي وعلى جانبي الطريق .. كانت مغطاة بالقريص والعلدة والخبيزة .. شقائق النعمان الحمراء أخذت ترصع المسافات كالقناديل وتتمايل على سوقها النحيلة .. أما الحنون الأصفر فكان يتسلل على استيحاء بين الفينة والفينة .. فارشاً زهوره الرقيقة كلما أفسحت له النباتات الشرسة مكاناً يتواجد فيه .

ما أن خلفوا الكروم حتى امتدت أمامهم سهول القمح والشعير في اتساع الأفق .. نزل شيخ التفاح عن حماره .. وأخذ يقيس قامة السنابل .

– صارت شبرا وما زلنا في أول آذار .. ما أن يصل نيسان حتى يصبح الشعير طول قامة الرجل .. هذه سنة خير وبركة إن شاء الله .

سطعت الشمس وسط سماء آذار لملبدة بالغيوم .. قال شيخ المشاهرة وهو يشير إلى قوس قزح على حافة الأفق :

– إن قوست باكر خود عصاك وسافر .. لن تمطر على رؤوسنا هذا اليوم .

قال شيخ الدرج وقد غمره الدفء فخلع عباءته عن كتفيه وطواها بعناية ثم اسقطها في خرج الحمار :

– إن نوّر الشقيق نام في الطريق .

ضحك شيخ التفاح :

– لعل هذه شمسة العجوز .. فلا تعجل بخلع ثيابك حتى لا يصيبك ما أصابها .

شرد الباشا بذهنه عما يدور حوله .. تذكر الرسالة التي وصلته من الأمير محمد آغا أبو نبوت نائب الوالي في لواء غزة ويافا وفيها : أن أحمد باشا الجزار ينوي الحج إلى بيت الله بمكة المكرمة في هذا العام .. السلطان ضم له ولاية الشام وعينه أميراً للحاج .. شرف عظيم لجناب الوالي الأفخم يستلزم بعض الهدايا من الحكام والرعية .

قال في سره : (لعنة الله على الوالي ونائبه .. لا هذا يشبع ولا ذلك يقنع .. بلصات .. بلصات .. بلصات) ثم تذكر يونس فقال (إذا أعطاني يونس مالاً فسوف أهديه للوالي أما مالي أنا فلن يرى منه شيئاً) .

وصل الموكب قبل صلاة العصر .. اصطف العبيد بأسلحتهم حول يونس الذي تقدمهم لاستقبال ضيوفه :

– يا هلا .. حياكم الله .. حياكم الله ,, هلا ورحبت .

عانق يونس الضيوف .. علقت الذبائح من عراقيبها .. اشتعلت النار تحت القدور الضخمة .. دارت فناجين القهوة المعطرة بحب الهان .. وصحاف التمر واللبن .

تحدث الضيوف عن المطر والموسم المتوقع .. كم عدد الموارس التي زرعت قمحاً أو شعيراً أو عدساً أو فولاً في كل حارة .. حتى الموارس القليلة التي زرعت سمسماً كانوا يعرفون عددها ومواقعها .

قال شيخ المشاهرة :

– لا تخافوا .. إن أخصبت وراها آذار وإن أمحلت وراها آذار .

مال القاضي معروف على يونس وقال له :

– خذ يا يونس .. صنعت لك حجاباً يحميك من كل سوء .. تكلفت خمسمائة قرش لأهل الله الذين ساعدوني في عمله .

قال يونس وهو يرد الحجاب للقاضي :

– احتفظ بحجابك يا قاضي .. أو فلتجد لك زبوناً آخر .. أرملة مسكينة أو فلاحاً جاهلاً أو فقيراً تسلبه قوت يومه .. أما أنا فلي الله وهو خير حافظ ..

مدت صحاف الطعام .. أكل الضيوف حتى شبعوا .. كان القاضي أكثرهم شراهة ونهماً .. أتى على كمية هائلة من اللحم والثريد .. اتبعها بصفحة من اللبن .. مسح كرشه وتجشأ .

قال الباشا:

– ارحم كرشك قاضي افندي .

علق شيخ التفاح ساخراً :

– دعه يأكل .. أكل الرجال على قدر منافعها .

صاح الباشا :

– لو كان هذا الكلام مظبوط .. كان قاضي باشا مات من الجوع .. قاضي باش يضر ولا ينفع .

ضحك المشايخ .. احمر وجه القاضي .. كظم غيظه .. دارت فناجين القهوة ودار معها الحديث .. أشبع يونس فضولهم قدر استطاعته .. لم يكن لديه ما يخبئه عليهم أو يخشى منه معرفته .. أسرهم بتواضعه الجم ودماثة خلقه .. حدثهم عن أبيه شيخ مشايخ السبعة وعن أخيه الذي صار شيخاً بعد وفاة والدهما .. عن المواقع الطاحنة بين قبيلته عنزة وقبيلة شمر .. عن حروب العرب وأيامهم .. عن الفرسان والشعراء والعشاق في باديته المنسية ..أفاض في الحديث عند ذكر شيخه فلاح الرواشده الذي تلقى العلم بدوره على يدي المصلح الكبير الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الدرعية على مذهب سيدنا الإمام أحمد بن حنبل .

كان الباشا قد غرق في النوم هو ورئيس القراقول .. أما القاضي فإن وقعة العشاء المخيفة التي ابتعلها أثقلت عليه.. فأخذ يراوح بين النوم واليقظة .. ولكن صوته لعلع فجأة :

– محمد بن عبد الوهاب .. أما زال ذلك الكافر حياً .. سمعت أنه مات .

قال يونس :

– كيف حكمت بكفره أيها القاضي ؟

– لقد هدم قبور الأولياء والصحابة .. ونقض طاعة السلطان وهو ولي الأمر الواجب الطاعة بعد الله ورسوله .. وأباح لأتباعه حمل السيف على من خالفهم في العقيدة مع أن الله تعالى يقول (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) .

أجاب يونس بصوت جاهد على أن يكون هادئاً :

– الكافر هو الذي يروج البدع .. ويبيع الأحجبة والتعاويذ التي ما أنزل الله بها من سلطان .. ويشرك مع الله إلها آخر حين يطلب المعجزات والكرامات من أضرحة الأولياء الذي تعفنوا

وأكلت جثثهم الأرض .. الكافر هو الذي يسكت على ظلم أولياء الأمر للرعية واستباحتهم للحرمات .

ضحك المشايخ فاصفر وجه القاضي وتطلع إلى الباشا فوجده غارقاً في النوم يغط مثل بقرة تخور .. لو كان الباشا مستيقظاً لما جرأ يونس على قول ما قاله .

أراد القاضي أن يثأر لهزيمته أمام هؤلاء المشايخ الجهلة العوام .. الذين لا يؤبه لهم .. فأخذ يستعرض أمامهم ليبهر يونس هذا البدوي الجلف .

– وماذا يكون محمد بن عبد الوهاب هذا .. ومن أعطاه الحق ليتطاول على الأولياء والصالحين .. ويحدث في الإسلام ما ليس فيه .. لقد أنجبت غزة أفاضل العلماء أصحاب المقامات والكرامات فلم ير أحد منهم رأي شيخكم هذا .

ألم تسمع عن علماء غزة .. لعلك لم تسمع بغير الشافعي .. غزة أنجبت سواه الكثيرين .. منهم بحر العلوم بدر الدين أبو البركات .. والنجم الغزي صاحب الحلة البهية في الأجرومية والشيخ شعبان الدمرداش الشهير بأبي القرون الذي خضعت له الهوام والأفاعي .. والشيخ حسن بن عبد الكريم الملقب بابن النخالة الذي نطق له الحمار .

تبسم يونس وهو يقول :

– عجبت لغزة .. تنبغ حميرها ويتبلد قضاتها .

قهقه الجميع ساخرين فاستشاط القاضي .. لقد خسر الجولة مرة ثانية .. بسط القاضي فراشه على الأرض وأحكم الغطاء على نفسه وقد أزمع النوم .

– تصبحون على خير .

– ردوا عليه بصوت واحد .

– وأنت من أهله قاضي أفندي .

في اليوم التالي واصلوا جولاتهم في الوادي ..حل الظلام فتحلقوا حول بكارج القهوة:

قال شيخ التفاح :

– رأيناك تؤثر جوهر على سائر عبيدك وتخصه بمحبتك؟

أجاب يونس :

– إنه أخي في الرضاعة .. مرضت أمي بعد مولدي ولم تستطع إرضاعي .. كانت أم جوهر قد وضعته قبلي بشهرين .. وهي جارية حبشية اشتراها أبي حين حج البيت من سوق مكة . زعم تجار الرقيق لأبي أنها زوجة ملك الحبشة .. ولما كان أبي لا يعرف من أسماء ملوك الحبشة غير النجاشي فقد سماها نجاشي .. أرضعتني مع جوهر ونشأت معه منذ طفولتنا كأخوين .

لقد منحه الله بسطة في الجسم والعقل فشب كما يشب المارد .. ورغم بشاعة وجهة .. كانت له روح تفيض بالجمال .. حفظ الشعر ورواه عن شعراء القبيلة وتعلم أن يحز على الربابة .. ويغني بصوته العذب .

نادى بأعلى صوته :

– جوهر .. جوهر .

هلا أسمعتنا شيئاً على الربابة .

كان الباشا والقاضي قد أخلدا إلى النوم مبكرين .. وكذلك فعل التفكجي رئيس القرقول .

استل جوهر ربابته وأخذ يحز عليها حتى تقطعت نياط القلوب .. ثم أنشد :

حبو سطا بي سطوة بين الأضلاع

وسوى بقلبي مثل ضرب المقاريع

ما أريد غيرو ولو سعى بيه الاقطاع

وعلي حرمت من سواه المراضيع

وامجرد في غرة الوجه لماع

حامي به ورد الخدود اللواميع

يا ناظراً بيض الترايب لها راع

نهدين كالحقين غض المطاليع

يشبه قضيب البان لن هب ذعذاع

متمايل ما بين رفع وتوضيع

يا عاذلي عنك أنا صم الاسماع

عاصي عليك وسامع الشوق ومطيع

أنا الشجاع أن جاني الضد فزاع

وأنا الذيل أن شفت منو المفازيع

طق جوهر غزال ربابته ونحاها جانباً بينما انهالت عليه كلمات الثناء والتقريظ .. فرد الجميع فراشهم واستلقوا ثم ما لبثوا أن ذهبوا في النوم .

في الصباح تناولوا إفطاراً سريعاً وأخذوا يتهيأون للمغادرة .. انتحى يونس بالباشا جانباً وقال له :

– حدثني الفلاحون كيف نزع شيخ المشايخ ملكية الأرض منهم وأرادها لنفسه لولا أنني وصلت الدبوية في اللحظة المناسبة .. ثم أخرج من جيبه صرة من النقود أعطاها للباشا :

– هذه لك على أن تبلغ شيخ المشايخ أنني سأنزع رأسه لو حاول نزع شبر من هذه الأرض ثانية .. وأشار إلى الوادي .

تمتم الباشا وهو يخفي صرة النقود في جيبه :
– طبعاً .. طبعاً .. ليس كل الطير يؤكل لحمه يا شيخ يونس .

(3)

فتحت خضرة باب غرفتها متأخرة هذه المرة .. أيقنت أنها قد أضاعت السهرة مع النواطير من أولاد البلابسة .. داهمتها رائحة الياسمين المبللة بأنداء الليل .. تنشقت بملء صدرها .. كانت أشعة القمر تنسكب في الفناء .. نظرت إليه .. رأته مستديراً ومتوهجاً كرغيف خارج من الفرن .. مدت ذراعيها لتمسك به .. وقد غمرتها النشوة .. غالبها الضحك .. جلجلت ضحكتها في الفناء والحارة والكون كله .

من علمها الضحك .. عاشور ما غيرو .. ابن الشيخ سيد كبير البلابسة .. فتى يقاربها في السن كسائر أولاد وبنات البلبيسي .. ولكنه أكثر الجميع وسامة .. فارع الطول عريض الكتفين .. وعيناه الواسعتان تفيضان رضى ومحبة .. حينما كانت تصاحب والدها في زياراته للساقية كان عاشور يجمع لها أزهار النرجس والمنثور ولا يكف عن متابعتها بعينيه الواسعتين .

في المرة الثانية دق عليها الباب يحمل لها نصيبها من محصول الساقية وهو نفس ما كان يتقاضاه والدها قبل وفاته .. ولم ينس أن يدعوها لزيارة الساقية حيث الجميع في شوق إليها .

حين لبت الدعوة قادها عاشور إلى البركة حيث الأولاد والبنات يبتردون من حر الصيف اللاهب .. عرض عليها أن يعلمها السباحة .. ترددت .. أشار إلى البنات .. سحبنها إلى الماء وهن يصخبن ويتضاحكن .. نزلت الماء بثيابها .. انتقلت اليها عدوى المرح .. صارت ترش عاشور بالماء كما تفعل باقي الفتيات .. انقض عليهن عاشور .. سبحن هاربات في الاتجاه الآخر .. إلا خضرة .. لم تكن تعرف السباحة .. طواها عاشور بذراعيه وهي تحتج وتدق صدره بقبضتيها .. أخيراً تركها وذهب .

في المرات التالية كانت أكثر جرأة .. رضيت أن تتعلم السباحة .. تسابق فتيان البلابسة لأداء الخدمة .. تعلمت منهم السباحة .. وتعلمت معها تلك اللمسات الرقيقة التي تبدر عن الأكف المضطربة تحت الماء .

من هو الذي بدأ اللعبة .. مجاهد .. متولي .. وهدان .. لكن عاشور كان أكثرهم جرأة ويده أكثر الأيدي ثباتاً وطمأنينة .

الليلة يسهر عاشور على حافة البركة.. يحرس مشاكيب الخيار والفقوس .. لقد أقسم لها أنها تستطيع في ليالي القمر سماع صوت الخيار وهو يكبر في تلافيف المقتاه .. يطقطق كأصابع عروس تدلك بالزيت في يد البلانة .. لم تصدق .. تلك واحدة من شطحاته المسلية .. لشدما تشتاق إلى أحاديثه العذبة .. إنها تريده الآن .. انطلقت إلى الزقاق .. كانت الحارة هاجعة تستحم بضوء القمر .. حوم طائر ليلي بعيد عنها ثم غاب في تلافيف الجميزة .. تناهى إلى أذنها صوت الجنادب والزيزان تغني في الحقول القريبة .. اختلط الغناء بنقيق ضفادع بركة قمر .. تخيلتها وهي تتقافز تحت الماء.. سعيدة بفعل الحب .

علت دقات قلبها حتى حجبت كل ما عداها من أصوات .. حاولت أن تبلع ريقها .. لكنه كان جافاً كالحطبة .

أخيراً ركضت .. ركضت دون توقف حتى وصلت الساقية وهي تلهث .. التقطت أنفاسها ونظرت إلى القمر .. بدأ يغيب وسط هالة من الضباب ..

أخذ الندى في السقوط .. خيم صمت مطبق حتى أنها سمعت صوت الخيار وهو ينمو .. صعدت إلى البركة لتفاجئ عاشور .. كان نائماً على الحافة الأخرى .. جلست ومدت ساقيها في الماء .. اضطرب القمر في قاع البركة .. تراقصت شلالات الضوء في قلبها .. خلعت ملابسها وكومتها على الحافة .. سبحت باتجاه عاشور .. خرجت من الماء شهية وطازجة

مثل سمكة اللقس .. رفع بذراعه الغطاء وأشار إليها .. دخلت تحت الغطاء وهي تقطر بالماء والرغبة ..

غاب القمر تماماً .. حين بزغ النهار اكتشفت أنه لم يكن عاشور .. قالت في نفسها وهي ترتدي ثوبها على عجل وتهرول إلى البيت قبل أن يصحو الناس .

– وما الفرق .

❋❋❋

لم يكن من عادة شهوان المحافظة على أداء الصلاة في مواعيدها وفي المسجد أيضاً قبل أن يقع في حب مريم بنت الشيخ محمود .. قال أهل الحارة : هذا رجل هبطت عليه الهداية فجأة .. فهو لا يكتفي بأن يكون أول الواصلين إلى المسجد .. بل يتعمد أن يصلي في الصف الأول وخلف الإمام مباشرة .. كما يحرص على رفع الآذان بصوته الجميل الذي يشرح الصدر ..

قد أحنق ذلك حبوش الأعمى مؤذن المسجد حين ظن أن شهوان سينافسه على صدقات أهل الحارة ولكنه سرعان ما رضي على مضض حين تأكد أن الصدقات التي تصل المسجد في غيابه يؤديها له شهوان كاملة دون أن يمس منها شيئاً .

تهالك شهوان على الحصير البالي بعد صلاة العصر مهموماً مضطرب الفؤاد .. فكل الذين وسطهم ليخطبوا له مريم من الشيخ محمود .. تهيبوا الأمر واعتذروا عن الخوض فيه مع شيخهم وإمامهم .. إلى أن اضطر أمس للذهاب إلى شيخ الحارة والتوسل إليه :

– ألم يكن المرحوم أعز أصدقائك .. ألم يوصيك بي يا عماه ؟

أطرق شيخ الحارة برأسه قليلاً ثم قال :

– سأفاتحه رغم أنني أعرف الرد سلفاً .

بدا شهوان بين عواجيز الحارة الذين جلسوا لسماع درس العصر كطائر في غير سربه .. فالشباب لا يجدون الوقت لدخول المسجد .. الشباب في شغل شاغل يحملون عن آبائهم هموم الفلحة .. حرث و بذار وحصاد .. ورعاية للماشية واتجار بالغلال.. وما إلى ذلك في بيئة قاسية لا تعطي إلا بمقدار ما تأخذ من العرق والجهد .. أما هؤلاء العواجيز فقد تقدمت بهم السن ..استشعروا اقتراب النهاية فهم يتزودون لرحلة الآخرة (إن خير الزاد عند الله التقوى) .. آملين أن يكتسبوا من الحسنات ما يرجح كفة الميزان حين توزن حسنات المرء وسيئاته يوم القيامة .. وقد طمأنهم الشيخ محمود بأن الحسنات يذهبن السيئات .

اتخذ الشيخ محمود مجلسه على الدرجة الأولى من درجات المنبر .. سكتت الهمسات .. اشرأبت إليه الأعناق التي ملأتها التجاعيد .. توقفت الأصابع المعقوفة عن العبث بحبات المسابح .. ألقى الشيخ محمود بالتحية .. فردوا عليه بمثلها .

– درسنا اليوم عن الجنة وما أعد فيها من خيرات للصالحين والمتقين .
تنهد كبير البطوش :
– اللهم اجعلنا في زمرتهم .
أمنوا على دعائه بأصوات متفرقة .. تابع الشيخ محمود :
– سئل رسول الله صلعم عن بنائها : " لبنة من ذهب ولبنة من فضة .. ملاطها مسك أزفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت .. ترابها الزعفران .. نخل الجنة جذوعها الزمرد الأخضر .. ولونها الذهب الأحمر وسعفها الحرير كسوة لأهل الجنة ينسجون منها حللهم " .. وعن بهمز عن أبيه قال سمعت رسول الله صلعم يقول : في الجنة بحر اللبن وبحر العسل وبحر الخمر وبحر الماء ثم تشقق الأنهار منها " تجري من تحتهم الأنهار خالدين فيها أبدا " .. وعن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة يدخل أهل الجنة الجنة مردا بيضاً جعداً مكحلين .. أبناء ثلاث وثلاثين .. على خلق آدم ستون ذراعاً في عرض سبعة أذرع .. وعن أبي هريرة أيضاً أن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر.. والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة .. لا يتبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمخطون .. أمشاطهم الذهب وريحهم المسك .. ومجامرهم اللؤلؤ.. وأزواجهم الحور العين التي يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن .. لا اختلاف بينهم ولا تباغض .

قال أبو غوش وكان في حياته مزواجاً مطلاقاً حتى أنه لا يستطيع أن يحصي عدد نسائه :
– وكم حورية من حواري الجنة للمسلم ؟
هتف شيخ الحارة :
– كأنك لم تشبع من نساء الدنيا حتى تلاحقنا على نساء الآخرة .
قال الشيخ محمود :
– يا شيخ رمضان وهل تقاس نساء الدنيا بحواري الجنة.. أولئك اللواتي يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق مثلها (نحن الخالدات فلا نبيد .. الناعمات فلا نبأس .. الراضيات فلا نسخط طوبى لمن كان لنا وكنا له) .
ثم تايبع الشيخ محمود موجهاً كلامه لأبي غوش :
– أدنى أهل الجنة منزلة له ثمانون ألف جارية واثنتان وسبعون زوجة وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين دمشق وصنعاء .. رواه أحمد .

شهق حسان السلامين وقد باغته العدد .. تذكر سكينة كيف انصرفت عنه كسيرة النفس في الليلة الماضية وند عنه السؤال :
– وهل يطيق الرجل كل هؤلاء .

أجاب الشيخ محمود مزهواً بتبحره في العلم :
– الرجل في الجنة يعطي قوة مائة رجل .. رواه الترمذي وأبو داوود .
برطم حسان في غيظ :
– ولماذا لا يعيد الله لي قوتي في الدنيا وأسامحه بقوة المائة رجل في الآخرة .. عصفور في اليد .
سأل الشيخ محمود :
– هل قلت شيئاً يا حسان ؟
– قلت لا إله إلا الله محمد رسول الله .
قام الشيخ من مجلسه فقام الآخرون وهم يحلمون بالجنة وما فيها .. أما شهوان فقال في نفسه :
– حسبي من جنتك يا شيخ محمود الفوز بمريم .. والله إن جنتي هي القرب منها وناري هي البعد عنها .. ولا أعرف لي من نار أو جنة سوى هاتين .. تابع شهوان شيخ الحارة حتى إذا خلى الطريق من سواهما بادره بالسؤال :
– خير يا عماه ؟
– لقد فاتحته .
– هل وافق ؟
– كنت أعرف الجواب سلفاً ولكنك أصررت على المحاولة .. يا ولدي البنات أكثر من الهم على القلب .. فاختر لك واحدة غيرها .
– ولكنني لا أريد سواها .
– ما باليد حيلة .
– ولكن لماذا يا عماه ؟
– لا تسألوا عن أشياء أن تبد لكم تسؤكم .
– من حقي أن أعرف ؟
– تلفت شيخ الحارة حوله محاذراً أن يسمعه أحد .. ثم وضع يده على كتف شهوان مشفقاً عليه .. أنزل شهوان يده كأنما يرفض شفقته وقد استشعر عمق الجرح الذي غار في قلبه .. قال شيخ الحارة :
– الرجل يرفض مصاهرتك .. يقول أنك زمار تجري وراء الأفراح والموالد .. وتصاحب الدون .. الطبالين والراقصات .. وهو رجل دين يقرأ القرآن ويحدث عن رسول الله.. فكيف يعطيك ابنته .

– أنا أزمر عندما لا يكون لدي عمل آخر .. إلا حرث الأرض معكم ؟ إلا آخذ كروة حصاد .. هل تسولت يوماً على باب أحدكم .. ثم إنني أريدها وهي تريدني وكل قلب وما يهوى .

استنشاط شيخ الحارة:

– اخرس .. هذا الكلام لا يقال .. هذا موضوع يخص الكبار من الأهل .. أما الأولاد (وضرب كفاً بكف) صحيح لولا المربي ما عرفت ربي .

– أتعرض بي لأنني نشأت يتيماً .. اللي ما بتربيه أمو وأبوه بتربيه الأيام والليالي .. ثم أنني لم أذكر ذلك لأحد سواك يا عماه .

– بل ذكرته يا شهوان في مواويلك وأشعارك .. ألم تقل في عرس البهتيني :

يا اللي اسمك بين الميم و الراي

وحسنك توه أفكاري مع الراي

قضيت العمر ما ارسيت لي على راي

وايش العمل يا خلق في اللي ابتلى

هل تريد أن تجلب العار على إمام مسجدنا ..الرجل التقي النقي الطاهر .. هذا لا يجوز.. أنصحك بأن تكف عن الشيخ محمود فأنت لست كفواً له .. وإني أخشى إن أخرجته عن طوره أن يقرأ عليك عدية ياسين فيصيبك لطف لا تنجو منه .

– لمن أذهب بعدك .. أنت شيخ حارتنا وأنت فينا الآمر الناهي .

ثم مضى وهو يجأر بأعلى صوته :

– هذه حارة ظالمة .. تأكل أبناءها كما تفعل القطط .. تخليتم عن خضرة .. وها أنتم تتخلون عني .. أنا زمار .. وهو يقرأ القرآن وما أدراكم أنني أقرب منه إلى الله .. إن قلبه يقسو كالصوان .. وإن قلبي ليسيل كالماء.. وسيحكم الله بيننا .. (ثم توجه إلى السماء وأخذ يقلب عينيه فيها) ..

يا رب لا استطيع أن أتكلم مثل شيخ على المنبر.. حتى أشكو لك وأشرح ما أنا فيه .. لا أعرف أسماءك الحسنى لأناديك بها.. حتى تستجيب لدعائي .. لا أحفظ عدية ياسين لكي أقرأها فتلين لي قلب الشيخ محمود .. أنا لا أعرف سوى التزمير .. سوف أنفخ في الشبابة وهي ستشرح لك كل شئ .. وسوف تفهم عليَّ .

أخرج شبابته وبدأ يصفر .. خرج لحنه حزيناً يقطر دماً .. كانت الشبابة تئن تحت أصابعه وتجأر بالشكوى .. أخذت الجدران تخفض هاماتها على جانبي الطريق والأشجار العالية

تتطامن عليه بأغصانها المرتجفة.. لكي تمنحه ظلالها الكثيفة وتحميه من وهج الشمس .. تفجر الحنان من صخور الشعف .. وفاض على الحارة كلها كما يفيض سيل المنطار .

كانت مريم تملأ جرتها عند بئر الجماقية .. سمعت الشبابة .. تلكأت حتى وصل شهوان .. لم يكن على الحوض غيرهما.. ركع شهوان على الأرض وقبل طرف ثوبها .

– يا مريم لقد سمع الله الشبابة ودبر لنا هذا اللقاء .. أبوك يرفض كل الوسائط .

– هل ؟ .. (لم تقل نهرب ولكن الدم شرد من عروقها وعلت وجهها صفرة الموت..فهم شهوان ما تريد قوله) .

– كلا لا أريد أن أحمل والدك العار فيغضب عليك إلى الأبد .

– ماذا نويت إذن ؟

نهض ووقف قبالتها وجها لوجه والدموع تطفر من عينيه :

– دعيني أتملى منك فربما يكون هذا آخر لقاء بيننا .

ألقت بنفسها في أحضانه .. غابا في لحظة عناق كأنما أصابتهما غشية .. ثم ما لبث أن ابعدها عنه :

– لا أريد أن يرانا أحد على هذه الحال فينال منك .. تخلص منها برفق ..اختفى في عطفة الزقاق الصاعد إلى ساقية اعبية .. ظلت مريم مسمرة في مكانها .. حتى سمعت صوت الشبابة .. تهالكت على حافة الحوض تخط بأصابعها في الماء ودموعها تسيل حتى اختفى صوت الشبابة .

حينما عادت إلى البيت سمعت والدها يرغي ويزبد :

– ما زال شهوان الكلب يذكر ابنتك ويشبب بها في الأفراح والموالد حتى فضحها .. والآن يسود وجهي مع أهل الحارة حين يتشفعون له فلا أجيبهم إلى طلبهم .. والله لأقرأن عليه الليلة عدية ياسين فلا يصبح عليه الصباح .

نامت مريم ودموعها في عينيها .

(4)

انحبس المطر طوال شهر آذار .. كانت الغيوم تتجمع في السماء ثم ما تلبث أن تسوقها الريح إلى ما وراء الأفق .. ضرب الذهول الجميع .. سنابل القمح بدأت تصوح .. الشعير أصفر لونه وهو مازال طول شبرين تنادي أهل المدينة إلى صلاة الاستسقاء .. في ساحة مسجد السيد هاشم جد الرسول .

عند الصباح تجمع أهل الطرق الصوفية بأعلامهم وطبولهم وصاجاتهم يدقون عليها .. ويترنمون بالأوراد ويتطوحون في حلقات وهم يرددون اسم الجلالة في خشوع وتهدج :
(الله .. الله .. الله) وخلفهم جماعات من الصبية يرفعون عقائرهم بالغناء :

سيد هاشم نسترجيك رشق المطر يرقع فيك
يا الله المطر يا الله السيل اسقي زرعك هالعطشان
حط القمح في الجرة واستنى رحمة الله
حط شعيرك في بيرك واستنى الله يجيرك

سار الموكب يتبعه الجمهور الغفير من العامة باتجاه جبل المنطار خارج المدينة ..
الباشا والقاضي وأغوات الأسباهلية والإنكشارية ووجهاء المدينة ..اخدوا اماكنهم في الصف الاول.
خلع القاضي جبته ولبسها بالمقلوب وصلى بالناس صلاة الاستسقاء .. بعد الصلاة جاءوه بمحراث مشدود إلى حمار أبيض.. حرث خطاً طويلاً ثم سلمه لغيره من مشايخ الطرق وعلية القوم .. ففعلوا مثله ثم جلسوا في الثلوم المحروثة .. رفعوا أيديهم إلى السماء .. أخذ القاضي يدعو وهم يؤمنون وراءه :
– اللهم أرسل السماء علينا مدراراً
اللهم اسقنا الغيث واجعله غدقاً ودقاً
اللهم ارحمنا برحمتك ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا
اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا

بعد الدعاء ركب القاضي برذونه وركب علية القوم منصرفين إلى بيوتهم .. أما موكب الدراويش وأهل الطريقة فقد استمر يتبعه العامة إلى ضريح سيدنا المنطار ففعلوا ما فعلوه عند ضريح السيد هاشم :
– يا منطار نسترجيك رشق المطر يرقع فيك
ثم هبطوا إلى سيل المنطار الذي جفت أرضه وبدا رمل قاعه اصفراً نظيفاً .. كأنما نزل من المنخل .. ضجوا بالنشيد .. فكانت طائفة تقول الكلمة والأخرى تكمل :
– قنولو
– سيل المنطار
ثم انحدر الموكب مع سيل المنطار إلى حارة التفاح .. حيث طاف بأولياء الحارة وهم يتضرعون عند كل ولي باسمه وينادونه أن يشفع لهم بالغوث والمطر .
في المساء عاد الناس إلى بيوتهم وهم يمدون أعينهم إلى المساء في ضراعة ويصيخون السمع لعل الرياح تحمل لهم مطراً .

في تلك الليلة لم يستطع شيخ الحارة النوم .. لم يكن الجفاف همه .. الوحيد رغم أن الجفاف يعني خراب الحارة ومن فيها .. لن يستطيع الفلاحون تسديد ما عليهم من الديون والضرائب وقد يموتون جوعاً .. ليس لدى أغناهم ما يسد رمقه إلا شهرا .. لكن هماً جديداً طرأ عليه .. جاءه ابن أخيه سالم يطلب يد فاطمة .. أخذته المفاجأة .. ما كان يحسب أن وقاحة سالم تصل إلى هذا الحد :

– أنت متزوج ثلاث مرات يا سالم ولديك من زوجاتك عشرة أولاد .. فاطمة في عمر بناتك .

– إنها ابنة عمي.. دمي ولحمي .. وأنا أولى الناس بها .. أم أنك تريد من يعرفك بعاداتنا وتقاليدنا .. ابن العم أحق من الغريب (ولو كان عظم في قفة) .. والله لن يتمتع بابنة عمي رجل وأنا حي .

نهض شيخ الحارة مهموماً دون أن يجيب ابن أخيه .. ذكر ما فعله سالم مع العامري وما آلت إليه خضرة فردد :

– لا حول ولا قوة إلا بالله .. إنا لله وإنا إليه راجعون .

لقد كان سالم سبباً لبلاء أخيه وشقائه .. وكثيراً ما قال الناس : لولا سالم لعاش الحاج رجب عشرين سنة أخرى .. لا نهاية لطمع سالم وجشعه .. احتاز أرض أبيه كلها وثروته .. .. لم يعط أخواته البنات شيئاً .. ها هو ينشر مظالمه على الناس حتى لم يبق أحد لم ينل من ظلمه نصيباً .. جاء دورك يا رمضان .

اليوم يأخذ فاطمة وغداً يأخذ الشيخة .. ما أظنه يتركها لولدي مبارك وهو صغير السن قليل التجربة .

فاطمة صغيرة لكنها عاقلة .. ما أظنها تقبل بهذا الفظ الغليظ القلب زوجاً لها .. عندما يجيء الرفض منها لا يستطيع سالم أن يرغمنا على مخالفة الشرع .

لقد خطبها الكثيرون لكني لم أجد من هو أهل لها .

تأخرت عودة شيخ التفاح .. كانت الريح تعول في الخارج .. سمعت فاطمة عواء بنات آوى في الحقول البعيدة .. ثم أخذ العواء يقترب شيئاً فشيئاً .. عواء طويل مجروح كالأنين .. لقد أمضها الجوع فزحفت في الظلام والبرد .. تلتمس أرنباً أو دجاجة أو حتى بعض الفضلات التي خلفها الرعاة ونواطير الكروم في الحقول البعيدة .. شيئاً يسد جوعها القاتل .

اقترب الصوت أكثر .. خالته فاطمة يأتي من ساحة الدار .. هبت كلاب الحارة دفعة واحدة لتبدأ مطاردتها الأزلية وراء بنات آوى .. أخذت الأصوات المتشابكة تتباعد حتى لم تعد تسمع .. كأن بنات آوى وصلن إلى آخر الأرض .

في طفولتها كانت فاطمة تمتلئ بالرعب.. لكنها سرعان ما تعودت على هذه المطاردة الليلية وتعايشت معها .. بل أنها لتفتقدها كل ليلة وتصغي ملياً طلباً لسماعها .. صارت معلماً من

معالم الحياة في الحارة المتاخمة للحقول .. وإلا فما هو ليل الحارة .. ثم هذا الهدوء الذي يعقب المطاردة الليلية .. الهدوء المبرقش بأصوات الجنادب .. ونقيق ضفادع بركة قمر حيث تتجمع مياه سيل المنطار طوال الشتاء وتبقى حتى آخر الصيف .. لم يعد والدها بعد ..
أضجعت أخويها الصغيرين علي ومحمد .. جلس مبارك القرفصاء منهمكاً في شحذ خنجره كان يكبر فاطمة بعامين .. ولكنه كان رقيقاً معها عطوفاً عليها .. على غير عادة الأخوة في الحارة .. الذين يمتحنون رجولتهم المبكرة باضطهاد أخواتهم البنات .
أحكمت فاطمة الغطاء على أخويها ثم تسللت إلى حيث تجلس أمها في انتظار عودة أبيها .
حينما رجع وضعوا العشاء أمامه .. انتظروا أن يبدأ الأكل .. لم يمد إلى زاده يداً .. قالت فاطمة :

– ما بك يا أبي ؟

– خطبك مني سالم .

شرد الدم من عروقها :

– هل أعطيتني له ؟

– كلا .

صرخت أمها :

– بالله عليك .. لا أريد أن تقع بنتي على ضرة .. أنت تعرف نساء سالم وما هن عليه من الدهاء والمكر .. كل شئ إلا هذا يا رمضان .

قال شيخ التفاح :

- لن أزوجك الا لرجل ترضين به يا فاطمة .. أنت ابنتي الوحيدة .. ثم أنشد :
- (وأنا أبوكي يا سعدى وانا علقم العدا وأنا بيضة القبان لأرجح قبالها) .

رمت نفسها على صدره كمن يفر من الموت .. قبلت وجهه ولحيته :

– لهذه الدرجة تكرهين سالم .. حسبي الله ونعم الوكيل .

في تلك الليلة صلت فاطمة كثيراً .. دعت الله أن لا يكتبها زوجة لسالم .. حينما أغمضت عينيها نامت نوماً هادئاً قريراً .. عاودها الحلم نفسه الذي ما فتئت تراه في سنواتها الأخيرة .. الحصان الأبيض الذي يعدو في السهول ويطير كالحمامة .. في هذه المرة اقترب منها أكثر حتى كادت أن تلمسه قبل أن يركض ناشراً عرفه الطويل .

في الصباح كانت الغيوم الكثيفة تغطي سماء المدينة .. أخذ الرعد يدمدم بشدة .. ثم نزل المطر .

قال شيخ الحارة :

– الحمد لله سبحان محيي الأرض بعد موتها .. غداً يا بركة تصنعين لنا الزلابية احتفالاً بالمطر .

أرعدت ثانية .. صهل حصان شيخ الحارة في الزريبة .. وأخذ يضرب الجدار بسنابكه .. قال الشيخ رمضان :

– يبدو أن صوت الرعد قد هيجه .. ضاعفي له العليق اليوم يا فاطمة .. الحصان الشبعان أقل هياجاً من الحصان الجائع .

في اليوم التالي كانت الحارة في عيد حقيقي .. كل البيوت أولمت لأطفالها الحلوى .. صارت الزلابية في كل يد وعلى كل فم .

انطلق الأولاد إلى الساحات والأزقة ينشدون تحت المطر :

امطري وزيدي بيتنا حديدي

جارنا عبد الله رزقنا على الله

**

وقف الشيخ محمود إمام المسجد الأيبكي على المنبر ليخطب الجمعة .. حمد الله وأثنى عليه .. سار في الخطبة إلى آخرها وحين بلغ قوله :

– واعلموا أن الله صلى على نبيه قديماً .. ولم يزل قائماً عليه .. وآمراً حكيماً .. فيا أيها اللذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً :

صعد شهوان المنبر درجة درجة حتى حجب الإمام عن الناس ثم استدار إليهم وقال :

– يا أمة محمد .. اشهدوا أن هذا الرجل الطاهر التقي النقي .. قتلني وأن دمي في عنقه إلى يوم القيامة .

استل شهوان خنجراً وطعن نفسه طعنة نجلاء .. أخذ يتدحرج والدماء تسيل منه على درجات المنبر .

هاج الناس وماجوا .. ثم حملوا شهوان إلى خارج المسجد .

طوى الإمام خطبته .. نزل عن المنبر متسللاً حتى غيبه باب داره وهو يحوقل ويلعن البنات وخلفتهم .

ظل شهوان شهراً يراوح بين الحياة والموت .. استشعرت الحارة الذنب .. افتقدت مواويله ونوادره وحكاياته .. تعليقاته على الأحداث وخفة ظله .. لم يتصوروا يوماً أن شهوان سيختفي من حياتهم كما يختفي الظل .. أكثر أهل الحارة افتقاداً له كان الزهار ورواده .. أولئك الذين يسهرون على باب دكانه حتى الهزيع الأخير من الليل .. والذين كانت شبابة الزهار تحرك الحياة في أعماقهم .. وتنبض برغباتهم وأشواقهم الخبيئة .. ويوماً قال الزهار :

– الحارة من غير شهوان زي الخرابة .. ومن العار علينا أن نتركه يموت قهراً .. كان شهوان سفيرهم إلى الحارات الأخرى .. همزة الوصل بينهم وبين العالم الخارجي .. لا تعثر حمارة في الشجاعية إلا ولديه خبرها .. ولا ترقد دجاجة على البيض في حارة المشاهرة إلا وعلم كم بيضة تحتها .. ناهيك عن الأفراح والموالد وحفلات الطهور والافراد .. إلى جانب الوقائع الجسيمة .. كالطوشات والهوشات بين العائلات والحواميل والحارات بعضها مع بعض.

من ولد ؟ وكيف ولد ؟ ومن مات ؟ وكيف مات ؟ كان دائرة معارف متنقلة وبريداً عاجلاً .. وقد خلقت له الشبابة اصدقاء في كل حارة.. كانوا يحنون إليه ويفتقدونه إذا غاب .. أما القبضايات والجرعتلية فقد استرضاهم بحلو حديثه ورقة طبعه ودماثة خلقه .. جاملهم في أفراحهم وشارك في أتراحهم .. وكان له من كل ذلك جواز مرور إلى أي مكان يريده .

أهل حارته كانوا يقصدونه في بعض ما يحتاجون إليه من الحارات الأخرى أو من سوق المدينة .. كان يقرب لهم البعيد .. ويؤدي خدماته للجميع دون مقابل .

جمع الزهار أهل الحارة ذات ليلة .. ذهب بهم إلى مضافة شيخ الحارة .. قال له بتحد لم يتوقعه أحد :

– نحن ذاهبون إلى بيت الشيخ محمود ولن نعود من عنده إلا إذا أعطى مريم لشهوان .. هل ستأتي معنا أم نذهب بدونك يا رمضان ؟

– بل أذهب معكم ؟

حملوا على إمام الحارة حملة رجل واحد .. وما كان مولانا ليستسلم لولا أن مريم في تلك الليلة قالت لأمها :

- شهوان قتل نفسه من أجلي .. سأذهب إليه وأموت تحت أقدامه شئتم أم أبيتم ..

وهكذا عقد له الإمام على ابنته وهو مازال في فراش المرض .

لم يكن عرساً عادياً هذا الذي تحتفل به الحارة الآن .. إنه عرس شهوان الذي توجته أشعاره في مريم وتضحيته من أجلها ملكاً على العشاق .

بدأ أصدقاء شهوان والمعجبون بفنه .. يتوافدون على الحارة منذ صلاة الظهر .. الزهار الذي أشرف على كل كبيرة وصغيرة في العرس حسب حساب الوافدين من خارج الحارة .. دبح أربعة خراف من خرفان النقوط كان أكبرها الخروف الذي قدمه شيخ الحارة ..

أكل الجميع من صحاف البرغل المغطاة باللحم والشحم .. ثم انبروا إلى صدور الكنافة التي أبدع إعدادها مراد البتير .

دارت القهوة المرة على الحاضرين الذين انتظروا لكي يشاركوا في زفة العريس .. أطل شهوان من بابا بيته في حلته الجديدة .. أحاط به شباب الحارة .. سارت الزفة باتجاه الساحة .. والشباب يهزجون :

درج يا غزالي   عا رزق الحلالي

درج يا حبيبي   ريتك من نصيبي

نخ الخيل ونخ الخيل

نخ الخيل على الصفين

الله يمسيكم بالخير

الله يمسي حارتنا

إللي حامله حملتنا

شمو ولمو   هالريحان

سلطة منو   هالريحان

كل شئ منو   هالريحان

إكبر و ادحدل   يا رمان

على بطن الحبله   يا رمان

رمان ملليسي   يا رمان

كلوا على كيسي   يا رمان

حين مروا بدار السويسي أخرجو لهم كرسياً .. جلس عليه العريس.. صبوا شراب الليمون لكل المشاركين في الزفة .. صاح إبراهيم السويسي يحي العريس :

عريسنا يا نجمة سهيل هايهاي   والورد فتح على كمو

بيت له الشباب بصوت واحد :

– هــــوي .

فكمل الموال :

– إن ما طخ الضبع هايهاي   تعتب عليه مرت عمو

تعالت الزغاريد

توقفت الزفة على باب البطوش والريفية .. انتخى رضوان حفيد البطش صديق مبارك فشارك في الزفة :

لا تحسبونا خواجات هايهاي   وإلا نتاجر بالعطاره

اصغيرنا ضراب الرصاص هايهاي   واكبيرنا في الحرب غاره

زغردت له كل نساء دار الريفي وعانقه جده فرحاً
- عافاك يا رضوان عافاك .. العرس الجاي عرسك
خفق قلب نواره بشدة .. مضت الزفة إلى الساحة وابتعدت المشاعل ..
تسللت في العتمة إلى حيث يقف رضوان .. قرصته في ذراعه .. هربت إلى الدار وهو يعدو وراءها .
حين عاد إلى الساحة وقف إلى جانب مبارك .. همس مبارك في أذنه :
- لقد رأيتك تجري خلف نواره .
- وأنت ألا تجري خلف ليلى بنت سالم .
مد مبارك كفه ووضعها على فمه .
- استرنا يا سيدي .. النبي شاف بعينو وستر بديلو .
ضحكا سعيدين .
كانت الزفة قد انتهت والجميع يلحون على شهوان ليغني ويكف قليلاً عن تمثيل دور العريس .. فما جاء الناس إلا ليسمعوه .. لم يطل تمنع شهوان :
- دخيل الله ودخيل أهلك ودخلك
شاب الليل في عيونك وداخلك
لاحطك في حشا قلبي وادخلك
ملاك الموت ما يفتح الباب
حي الزمان إللي جمعنا ولمنا
أخذت الحماسة أبو غوش فوقف يشوشح بمنديله .. أفسح له شهوان مكاناً إلى جانبه .. انطلق صوت أبو غوش قوياً مدنفاً .. رغم أعوامه الستين وما تقلب عليه من النساء :
أنا لأصوم عيد الله لأكبر
على نهيد كما الرمان وأكبر
وأنا خايف ليخذني الشيب وأكبر
واتميلن للغير يا مايلات العصاب
رن البشلك عالضظضان
إوعى تأمن للنسوان ...
زغردت نساؤه الأربعة .. التفت إلى حيث تقف نساؤه وسط نساء الحارة وفتل شاربه
- ما بنشبع منكم .
عاد إلى مجلسه بين الريفي والبطش بينما صوت شهوان يعمر الساحة :
طلع غيم جديد وبرق شكلين

على إللي عاصبه المنديل شكلين

وأنا لو قيدوني بالحديد شكلين

لافك القيد والحق بالحباب ...

شخر كبير البطوش تعبيراً عن إعجابه الشديد بالموال .. فقال له الريفي مداعباً :

– إي والله عليك شخرة بتطلع الميه الحلوة .

أطل شيخ الحارة على الساحة وبرفقته الزهار وبعض الاختيارية .. ارتفعت الزغاريد تحية لهم .. أنشد شهوان :

يا قلبي ما تحب إلا الرجاجيل

سبوعه وفي مقاعدهن رجاجيل

ويا رب البيت ما تحرمنا الرجاجيل

بجاه البيت والعشرة الصحاب

قال شيخ الحارة :

– بغدادي .. نريد أن نسمع شيئاً من البغدادي يا شهوان .

– بتمون يا شيخنا .

كبر النفس يستفيد منها ابن آدم يزل

أي هو بيندم على غلطته بعد أن يزل

قسماً بشب الفتى بمعيشتو لم زل

أن النفس ما تنقهر إلا بكاس الهوى

وإن كنت تجبر على نفسك ادعي عليها بهوى

إللي الهوى عبله عزها وعنتر ذل

تمايل شيخ الحارة طرباً .. وتصايح الاختيارية .

أحسنت يا شهوان .. إللي الهوى عبله عزها أي نعم .. معلوم .. معلوم ..

ريما كما الباز حسنا والبها لا لا

والصدر بنور من تحت الغطا لا لا

طلبت منها الوصال قالت يا جدع لا لا

احذر من العيب يابن الناس لا تبلى ..

ليلبسك توب من خاص الحرير تبلى

إن كنت عايز وصالي قبل ما تبلى

أهلي كرام أجواد ما يقولو في العطا لا لا

بلغ الإحتفال ذروته عندما صدح صوت شهوان بأغنيته الجديدة :

غزالي غزالي طاب جرحي طاب
والقمر ضوالي يا عيني نص الليل وغاب
إن كان بدك تعشق دور عالحلوين
العشق والله يا عيني بيدبح بالسكين
ثم انطلقت مواويل شهوان تلامس القلوب
رمان غزة استوى للي انوعد بالفقش
احبس فؤادك في قمقم والطلاسم نقش
قسماً بكف الحبيب إللي عليها النقش
أصل المحبة ضحك أصل المحبة لقش
ميمة ميمة يا ماماتي بدعيلوا والله في صلاتي
هداني نظره بطرف العين هديتو عمري وحياتي
من يوم فرقاه عاشر عيوني الوسن
هوه ربيع الحياه وهوه الأهل والوطن
قال العزول انساه صرخت كلا ولن
حلفت بالله ما أسلاه لو لبسوني الكفن

كانت الزغاريد تنطلق من نساء الحارة على أسطح المنازل .. كلما أنهى شهوان أحد مواويله .. أما الرجال فكانوا ينهالون عليه بعبارات الاستحسان :

– عُمُرْ .. عافاك .. أحسنت .. أويعيدون آخر كلمة في الموال وهم يترنمون طرباً ..

استثار الشجن عواطف الشيوخ .. هب البطش يرقص بالسيف ولم يجرؤ أحد على منازلته سوى رفيق صباه وشيخوخته الريفي .. سحب سيفه هو الآخر وصرخ في حماس الشباب :

– ولك ليالي الصبا عودي

وصل نظمي أفندي إلى ساحة العرس ومعه أحد تجار الفرنجة .. قدما التهنئة للعريس .. انصرف بضيفه إلى البيت .. تبعهما سالم كالكلب السلوقي .. موقناً بسكرة مجانية على شرف الضيف .

قال نظمي أفندي بعد أن شربا عدداً لا بأس به من الأنخاب :

– الخواجا أنطوني من التجار البنادقة الذين يحظون بعطف ومودة سيدنا الوالي .

قال الضيف بعربية مكسرة :

– واليكم لا يصادق أحداً لله .. إنه يعتمد علينا في معرفة ما يدور على الشاطئ الآخر من المتوسط .. وحين ننقل إليه خبراً يثير اهتمامه يجزل لنا العطاء .

أخرج من جيبه ساعة ذهبية في صفن من الديباج الأحمر .. عرضها عليهم .. لقد أهداني هذه في الأسبوع الماضي مع كيس من النقود .

قال نظمي أفندي :

– ولم أغدق عليك كل هذا ؟

– شرحت له نظرية جديدة أخذت تشيع في أوساط المتعلمين الأوروبيين حول علاقة كبر حجم الجمجمة وشكلها بميل الإنسان إلى ارتكاب الجرائم .

قال سالم وقد بدأت الخمر تعلب برأسه :

– ليس في الحارة أصغر من رأس الكلاغاصي هذه .. ومع ذلك فهي أدهى الرؤوس وأكثرها إجراماً .

وقف الكلاغاصي .. فهم سالم أن ضيافته انتهت .. سار مع مضيفه إلى الباب وانطلق إلى الساحة يتخلع في مشيته .. كان الجميع قد انصرفوا بعد انتهاء الحفلة .. وجد باب الشيخ محمود مفتوحاً فدلف إليه .. حين أوغل في ساحة الدار .. تذكر أنه لم يدق على الباب فأراد أن يعود أدراجه لكنه سمع صوت الشيخ محمود وهو يقول لزوجته :

– كانت لنا بنت اسمها مريم وماتت .. لا تذكريها أمامي ولا تطلبي مني أن أزورها .. حسبي الله ونعم الوكيل ..

قال سالم في سره :

– أهنئه على ماذا ؟ خير لي أن أذهب إلى بيتي وأخلد للنوم .. لن يغفر الشيخ محمود لمريم .. ولن يغفر لأهل الحارة الذين أجبروه على نسب لا يليق به .

تسلل سالم إلى الزقاق ثانية وعاد إلى بيته .

(5)

نهضت غزة من نومها ترتدي غلالة من أزهار المشمش .. فتحت فاطمة الباب .. تنفست في فناء الدار ألف ليمونة دفعة واحدة .. استنشقت ملء رئتيها نسيم صباح ربيعي عابق .. يحرك في النفس الفتون والرغبة .. صهلت فرس في الزقاق .

تذكرت حلمها الليلة الماضية .. الحصان الأبيض الذي يعدو في السهل ثم لا يلبث أن يطير ناشراً عرفه الطويل كالسحابة .

لقد أحبت الخيل دائماً وما صادفها حصان على حوض الجماقية إلا وملست عرفه .. وربتت عنقه النافر .. أمها تقول أن الحصان في الحلم فأل عز وخير ثم تضيف وهي تتفرس ملامح

وجهها الجميل (ستكونين معزوزة ومحبوبة في حياتك يا فاطمة .. والله إنك أجمل من السفيرة عزيزة ومن ضيا ووضحه وكل بنات هلال .. إللي شعروا فيهم القصايد) .

أشعلت فاطمة النار في الموقد الطيني ووضعت وعاء الماء عليه .. رشت الفناء وانهمكت في كنسه .. وما أن فرغت حتى ذهبت إلى البايكة .. جلبت بيض الدجاج .. ألقت إلى البقرة بعض التبن والشعير .. عادت وبيدها الدلو .. حلبت البقرة وحملت الحليب إلى الداخل .. تناولوا إفطارهم .. غادر شيخ التفاح إلى المضافة .

أحضرت فاطمة الماء الساخن .. وضعت الطشت في منتصف الغرفة .. وقفت فيه .. خلعت ثيابها .. أخذت أمها تفرك ظهرها العاري بالليفة والصابون .. وتصب على رأسها بعض الماء بكوز من النحاس .. محاذرة أن تسقط القطرات على أرض الغرفة الطينية فتفسدها .. بعد الحمام لفت أمها جسدها الفارع بالمنشفة واضعة خرقة تحت قدميها حتى تستقبل ما علق بها من الماء .

خرجت فاطمة من الطشت تتألق في عريها .. كانت الشمس تشرق على جسدها من خصاص كوة من الجدار .. فبدت كأنها اللؤلؤة الخارجة من صدفتها .. احمرت الأم وبلعت ريقها وهي تصلي على النبي .. قرات على رأس ابنتها قل أعوذ برب الفلق .

– والله ما ولدتك ولادة يا فاطمة .. فسبحان من أكملك خلقاً وخُلقاً .. كبرت يا ابنتي .. نهودك نفرت وأردافك استدارت .. وصار جمالك يسبي العقول .. وعن قريب تتزوجين وتفارقين أمك .. صدق المثل (بيت البنات خالي) .

– لماذا تقولين ذلك يا أماه .. مازلت صغيرة على الزواج .. لم أكمل الخامسة عشر وحتى لو تزوجت سأقيم إلى جوارك .. لن أتزوج خارج حارتي .. لن يكون فراق أبداً .. عانقت أمها لتطييب خاطرها ولكن الأم واصلت الحديث :

– لقد تزوجت وأنا في العاشرة من عمري يا فاطمة .

– قال أبي أنه استعجل زواجه منك حتى لا يسبقه إليك خاطب آخر .. ثم أنه ابن خالتك .. أما أنا فليس لي أبناء خال أو أبناء عم من جيلي ولن يستعجل الزواج بي أحد .. ما أظن أبي يسارع في تزويجي .. كما يفعل الفقراء الذين يريدون أن يكفلوا هم بناتهم لغيرهم .

أكملت فاطمة ارتداء ثيابها وجلست في الفناء ترجل شعرها الأسود الطويل بمشط من العظم منقوع في زيت الزيتون .. فردت على ركبتيها ملاءة بيضاء لترى إن كان بعض القمل أو السيبان قد تسلل إلى شعرها .. حين تأكدت من نظافته .. استخدمت مشطاً من الخشب لتسريح غدائرها الطويلة .. عقصت شعرها في ضفيرتين كبيرتين .. دخلت رقية كبرى زوجات سالم .. فرأتها تتمشط .. قالت في سرها (فاطمة كبرت وخرطها خراط البنات .. يا خوفي سالم يعملها .. وتصير ضرتي الرابعة) فكت عقدة غطا رأسها فتهدل منحسراً

عن فكين بارزين .. قطبت وجهها فازدادت ملامحها شراسة .. توقفت زوجة شيخ الحارة عن إعداد طاحونة القمح ريثما ترحب بضيفتها .

– أهلا بك يا رقية .. تعالي إجلسي معنا في الشمس لنتحدث قليلاً .. كيف حال أولادك وزوجك والآخرين ؟

– بخير .

– بالله عليك يا رقية أن تنظري لفاطمة بعد أن عقصت شعرها .. هل ترين في الحارة من يضاهيها جمالاً ؟

نظرت رقية بطرف عينها ثم قالت :

– صدق المثل .. وأكملت في سرها (خنفسة شاقت بنتها على حيط .. قالت لولوه في خيط)

– أكملي ماذا قال المثل يا رقية ؟

– قال : مين يشهد للعروس .. أمها وخالتها .

أحكمت وضع الغطراس على وجهها .. ومضت :

– تظللون بخير .

قالت زوجة شيخ الحارة لابنتها وهي تدير الطاحونة وتلقمها القمح باليد الأخرى :

– هذه المرأة تغيرت أحوالها منذ تزوج عليها سالم أول مرة .. وأن حالها ليزداد سوءاً يوماً بعد يوم .. انظري إليها ها هي تلف في الحارة لا تطيق الاستقرار في مكان واحد كأن النار في أذيالها .. صحيح الضرة مرة .

– ماذا تفعلين لو تزوج أبي عليك ذات يوم .

– ما أظنه يفعل .. إن له من المروءة والشهامة ما يمنعه من الإساءة إلي .. لا يفعل ذلك إلا الدون وأصحاب العيون الفارغة من أمثال سالم الذين لا يملأ عينهم إلا التراب .

– أين أجد زوجاً مثل أبي يا أماه ؟

– الزواج يا ابنتي قسمة ونصيب .. إذهبي الآن إلى الحارة .. و اسألي أين يخبزن اليوم .

أحكمت فاطمة الغطاء على وجهها .. مضت إلى بيوت الجيران .. ثم عادت لتحمل لقان العجين إلى دار الريفي .. صادفتها ليلى كبرى بنات سالم .. والدها سماها ليلى تشبهاً بالزير سالم الذي كان لقبه أبو ليلى المهلهل .. قالت ليلى :

– سأحمل لك الحطب من بيتنا .. انتظريني عند الفرن .

ما أجمل هذه الفتاة وأطيبها .. كيف استطاعت امرأة شريرة مثل رقية ورجل سوء مثل سالم إنجاب فتاة كهذه ؟ أم أن الشوك يخلف ورداً كما يقولون .

إنها تصغرها بعام ومع ذلك فجسدها الفائر لا يجعل من السهل ملاحظة ذلك .. تقول أمها هذه الفتاة عينها على مبارك .. إنها أجمل فتاة في الحارة بعدك يا فاطمة .. ولكن من يصاهر هذا البلاء الذي يسمى سالم .. أعوذ بالله .. لو علمت ليلى بذلك لقتلت نفسها .

تجمعت نساء الحارة حول الفرن .. كان من عادتهن ألا يشعلن أكثر من فرن في وقت واحد رغم أن كل بيت من بيوت الحارة له فرنه الخاص .. وذلك توفيراً للوقود .. الذي يندر في الحارة ولابد من إحضاره من الحقول البعيدة أو صنعه بمزج التبن الخشن (القصل) مع روث البقر عل هيئة أقراص تجفف في الشمس .

النساء المنتظرات دورهن كن يقضين الوقت في الحديث عن أخبار الحارة وأسرارها .

غالباً ما يكون حديثهن مكشوفاً .. فالنساء لا يتحشمن إلا في وجود الرجال .. ورغم أن فاطمة لم تكن تشارك في حديث النساء هذا لأنها لم تصبح امرأة بعد إلا أنه كان يفتح عينيها على عالم ملئ بالإثارة .. ويطلق لخيالها العنان لتصور ما عجزت على الإحاطة به من خلال الحديث .. سكينة زوجة حسان السلامين كانت أكثر النساء تهتكاً في الحديث .. كان لسانها يتبرأ منها .. ورغم أنها في الأربعين إلا أن جمالها كان مضرب المثل كانت تبالغ في السخرية والتهكم حتى تجعل النساء يستلقين على ظهورهن من الضحك .. زوجها ضعيف البنيهة رقيق العود سمي الفار لضآلة حجمه .. أما هي فكانت كما يقولون : (تخت ورخت) كأنها الناقة الشمالية .. مات زوجها الأول وكان والدها فقيراً وزوجة أبيها بخيلة شحيحة النفس .. خافت أن تشاركها سكينة خبز أولادها .. زوجتها لأول خاطب .. فكانت من نصيب حسان .. يومها قال أهل الحارة :

– صدق المثل (الله بقتل جمل عشان عشوة واوي) .

حين دخلت فاطمة هشت لها سكينة :

– ما شاء الله عليكي يا فاطمة .. يا بخت إللي راح يتحضن فيكي .

أطرقت فاطمة برأسها إلى الأرض في حياء وواصلت سكينة :

– ألا يعجبك أحد من شباب الحارة ؟ أذكري لي اسمه وسوف أرسله لكي يتوسل إلى والدك ويقبل الأرض تحت أقدامه .

هربت فاطمة من الدار تتعثر في أذيالها وقد احمر وجهها من الخجل .

– أعود عندما يجئ دوري .

واصلت سكينة :

– بلغي أمك أن تزورني اليوم بعد العصر .. جهزت طبخة عقيدة (سكراً معقوداً بالليمون) كلفتني ثلاثة قروش لأمك وللحبايب من نسوان الحارة .. لولاي لصارت أرجل نساء الحارة كأرجل المعيز .

مر شهوان بالباب فسمع عبارتها الأخيرة .. صاح من الشارع مداعباً :
– هل أرسل لك زوجتي أيضاً ؟
ألقت النساء الخمر على وجوههن وتمايلن من الضحك بينما ردت سكينة :
– ولك استحي يا ابن عايشة .. قاعد تتصنت على الأبواب .. الحق عليّه اللي سحبتك من بطن أمك .
حملت لقان الخبز ونهضت .. حين أحكمت الخمار على وجهها .. قالت لزوجة الريفي :
– سوف أمر في طريقي على خديجة كنة السويسي .. أظنها ستلد هذه الليلة إنها بكرية كما تعلمين وبحاجة إلى من يقف معها .
قالت زوجة الريفي :
– جزاكي الله عن الحارة كل خير يا سكينة فأنت تشيلين هم الجميع .
استيقظت فاطمة من نومها وقد ارتج كيانها كله .. قالت لأمها :
– عاودني الحلم مرة ثانية .
– هل هو الحصان الأبيض ؟
– نعم .
– كم مرة سأفسر لك هذا الحلم ؟
كانت أمها قد أخبرت زوجها بذلك .. قال رمضان باستغراب :
– حصان أبيض يطير ؟! الخيول تعدو فقط ولا تطير إلا في قصص ألف ليلة وليلة .. ابنتك بحاجة إلى حجاب يحميها من الكوابيس .. وسوف أطلب من الشيخ محمود كتابة حجاب لها بعد صلاة الجمعة .. لم تذكر ذلك لفاطمة حتى لا تغضب .
قالت فاطمة :
– أعرف يا أمي تفسيرك للحلم ولكنه هذه المرة لم يطر في السماء كما يفعل دائماً .. هذه المرة أكل السكر من يدي .
– خير يا فاطمة .. اذهبي الآن واملئي الجرة من الجماقية .. ليس في بيتنا قطرة ماء .
على الحوض كانت ليلى بنت سالم وكوكب بنت حسان السلامين وبعض الفتيات يحملن جرارهن حين رأينها .. افسحن لها لتملأ جرتها :
– صبحكوا بالخير .. ردوا عليها بحفاوة :
– صبحك بالخير والسعادة .
– لماذا لا تملأن الجرار وتعدن إلى بيوتكن .. أليس وراءكن عمل تقمن به ؟
ردت كوكب وكانت مسحوبة من لسانها مثل أمها سكينة :

- البيوت لن تهرب والأشغال لن تنتهي .. ما علينا إذا تحدثنا قليلاً .. اجلسي معنا يا فاطمة مازال الوقت مبكراً .

- لا أحب التلكؤ على الحوض ؟

- أين سيراك العرسان إذا .. اسألي مريم أين كانت تقابل شهوان .

تضاحكت الفتيات .. ملأت فاطمة جرتها .. وهمت برفعها على رأسها :

- سأترك العرسان لك يا كوكب .

مر بهم أبو غوش فبرم شاربه وارتجز قبل أن يبتعد به حماره :

- يا طلة ريمة الغزلان من فوق

صبايا وشامره الدرعان لفوق .

ولك حبوب خذيني أزرار للطوق

وأنام بين نهدك والحشا

أخفين وجوههن متضاحكات .. صهلت خيل واقترب وقع السنابك على الأرض شيئاً فشيئاً .. تذكرت فاطمة حلمها فنظرت إلى عرض الطريق .. كان ثلاثة من الفرسان يخبون بجيادهم نحو الحوض .. يتوسطهم حصان أبيض كأنه الحمامة .

خفق قلب فاطمة بشدة .. وضعت الجرة إلى جانب الحوض وقد أخذتها المفاجأة كانت كمن يواصل حلماً بعد اليقظة .

قال يونس :

- من تدلنا على بيت شيخ الحارة ؟

التقت عيونهما للحظة واحدة لكن الطعنة كانت نافذة .. اهتز شئ في أعماق يونس .. نفر سرب قطا عن غدير في الصحراء .. ثغت صغار النوق في فلوات بعيدة .. لفه والده بعباءته في ليلة شديدة البرد .. لان وجه يونس الصخري الذي شوته الشمس .. بصعوبة بالغة استطاع أن يسحب عينيه بعيداً عن العيون الواسعة المكحولة .. تقدمت فاطمة وربتت عنق جواده .. ثم قالت بفخر :

- مرحباً بضيوف أبي .. اتبعوني .

ترجل الفرسان وتبعوها .. في الطريق سأل يونس :

- ما اسمك ؟

قفز قلبها في أضلاعها كعصفور يلاطم قضبان القفص .. تحاملت على نفسها وردت عليه دون أن تلتفت :

- فاطمة .

- وأنا يونس .

امتلأت الساحة الواسعة أمام بيت شيخ الحارة بالوافدين للسلام على الضيوف ..
تحدث شيخ الحارة المختار عن الحارة .. عن بئر الجماقية التي حفرها الأمير المملوكي جمقماق على نفقته الخاصة .. أهل الحارة عملوا معه بأيديهم دون مقابل .. فأعفاهم من السقاية .. كتب على باب الجماقية (ملعون ابن ملعون من أخذ من أهل حارة التفاح ثمن الماء) .. وهكذا فإن كل الحارات تدفع لملتزم الجماقية ما عدا أهل الحارة .
امتدت البواطي أمام الضيوف محملة بالثريد واللحم .. قال المختار بصوته الجهوري وهو يشير إلى الطعام :
– بسم الله .
ارتد يونس ورجاله عن الباطية .. قال يونس :
– والله لن نأكل لك زادا حتى تقضي حاجتنا .
– كل يا يونس .. وحاجتك مقضية بإذن الله .
– أريد ابنتك فاطمة زوجة لي على سنة الله ورسوله .
وضع يده في صدره وأخرج عقداً من لآلئ البحرين أضاء بريقه المكان .
– هذا مهر فاطمة .
زاغت عيون الحاضرين بين بريق اللآلئ وبريق مقابض السيوف التي يحملها عبيد يونس .. أدركوا أنها ستكون ملحمة فاصلة .
نهض شيح الحارة من مجلسه واتجه إلى داخل البيت تاركاً ضيوفه وأهل حارته نهباً للقلق والوساوس .. لحقه سالم إلى فناء البيت وهو يلهث :
– بالله عليك يا عمي .. لا تعطي فاطمة لهذا البدوي فلا هو من ثوبنا ولا نحن من ثوبه (ومن أخذ من غير سبرو دق البين صدرو) .
قال شيخ الحارة غاضباً :
– والله ما في هذه الحارة غراب بين غيرك يا سالم .. حجلت على العامري فتركت داره قاعاً صفاصفاً .. وتركت خضرة لا في الأحياء و لا في الأموات .. واليوم تريد أن تحجل علينا .. أغرب عن وجهي .. لا أريد أن أراك الليلة .
انطلق سالم كأن ناراً اندلعت في صدره حتى توارى عن الأنظار .
أما شيخ الحارة فدخل إلى حيث تجلس فاطمة .. وقال لها :
– ضيفنا يونس يريدك زوجة له على سنة الله ورسوله .
كانت قد سمعت والدها يتحدث عن يونس ويطريه في حديثه .. ولكنها لم تكن تعرف أن المالك الجديد لوادي الزيت سيأتي لخطبتها على ظهر جواد أبيض .
أطرقت برأسها إلى الأرض في حياء .

– السكوت علامة الرضا يا فاطمة .

قبلها والدها بين عينيها .

– كنت دائمة عاقلة وترفعين الرأس .. فليبارك الله لك يا ابنتي .

انطلقت الزغاريد .. كان الشيخ محمود إمام مسجد أبيك حاضراً .. أمر القوم بتلاوة الفاتحة إلى حضرة النبي المصطفى .. أتم الشيخ محمود مراسم الزواج .. وضع يونس يده في يد شيخ الحارة .. ورددا وراء الشيخ محمود ما أمرهما بترديده .. تناول الجميع الطعام .. انطلقت الزغاريد والأهازيج .. لعب الأبطال بالسيف والترس .. رقص الشباب رقصة الدبكة على أنغام شبابه شهوان .. شكلوا قنابيزهم البيضاء المخططة فبانت تحتها سراويلهم السوداء الطويلة إلى الخلخال .

الشيوخ لزموا مجلس القهوة .. بثيابهم الداكنة الفضفاضة و عباءاتهم السوداء .. تتربع على رؤوسهم العمائم الكبيرة وقد لفوا حول خصورهم أحزمة ملونة عريضة من القماش.

***

- 6 -

غطت أخبار خضرة على أخبار عروسة اعبية .. لاكت سيرتها الألسن منذ . وقفت سافرة أمام المسجد تتحدى المصلين وتقهقه ساخرة في وجوههم

ثم تكرر خروجها في وضح النهار دون أن تتحشم في ملبسها أو حديثها أو مشيتها .. : عندما كان البعض يلفت نظرها إلى ذلك كانت ترد ساخرة

. اللي بعرف أبويا يروح يقوللو -

لم تعد الفتاة الصغيرة النحيلة ذات الأربعة عشر ربيعاً التي وجدوها بين الحياة والموت بعد أن اغتصبها العسكر .. فانجرح لها كل قلب .. واحدوب كل ظهر .. . وانحنى كل جبين

إنها الآن في العشرين من عمرها .. فارت في سنواتها الأخيرة كنبات شيطاني لقحته الأمطار والشموس .. صارت نساء الحارة تخافها كما تخاف الوباء .. لم يتقدم

لخطبتها أحد .. ولم يحاول أن يضمد جراحها أحد .. وها هي تخرج لهم الآن .. مهرة أضر بها اللجام في سنوات الحبس الطويلة .

عنيدة .. شرسة .. مستهترة .. تشهر جسدها في وجوههم كاللعنة .. كالعقوبة الدائمة .. التي يستحقون أن يجلدوا بها صباح مساء .

لطالما سمعتهم يلوكون سيرتها على باب دكان الزهار (رأيت خضرة اليوم .. أو رأيت خضرة الليلة) هكذا يبدأ الحديث ثم لا تلبث أن تنهال عليها التهم جزافاً .. لكنها لم تلق بالاً إلى ذلك .. ولم تزد إلا شراسة واستهتاراً .

قالوا أنها تعاشر أولاد البلابسه في الحقول .. وعلى حفافي بركة قمر وبين الزروع العالية في ساقية الرماد .. تعجبت نسوة في الحارة كيف ترضى نساء البلابسة بما يدور بين رجالهن وبين خضرة .. تطوعت رقية زوجة سالم بتفسير ذلك .. فهؤلاء البلابسة دماؤهم بارده وليست حامية كدماء أهل غزة .

وقد سمعت خضرة أحد العاطلين يغمز قناتها حين مرت بدكان الزهار :

- يا ريتني بلبيسي .

فعادت إلى حيث يجلس وبصقت في وجهه أمام أهل الحارة كلهم .. وذاق الكثيرون طعم صفعاتها رغم أن شواربهم يقف عليها الصقر .. زاد رصيد الحقد عليها .. لم تكن خضرة تحسب في الجميلات .. لم تكن تطلب ذلك .. لم تحاول يوماً أن تتزين أو تزجج حواجبها كما تفعل البنات .. لم يمس جسدها عطر سوى الماء الذي كانت تعشق الاستحمام به مرات في اليوم الواحد .. منذ علمها أولاد البلابسة السباحة في برك السواقي العميقة .. وكثيراً ما خرجت عارية من الماء تحت ضوء القمر .. يباغت خروجها المفاجئ من يرد البركة متأخرا .. ً فيفر على وجهه تاركاً دابته وجراره وقد ظنها عروس البئر .

ذات ليلة كان شهوان عائداً من أحد الأفراح .. شبابته تعطر الهزيع الأخير من الليل .. التقى بها منصرفة من سهرتها مع النواطير من أولاد البلابسة على تخوم ساقية الرماد .. استعاذ بالله حين ظهرت له فجأة وهتف :

- من ؟

- أنا عروسة اعبية بنت ملك الجان .

عرفها شهوان فتمالك روعه .

- وأنا عريس اعبية ولكن لا أظن أنني ابن ملك ولا حتى وزير .

لعلك ابن واحد من صعاليك الجان الذين يتسكعون في طرقات الليل ويصفرون ألحانهم - في آذان الناس لإغوائهم .

ها أنت قد عرفت حسبي ونسبي يا بنت ملك الجان وسوف أبدأ في إغوائك فوراً .

أخذ يداعب شبابته .. صدحت الألحان ناعمة عذبة معطرة بأريج الليل .. أعجبها صوت الشبابة .. طلبت منه أن ترافقه إلى الحارة ما دامت طريقهما واحدة .. سارا على حافة بركة قمر وعزف لها .. عزف لها كما لم يعزف في حياته .. عزف حتى أحس أنه استولى عليها تماماً .. كان الوجع المتسرب من أطراف أصابعه إلى مفاصل الليل .. يتعانق مع الموجة السرية التي يبثها جسد خضرة .. لفتهما غلالة من الشجن حتى كاد الدمع يطفر من العيون .. أقسم شهوان لنفسه أنه لم يصادف إمرأة مثلها في حياته .. أراد أن يتأكد أنها موجودة .. وأنها حقيقية .. وأنها من لحم ودم .. مد يده يطوق خصرها الناحل .. جمحت مثل فرس برية .. أهوت على وجهه بصفعة كادت تطير الشرر من عينيه .. انطلقت كالعاصفة .. أقسم شهوان لنفسه ثانية أن هذه ليست إمرأة .. لعلها قطعة من البرق والرعد .. أو حزمة من قوس قزح .

أين اختفت تلك الطفلة العذبة الودود .. التي قضى معها طفولته كلها .. يناجيها وتناجيه كعصفورين على سياج الساقية .. لقد كانت العائلتان على وفاق ومحبة حتى أن العامري وعده بها أمام والديه قبل أن تقع الكارثة ويذهب كل منهم في طريق .

كما تقع حبات الندى على أكمام زهرة عطشت حتى الذبول .. كان حب فاطمة يتنزل على قلب يونس .

رجل في هجيرة العمر .. لم يجد وقتاً لكي يحب أو يحب .. منذ ماتت أمه في أول صباه .. ومنذ أبت عليه الكبرياء وعزة النفس أن يستعيض عن حنانها بحنان إمرأة أخرى .. ولو كانت النجاشي التي يجري حليبها في عروقه .. والتي كانت تسهر إلى جوار فراشه حتى شروق الشمس .. لعله يحتاج إليها أو يطلب منها شيئاً ..

كان قد ودع طفولته منذ ودع وجه أمه .. ترك أقرانه في اللعب حول المضارب .. ليلتحق بجوهر ورعيان أبيه .. يتعلم ركوب الخيل .. ورعي الإبل .. قبل أن يفرح به عامه الثامن .. استبدل حضن أمه بصهوة جواده .. وذراعيها بتلك البرية التي

تترامى بلا حدود .. وقد كان له من حسن تربيته وقوة إيمانه عاصماً عصمه .. فما
. انكشف ذيله على حرام قط
في الخامسة والثلاثين من عمره .. ظامئ كما الصحراء .. ومثلما تمد صحراء
جزيرة العرب أطرافها لتبترد في سواحل الشام .. كان يونس يمد كفيه إلى جسد فاطمة
اللدن .. يتقراه بأصابعه لمسة لمسة .. ثم يرتشفه بشفتيه حسوة حسوة .. كطائر مهاجر
. حط على الماء
أية امرأة صارت تلك الطفلة .. التي لفحتها رياح يونس .. كما تلفح نسائم
الصيف بساتين غزة .. فتتفتح براعمها .. وتميس عناقيدها وقد لوحت ونضجت قبل
. الأوان
يضمها إلى صدره ويضيع .. ها هي الغدران تصفو أمام أعين الظباء الوسيعة حتى
تجلو صورها في الماء .. فتدور برؤوسها الجميلة دهشة .. وقد ازدادت عيونها سعة
. على سعة
يقبلها فتتنفس حشائش المراعي الطازجة .. يعبق شميم العرار في أرجاء نجد ..
. ويهدل اليمام البري بين الشيح والقيصوم
.تقبله .. فتنتصب في مضارب القبيلة أعراس لا تنتهي .. ويعلمه أبوه رقصة السيف
أما فاطمة فما كانت تعرف أن الدنيا قد اختزنت لها كل هذه السعادة في راحتي هذا
. البدوي القادم من شموس الصحراء بأطراف محروقة
لمسة من يده كانت كافية لكي تجعلها تنتفض كعصفور مبلل .. أما ابتسامة عينيه
. الآسرتين فقد كانت تغلغل في أعماقها وتجعلها تمتلئ حبوراً وغبطة
يرفعها بذراعيه القويتين على ظهر الأشعل .. فينبت لها ذيل وجناحان وتطير
كالقبرات .. ينزلها عن ظهر الحصان .. يضجعها بعد أن يمهد لها فراشاً من الأعشاب
اللينه ويحنو عليها بجذعه .. فيعبر أوز العراقين سماء غزة الزرقاء .. وتتواصل رفات
. أجنحته البيضاء الطويلة .. من الأفق إلى الأفق
يقبلها .. تهتز الأراجيح بأطفال من كل الحارات .. تجمعوا يوم العيد في ساحة
سيدنا هاشم .. يتغشاها .. فتدور قواديس الساقية مترعة بالماء الفرات .. وتصب في
. البركة التي تفور ويطيش فيها الحباب والزبد
كان يونس إذا هم بها يتوضأ كما يتوضأ للصلاة .. ثم يبدأ طقوس حبه التي لا
.تنتهي

. خلص يونس لفاطمة من كل مشاغل الدنيا .. تاركاً أعباء مملكته على جوهر
أحب فاطمة حبا خالط اللحم والعظم .. وجرى مجرى الدم في العروق .. أما هي فقد
.. بادلته حباً بحب .. موقنة أن الله ما خلقها إلا لكي تسعده
: استيقظت مرة وهو يصلي الفجر .. سمعته يقرأ
. (ألم يجدك يتيماً فآوى .. ووجدك ضالاً فهدى .. ووجدك عائلاً فأغنى)
اختنق صوته بالبكاء .. أجهش فقامت تمسح دموعه بوجهها .. اختلطت دموعهما مودة
. ورحمة
حكى لها حوادث البادية وأيامها .. حكت له قصص الحارة وما وعته ذاكرتها الغضة
. الصغيرة .. كانت ابنته وزوجته ولعبته ولا يدري أي الثلاثة شغفته حباً
. لن تنسى الحارة افراد فاطمة
مر على فاطمة في وادي الزيت أربعة أشهر كأنها يوم وليله .. ها هي الحارة
كلها تأتي على ظهور الإبل والجياد .. لاصطحاب فاطمة في طريق العودة .. أعد
الهودج من جديد .. عادت فاطمة بين التماع السيوف ورنة الزغاريد .. استلمها شيخ
. التفاح من يده صهره .. دعاه إلى وليمة العشاء في اليوم نفسه
وصل الموكب .. نحرت الذبائح .. وابتدأ الرجال في إعداد الوليمة لصهر حارتهم
. الذي أعزهم بمصاهرته
لمس يونس تعلق فاطمة بأهلها وتعلقهم بها وطول افتقادهم لها .. اشترى بيتاً إلى
جوار بيت شيخ الحارة .. لكي يطيل المكث بينهم ما استطاع .. طارت فاطمة من
. الفرحة .. قبلت يديه ورأسه والدموع في عينيها .. أخذ يونس يدها الصغيرة وقبلها
أنا أحبك يا فاطمة ألا تعلمين ذلك ؟ -
. بلى .. بلى -
: ألم تسمعي قول شهوان في مواله -
قسماً بشيخ الطريقه وكل جلاسو
من يعشق الحلوين يحملهم على راسو

***

وصل القاضي معروف إلى عكا .. هرع للسلام على قاضيها عساه يتشمم منه أخبار الوالي .. ويعرف ما يليق به من آداب السلوك في حضرة الملوك .. أكرم قاضي . عكا ضيفه .. بدى مهموماً مشغول البال

يا معروف .. إن عيني ترف منذ يومين .. وإنني أخشى من نتائج هذا الاجتماع الذي - دعا إليه الوالي .. لأمر ما جمع الوالي كل القضاة والعلماء في بر الشام .. لم يستثن . منهم أحداً .. حتى الشيخ تاج الدين الخروبي رغم أن بينه وبين والينا ما صنع الحداد

تاج الدين الخروبي لقد عمر طويلاً .. هذا الشيخ كان ينوف عن السبعين حين عزله - . ضاهر العمر

لم يعزله ضاهر العمر ولكنه اعتزل من تلقاء نفسه .. أراد العُمر أن يتدخل في - القضاء لصالح رجل آخر من قبيلته (الزيادنه) .. تاج الدين حكم على الرجل بما رآه . العدل .. ثم اعتزل القضاء احتجاجاً على تدخل الوالي

. وكيف تدبر تاج الدين أمر معاشه -

جلس للناس في مسجد بطرف المدينة .. يؤمهم في الصلاة .. وينصرف إلى التدريس - فيما بين ذلك .. اجتمع له تلاميذ كثيرون .. حين ولي الجزار حاول إعادته للقضاء فرفض .. ومازال يحاول استمالته والشيخ يبذل له النصيحة .. حتى كانت القشة التي قصمت ظهر البعير .. حدث ذلك منذ شهرين في أعقاب مذبحة السوق .. أراد القاضي

أن يسترسل ولكن بعض الخصوم أدخلوا عليه للحكومة .. فتواعد مع ضيفه على اللقاء في بيته بعد صلاة العشاء .. حيث دعى كل القضاة والعلماء إلى وليمة تكريم بمناسبة زيارتهم لعكا .

انصرف معروف وهو يضرب أخماساً في أسداس .. ثم قر رأيه أن يصلي العصر في مسجد تاج الدين .. ويتعرف على الرجل عن كثب .

بعد الصلاة سلم القاضي معروف على تاج الدين .. عرفه بنفسه .. أفسح الشيخ مكاناً له إلى جانبه ثم انصرف إلى تلاميذه .

لقد أمضينا في الدرس والمذاكرة زمناً طويلاً .. وإني لا أعرف إن كنت سألقاكم بعد - يومي هذا .. فإن غبت أو غيبني أمر فسوف يلزم مجلسي أقدم تلاميذي .. مصطفى الكاشف .

وإنني أريدكم دائماً أن تتذكروا ما سبق وأعدته عليكم مراراً وتكراراً .. ان حفظكم للقرآن الكريم والحديث وألفية ابن مالك والأجرومية ليس تمام العلم بل ابتدائه .. تذكروا قول الإمام الشافعي (يظل الإنسان عالماً مادام طالب علم فإن ظن أنه علم فقد جهل) .. ومهما بلغ من علم أحدكم فلن يبلغ من علم رسول الله شيئاً .. ذلك الذي نطق الحق على لسانه (وما أوتيت من العلم إلا قليلاً) تذكروا قول نبيكم الكريم (اطلبوا العلم من المهد الى اللحد) .. وطلب العلم فريضة على كل مسلمة ومسلمه .. واطلبوا العلم ولو في الصين .

لقد فهم علماء المسلمين الأوائل ذلك جيداً .. فلم يكتفوا بعلوم الدين أبداً بل برعوا إلى جانب علوم الدين في الطب والأحياء والكيمياء والهندسة والفلك والرياضيات .. واخترعوا الجبر .. وأضافوا إلى تراث الإنسانية ما بقي شاهداً على عظمتهم .

لا تكونوا كعلماء اليوم .. الذين لا يعرفون من الإسلام سوى نواقض الوضوء .. وأحكام الحيض والنفاس .. والذين لا يجتهدون ولا يقطعون متون الكتب إلا ليصدروا للحكام شوارد الفتوى .. وليبرروا لهم العدوان على مصالح الناس .. وسرقة حقوقهم .. وأكل أموالهم بالباطل .

واعلموا أن من كتم علماً ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار .. تذكروا دائماً قول رسول الله (العلماء ورثة الأنبياء) .. ولا أريد لهذه التركة الجسيمة أن تقع على أكتاف ضعيفة .

واعلموا بأن هذا الدين ما نزل إلا لإسعاد الناس .. ولما فيه خيرهم
. وصلاحهم .. وأيما شئ يتنافى مع مصلحة الناس فما هو من الدين في شئ
تذكروا قول الله في محكم كتابه (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وتذكروا
قول رسول الله (الدين يسر لا عسر .. يسروا ولا تعسروا) فوالله ما اضر بهذا الدين
شئ كما أضر به جمود الفقهاء .. ولقد فهم السلف الصالح من صحابة رسول الله جوهر
الدين فحالوا دون شقاء الناس به .. حتى أن عمر بن الخطاب .. وهو من هو شدة في
الحق .. عطل حداً من حدود الله في عام الرمادة .,. وهو قطع يد السارق .. عملاً
: بالحديث الشريف
ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن وجدتم للمسلم مخرجاً فخلوا
. سبيله .. فإن الإمام لأن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة
وإن عليكم أن تردوا كل مسألة إلى القرآن الكريم فإن لم تجدوا حكمها فللسنة
المطهرة .. فإن لم تجدوا فقيسوا على ما ذهب إليه الخلفاء الراشدون .. فإن لم تجدوا
فلاجتهادات الأئمة أبو حنيفة ومالك الشافعي وابن حنبل .. فإن لم تجدوا فاجتهدوا
. أنتم .. عسى الله أن يفتح عليكم
.. سكت تاج الدين وقلب عينيه في تلاميذه
من يدري ربما كان صلاح الأمة على يد واحد منكم .. ففي الحديث عن رسول الله -
صلى الله عليه وسلم .. إن الله يرسل على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها
. دينها .. ويكون على يده صلاح أمرها أو كما قال
سرت همهمة بين التلاميذ .. ثم اغرورقت عيونهم بالدموع حين قال أحدهم
: لجاره بصوت مسموع
. كأنها خطبة الوداع -
. لم يلتفت تاج الدين على ما يدور بين تلاميذه .. نهض وتنحى قليلاً عن مجلسه
قم يا مصطفى واتخذ مجلسك مكاني .. أريد أن أملأ عيني منك ومن تلاميذك قبل أن -
. أمض إلى ما انتويته
قام مصطفى الكاشف وعانق الشيخ ثم انخرط في نشيج مر وعلا البكاء بين
. التلاميذ حتى أن معروف لم يتمالك دموعه
. رفع تاج الدين ذراعيه وأخذ يدعو والتلاميذ يؤمنون وراءه
اللهم أرنا الحق حقـــاً وارزقنـــا أتباعـــه -

اللهم أرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابـــه

اللهم لا تجعل الدنيا كل همنا ومبلغ علمنا

: نظر الشيخ إلى تلاميذه واحداً واحداً .. كأنما أراد أن يتزود .. ثم هتف

. أستودعكم الله الذي لا تضيع عنده الودائع -

قالها تاج الدين ومضى في طريقه مرفوع الرأس .. تاركاً معروف فريسة للهواجس والوساوس .. يقول في نفسه (لقد انتوى الشيخ نيته .. وبيت أمره .. وإنني لأخشى أن يبلغ أحد الوالي أنني كنت معه اليوم .. مالي أنا ورجل كهذا .. يريد أن يقيم . (الدين في مالطه

لبى معروف دعوة قاضي عكا للعشاء .. وجد المكان حافلاً بالقضاة والعلماء .. حيا : معروف الحاضرين واتخذ مجلسه .. رحب به صاحب البيت أجمل ترحيب ثم سأله

. لماذا لم يحضر تاج الدين معك .. علمنا أنك حضرت درسه اليوم -

اصفر معروف (ما أسرع ما تنتقل الأخبار في عكا .. لعل الوالي نفسه قد علم بما كان) لم ينقذ معروف من هواجسه إلا صوت قاضي عكا الذي ما لبث أن تابع الحديث كأنما : يعتذر عن تأخر تاج الدين

لعله لم يشأ إحراجي بالحضور بعد أن أشهر عداءه للوالي و دعا عليه في خطبة - الجمعة الماضية (اللهم إن رعاتك فتكوا بشياهك ولم يدعوا فضلة لذي مخلب وناب .. اللهم فافتك بهم وبدد شملهم وخذهم أخذ عزيز مقتدر .. اللهم هذا رجل ظالم استحل . (حرماتك فكن عليه وكن على كل ظالم

ثم أفتى الناس بنقض الطاعة وقال : إن من قبل على نفسه الظلم شارك ظالمه في : الإثم .. وقد وصل كل ذلك للجزار

: علق قاضي الشام وهو يحشر قطعة كبيرة من الحلوى في فمه

قال صلى الله عليه وسلم .. من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه .. أو أنك ترى - . في المسألة رأياً آخر يا شيخ معروف

: فاضت قريحة معروف .. فأنشد الجواب شعراً

عائب الناس وإن كان ســـليماً يســــتعاب -

والذي يمسك عن عيب الورى سوف يهاب

ما دخول المرء في ما ليس يعنيه صواب

: تمايل قاضي الشام طرباً

. والله إنك بلبل من بلابل الفصاحة يا شيخ معروف -

: قال قاضي عكا

ولكن تاج الدين لا يرى رأيكما .. إنه يردد الحديث الشريف الذي يقول (من رأى -
منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه .. فإن لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف
. الإيمان) .. وطبعاً المؤمن القوي خير و أحب إلى الله من المؤمن الضعيف

: تناول قاضي الشام قطعة أخرى من الحلوى ألحقها بسابقتها

ما لنا نحن وتاج الدين هذا .. إنكم تفسدون علينا عشاءنا .. ثم سرقته إغفاءة على -
. عادته .. فتهالك على كرسيه يرزح تحت أثقال الشحم واللحم

: سأل قاضي حلب

ما الذي يأخذه تاج الدين على سيدنا الوالي ؟ -

شرح لهم قاضي عكا

لم يكن تاج الدين ليجاهر بعدائه للوالي لولا ما حدث منذ شهرين .. أنصت الجميع .. -
خيم صمت قلق ريثما واصل قاضي عكا .. أمر الوالي عساكره بإحضار من في السوق
من أهل الحرف والصنائع ومن تصادف وجودهم هناك لبيع أو شراء .. أدخلوا عليه
فرداً فرداً .. كان كل من دخل يؤمر بكشف رأسه أمام الوالي .. فإذا كان راسه صغيراً
. أمره بالانصراف .. وإذا كان كبيراً أمره بالبقاء

: استيقظ قاضي الشام من إغفاءته وسأل بلهفة

ماذا عن الرؤوس الكبيرة ؟ -

تجمع لدى الوالي ثلاثون رجلاً من أصحاب الرؤوس الكبيرة .. فأمر عسكره باقتيادهم -
. الى شاطئ البحر وذبحهم عن بكرة أبيهم

. ضرب الذهول كل من في المجلس

نزع قاضي الشام عمامته وأخذ يقيس رأسه بكلتا راحتيه في عصبية ثم ما لبث
: أن هتف

الحمد لله .. أنني لم أكن بينهم وإلا فقل على رأسي الكبير هذا يا رحمن يا رحيم .. -
. أعاد العمامة إلى رأسه وهو يتمتم : سلامات يا راسي

: قال قاضي بيروت

لعله جمعنا ليقيس رؤوسنا يا قاضي عكا ؟ -

- كلا فما زال الوالي يحسب للعلماء ألف حساب وإلا لما صبر على رجل كتاج الدين بعد كل ما قاله وفعله .

ثم أن العلماء والقضاة فقراء على الأعم الأغلب .. وواليينا لم يعد يحب قتل الناس بالمجان كما كان يفعل وهو مبتدئ .. إنه الآن يعمد إلى الأغنياء فقط .. كلما علم أن أحد رعاياه اغتنى .. يستصفي ماله ثم يجلسه على الخازوق .. آخر من فعل به ذلك باشا التجار في عكا .. طلب منه المال مرة ومرة فدفع الرجل ودفع .. ثم استدان ودفع .. ثم لم يجد من يقرضه المال ليدفع .. أمس أمر مولانا الوالي بإعدامه على الخازوق .

قال قاضي حلب :

- ولماذا لم يأمر بقطع رأسه كما فعل بأصحاب الرؤوس الكبيرة ؟

- لم يعد والينا يقنع بالقتل السريع .. إنه يتمتع برؤية الناس يموتون في بطء .. وكثيراً ما يستمع لشتائمهم بصدر رحب ثم يقهقه ضاحكاً :

- أولان .. سب سب .. المتخوزق بسب السلطان .

***

في الصباح ارتدى معروف أبهى حلله ولف على رأسه عمامة جديدة احضر شاشها من سوق دمشق .. حينما وصل بوابة القلعة كان باشا التجار الجالس على الخازوق مازال حياً .. فتح الرجل عينيه ونظر إلى معروف .. أي رعب هذا الذي ينصب من حدقتي رجل يشرف على الموت .. خترف الرجل بكلام لم يفهمه معروف .. كان صوته واهناً ضعيفاً .. قال معروف في نفسه : (لعله يصلي أو لعله يشتم .. تذكر التعليق الذي يردده الجزار وهو يستمع لشتائم ضحاياه (المتخوزق بسب السلطان) .

اقشعر بدن معروف وخارت ركبتاه .. أي صباح هذا ؟ تحامل على نفسه .. جر خطاه جراً إلى القاعة .. وجد بعض القضاه قد سبقوه .. حياهم .. ردوا التحية .. كانت وجوههم صفراء كوجوه الموتى .. لابد أنهم رأوا مثله باشا التجار قبل دخولهم ..

توافد باقي العلماء و القضاة .. تأهب الحراس البشناق وأخذوا أماكنهم إيذاناً باقتراب وصول الوالي .. دخل الوالي فهبوا واقفين .. تصفحهم بعيونه الجارحة ثم سال :

- هل تخلف أحد ؟

قال كبير الحراس :

- لم يتخلف سوى الشيخ تاج الدين .

- هل امتنع عن تلبية دعوتي ؟ ماذا تعلم عن ذلك قاضي عكا ؟

- أكد لي يا مولاي أنه سيلبي دعوتكم .

قال معروف وقد حسب أن الفرصة مواتية ليظهر ولاءه تحسباً لما نقل إلى الوالي عن حضوره الدرس في مسجد تاج الدين أمس :

- وهل يجرؤ أحد على عصيان أوامر سيدنا الوالي ؟!

جلس الوالي .. أشار لهم بالجلوس .. فجلسوا .. تابع الجزار حديثه :

- تأخرات تاج الدين أدب سيس .

دخل الحاجب انحنى أمام الوالي :

- تاج الدين الخروبي بالباب يا مولاي .

أشار الوالي يأذن له بالدخول ثم تابع :

- عند دخول تاج الدين .. وقوف يوك .. احترامات يوك .. لازم أخللي زيو زي كلب أفندم .

انفتح الباب دخل تاج الدين .

- السلام عليكم .

هب الجميع وقوفاً بمن فيهم الوالي .

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

سار تاج الدين إلى المقعد الخالي بجوار القاضي معروف دون أن يتلفت إلى أحد .. اتخذ مجلسه .. جلس الوالي وجلس الحاضرون .. خيم الصمت برهة .. قال الوالي في نفسه : كيف ألومهم على الوقوف له وقد وقفت معهم .. من أين يستمد هذا الرجل هيبته .. والله ما كان لسيدي علي بك الكبير وهو على ملك مصر مثل هذه الهيبة .. لقد اشتراني بماله ورباني بنعمه .. وكان يرسلني لقتل خصومه بأدنى إشارة من يده .. حتى لقبت بالجزار .. ورغم ذلك فما كنت لأفقد زمام نفسي أمامه .. ها أنا ذا أقف على

أقدامي أمام رجل لا يملك من الدنيا ما يتبلغ به .. سأتجاوز عن ذلك .. فرجل كهذا مكسب كبير لدعوتي التي أنا بصددها .. والله لو بايعني هذا الرجل ما حفلت بأحد بعده .

. تنبه الوالي من خواطره .. اعتدل في جلسته .. بدأ الحديث

. حضرات قضاة وعلماء أجلاء -

تعلمون أن هذه آخر زمانات .. ووقت ظهور مهدي منتظر حسب أحاديث وروايات ..

. (أخرج الوالي كتاباً قديماً في سفط من الجلد)

هذا الكتاب قبل ميلاد حضرتنا بثلاثمائة عام .. أهداه لجنابنا عالم كبير من علماء الإسلام .. فيه جدول موفق باسم الجلالة .. فهل فيكم من يعرف التوفيق ولفق الكلام ؟

: قال قاضي القدس

. هذا أمر هين رعاك المولى ويجيده معظم الحاضرين -

. أشار الوالي له أن يتقدم وناوله الكتاب

. قم إذن و أرنا ما يخرج معك قاضي قدس شريف -

. تناول قاضي القدس الكتاب وأخذ يعمل بهمة ملحوظة

قال معروف لنفسه : لقد نال هذا اللعين الحظوة لدى الوالي ولكن لست أنا الذي أخرج صفر اليدين

: تهللت أسارير قاضي القدس وهتف

. أبشر يا سيدنا الوالي .. نصر من الله وفتح قريب -

اقرأ ما تجمع لديك قاضي باشا -

. تجمع لدي عبارة تقول : أحمد بن عبد الله الملقب بالجزار هو المهدي المنتظر -

سكت الجميع كأنما ارتج عليهم .. قال معروف في نفسه : جاء دورك الآن اطرق

: الحديد وهو ساخن .. وقف معروف على قدميه وهتف بملء صوته

ظهر الحق وزهق الباطل -

ظهر الحق وزهق الباطل

: ابتسم الوالي لمعروف ابتسامة عريضة .. ثم التفت إلى الآخرين

سيدنا محمد عليه صلوات .. قال في الحديث أنني سأمتلك المشرق والمغرب .. أحكم - مصر والسودان وأفتح تونس و الجزائر .. وتصل أعلامي إلى وادي نول في أقصى

. المغرب .. وقد جمعتكم هنا لأجل أن تحصل مبايعات لجناب حضرتنا

وتعهدات بنشر الدعوة بين العوام وقد نويت حج بيت الله هذا العام .. لكي أعلن ظهوري في الحجاز .. فبحسب نبوءة لا يكون ظهور المهدي إلا بمكة المكرمة .

أمر الوالي أن يمر عليهم السفط واحداً واحداً .. فكان كل واحد ينظر إلى ما هو مرقوم فيه ثم يعطيه لمن يليه .. حتى وصل إلى القاضي معروف الذي نظر إليه باهتمام بالغ وأخذ يهز رأسه يمنة ويسرة عسى أن يلاحظه الوالي فيملأ عينه منه .. ثم ناوله لتاج الدين .. نحاه تاج الدين جانباً دون أن ينظر إليه .

ناوله معروف لمن يليه حتى لا يفتضح أمره أمام الوالي .. مر السفط بهم جميعاً .. سأل الوالي :

- ماذا تقولون في ذلك أيها العلماء والقضاة ؟

سكتوا كأن على رؤوسهم الطير .

زمجر تاج الدين الخروبي :

- هذا هو الزور والبهتان العظيم .

التفت الجميع إليه مشدوهين .. حاول النهوض فأمسك معروف بتلابيبه .. لكي يجلسه قبل أن يقع المحظور .. قال له :

- لا تلق بنفسك إلى التهلكة .

جذب ثوبه بقوة :

- أتريدني أن أسكت والساكت عن الحق شيطان أخرس ؟

ثم وجه كلامه للوالي :

- طالما بذلت لك النصيحة .. قلت لك أن الله سيسألك يوم القيامة عن رعيتك وهي بين جائع ومريض وعار وفقير يتكفف قوت يومه .. طالما قلت لك أن العباد في كرب عظيم من بطش الحكام وانتشار الفساد والرشوة والظلم .. ونهب العمال لأقوات الناس .. نصحتك أن تبتغي فيما آتاك الله الدار الآخرة .. ولكنك كنت مشغولاً بالتآمر على من هم حولك من الولاة .. وحبك الدسائس لهم .. والتوسع على حسابهم .. حتى حكمت بر الشام كله .. إن الشام تحتك لمثل بقرة أسرف الحلابون في حلبها حتى صارت تحلب دماً وهلكت فصالها .

صبرت عليك عسى الله أن يهديك أو يبلغ فيك أمره .. ولكنك لم تترك في قوس الصبر منزع .. ها أنت تريد أن نوالس لك على الضلال حتى تفتن العباد وتسوقهم إلى حروبك الظالمة .. فيقتل المسلم أخاه المسلم وتكون الطامة الكبرى .

: صر الوالي على أسنانه

هل أحد منكم على رأى هذا المخرف ؟ -

: سكت الجميع .. قال تاج الدين

تكلموا بما في صدوركم من القرآن وحديث رسول الله .. أم أن على قلوب أقفالها ؟ -
والله أنكم بمظاهرته لتفترون على الله الكذب وأنتم تعلمون .. أم تريدون أن تكونوا
شهود الزور فتصحبون عاراً على العلم والعلماء ؟

: هب الوالي محنقاً

. سأقتلكم جميعاً -

: هرع قاضي غزة إلى حيث يجلس الوالي وقبل ركبه

. جناب الوالي المعظم .. سيدنا المهدي كلنا معك .. ونعرف أنك على حق -

. أخذ يدعو للوالي بالنصر والجميع يؤمنون وراءه

اللهم أيد أحمد باشا الجزار الهادي المهدي آمين -

اللهم اشرح صدره آمين

اللهم أشـــدد أزره آمين

اللهم اظهــر آمره آمين

: توجه إلى الوالي

. أبسط يدك نبايعك على السمع والطاعة -

. تسابقوا إلى البيعة .. قال معروف في نفسه : ما أظن الوالي ينسى لي هذه الوقفة

: ضرب تاج الدين كفاً بكف

لا حول ولا قوة إلا بالله .. والله ما بايعتم إلا أعطياتكم وجمكياتكم واشتريتم الدنيا -
. بالآخرة

.. عادوا بعد المبايعة كل إلى مجلسه فما بقي واقفاً إلا تاج الدين

: قال الوالي يتوعده

. (سوف تعرف احقيتي باللقب الذي أحمله والذي هو من صفات المهدي (الجزار -

: أجاب تاج الدين

والله ما فيك من صفات المهدي صفة واحدة .. أنت ظالم وسافك دم ومستحل -
. للحرمات .. وإن كان هذا آخر الزمان كما تدعي .. فما أظنك إلا المسيح الدجال

: قال قاضي القدس

- بايع يا تاج الدين .. ألم تر أننا كلنا بايعنا ؟ يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ في النار.
أجاب تاج الدين .. بل قل :
- وقالوا صدقنا فقلنا نعم   جلوا صارما وادعوا باطلا
هتف قاضي الشام :
- انج برأسك يا تاج الدين .
قال قاضي عكا :
- ما أظنه يريد النجاة .
جلجل صوت تاج الدين :
- جاء في الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. أن أكرم الشهداء رجل قام إلى حاكم ظالم .. فوعظه .. فأوغر ذلك صدر الحاكم عليه فقتله فمات شهيداً .
صرخ الوالي :
- لن تموت شهيداً .. ستموت عاصياً ولي الأمر .. وستدخل النار .
صفق الوالي بيديه :
- أولان .
دخل الحراس واحدقوا بتاج الدين .. مشى تاج الدين حتى وقف أمام الوالي مباشرة :
- لقد قتل الحجاج سعيد بن جبير .. فلم يعش بعده إلا اياماً معدودة .. وسوف أدعو عليك بدعوى سعيد على الحجاج .. (رفع تاج الدين راحتيه إلى السماء وجأر بالدعاء) :
.: اللهم لا تسلطه على أحد بعدي .. اللهم لا تسلطه على أحد بعدي
كان مفتي الشام قد أغفى بعد المبايعة .. وحين لاحظ جاره إغفاءته ايقظه قبل أن يراه الوالي .. هب من نومه دون أن يستوعب الموقف .. حسب أن الدعاء الأخير للوالي وليس عليه .. فصاح بملء صوته :
- آمين .
ذهل الجميع .. أما الوالي فاستشاط غضباً :
- أنت معه إذن يا عرة القضاة ؟!
أهاب بالحراس مشيراً إلى تاج الدين وإلى قاضي الشام :
- خذوهما في الحديد .

ساق الحراس تاج الدين وهو مرفوع الرأس إلى الخارج .. أما قاضي الشام فقد انفلت من الحراس باتجاه الوالي .. انبطح على بطنه يطلب العفو والسماح .. أخذ يمرغ وجهه على قدمي الوالي .. حتى تدحرجت عمامته :

- سيدي الوالي .. سيدي المهدي .. لم أكن أعرف أن ...

صاح الوالي :

- اسحبوه .

سحبه الحراس من قديمه .. فتشبث بقدم الوالي .. حتى خرجت فردة حذاء الوالي في يده .. ضمها إلى صدره وهو يصرخ ويستعطف .. وهم يجرونه على وجهه .. ظل يتخبط حتى همدت حركته .. قال الحراس للوالي .

- لقد مات .

أشار الوالي بيده .

- جهنمات قتي .

ثم ما لبث الوالي أن قفز كالملدوغ .. وأشار إلى الحراس :

- أولان .. هاتو سباطي من إيدو .. بلا ما ياخدو على الآخرة .. وينادوا لمين هالسباط .. عزرائيل يتفكرني .

هتف الحاضرون بصوت واحد .

- سلامة راسك سيدنا الوالي .

في اليوم التالي غادر القضاة والعلماء كل إلى بلده .. ما عدا القاضي معروف .. ورغم أنه قد نال صرة وخلعة مثل الآخرين .. إلا أنه كان يتوقع أكثر من ذلك .

وهكذا تلكأ في العودة .. ولم يطل انتظاره .. فقد ارسل الوالي في طلبه باسرع مما كان يتوقع .. فوجئ عند دخوله على الوالي بأن الأخير كان منقبض السحنة مربد الوجه .. أشار له بالجلوس دون أن يمهله حتى يقبل ركبه كما انتوى وكما فعل بالأمس .. ثم صرف الحراس والحاجب .. قال وهو ينفث دخان ارجيلته الفارهة .

- يا معروف .. أنت موضع ثقة حضرتنا فهل تكتم السر ؟

- جُعلت فداءك سيدنا ومهدينا .

- كنت أنوي قتل تاج الدين .. لكنني رأيت الليلة في المنام أنني أقطع لحماً من جسدي والقيه للكلاب .

حين ذهب روعي .. حاولت النوم ثانية .. فرأيتني اقطع لحماً من جسدي واشويه في النار .. قمت مذعوراً ولم تذق عيني النوم بعد ذلك .

قال معروف :

- أتكلم ولي الأمان ؟

هز الوالي رأسه علامة الموافقة .. تابع معروف :

- مالك ولتاج الدين ؟ هذا رجل من أصحاب الكرامات .. فإن شئت أن تطلقه فافعل .. وإن خفت عاقبة إطلاقه بين الناس .. فانفه إلى مكان لا يضيرك وجوده فيه .

استحسن الوالي نصيحة معروف .. نفى تاج الدين إلى سجن غزة وكتب إلى آمر السجن .. أن يضعه مع الأشقياء وقطاع الطرق .. عسى أن تكون منيته على يد واحد منهم .

أما قاضي غزة فقد طلب منه الوالي البقاء إلى جانبه يومين أو ثلاثة .. فمكث سبعة أيام .. تفنن خلالها في إرضاء سيده ومؤانسته .. حتى دعاه الوالي للحج معه ومؤازرته عند إظهار دعوته بمكة المكرمة .. تهلل معروف طرباً .. وخاطب الوالي وهو يصطنع الوقار والمهابة :

- يا أيها المدثر .. قم فأنذر .. وربك فكبر .. وثيابك فطهر .. والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر .. ولربك فاصبر .

ثم وضع راحته على رأس الوالي وأخذ يتمتم برقى زعم أنها من أوراد الصالحين .

هكذا عمد القاضي معروف .. أحمد باشا الجزار مهدياً منتظراً وانصرف إلى غزة .. على وعد باللقاء في منتصف شوال .. لكي يبدأ رحلة الحج والعمرة في معية سيده وهو يردد في نفسه (لقد نلتها يا عكاشة .. لقد نلتها يا عكاشة) .

***

لم تعد مريم تلك الطفلة الصغيرة الحالمة التي تبهرها الشبابة وتفتح مسام روحها كما تتفتح الوردة .. لشدما ساء مزاجها في شهور حملها الأخيرة .. لم تعد تتقبل سهر شهوان الطويل خارج البيت .. بل أنها طلبت منه صراحة أن يكف عن الغناء نهائياً .. فلا يليق به وقد صار زوجاً وأبا .. أن يحترف مهنة تجلب العار على أولاده .. كانت قد اتخذت قراراً بأن تنغص عليه عيشه حتى يهجر هذه الصنعة الفاسده .

لم يعرها أذناً صاغية أول الأمر .. ثم حاول أن يتلطف في إقناعها بأن من السهل عليه أن يترك الحياة نفسها ولا يترك الغناء .

ها هي اليوم توقظه بصياحها ونواحها بعد سهرة باغت الفجر عشاق فنه وهم يستعيدون ويستزيدون :

- لولا ما بيني وبين ابي من جفاء لما جلست في بيتك يوماً واحداً .

قال وهو يتمطى :

- والحب الذي بيننا يا مريم .

- أنت لا تحب سوى هذه .

هجمت على الشبابة الملقاة إلى جواره وأخذت تدوسها بكلتا قدميها في نوبة من نوبات جنونها المعتادة .

نهض شهوان وترنح في طريقه غلى الباب .. لعلها أدركت أن الشبابة تصل بينه وبين الصبايا بسبب .. وأن الشعر يصل بينه وبينهن بألف سبب .. فخافت عليه الفتنة .

- إللي بخاف من القرد بطلع له .

هكذا قال شهوان في نفسه وهو يصفق باب الدار وراءه وينطلق إلى الخارج .

بحث عن مبارك فما وجده .. دخل مضافة شيخ الحارة كانت خالية .. مر ببيت الكلاغاصي وجده مغلقاً .. لعل نظمي أفندي يسكر الآن مع تيمور الضرغام وباقي الأغوات .

كان بحاجة لمن يحادثه .. أهل الحارة آووا إلى النوم في ساعة القيلولة .. هرباً من حرارة الشمس التي تغلي في كبد السماء وتغرق الأجساد بالعرق واللزوجة .. كل شئ كان ساكناً في الحارة ومتوقفاً عن الحركة .. حتى ذوائب الأشجار العالية .. انحدر إلى حوض الجماقية عله يجد بعض السقائين يثرثر معهم أو يشبب لهم .. لكن الحوض كان مهجوراً .. لم يعد أمامه إلا دكان الزهار .

أية حارة هذه التي تستلقي كالجثة الهامدة ؟ صحيح أن بعض أهل الحارة يفضلون قضاء فصل الصيف .. في الكروم التي يمتلكونها على التخوم القريبة .. لكن الحارة لم تبد لناظريه أبداً كما بدت اليوم .. أحس أنه يسير في مقبرة .. فنادى بعالي الصوت :

- سبحان من قهر العباد بالموت .. أفلح من قال لا إله إلا الله .

انشق أحد الأبواب عن حبوش الأعمي .. يدب على عصاه .. لقد خالها جنازة بعد تعطله عن العمل فترة ظن فيها بعزرائيل الظنون .. وها هو الفرج يجيئ .. نسي ارتداء عمامته من اللهفة :

- جنازة من هذه يا بني ؟

- جنازة الحارة .. هيا إلبس عمامتك وتعال معي نشبع فيها لطماً .

- حتى أنت يا شهوان صرت من زبائن بيت الكلاغاصي .

قالها حبوش وهو يضرب كفاً بكف .. توارى خلف شق الباب وقد خاب أمله .

كان الزهار يجلس على باب دكانه .. ينش الذباب عن مظهر العجوة .. إغفاءة أخذته .. استغل الذباب الفرصة لا ليحتل العجوة فقط .. ولكن ليحتل فم الزهار الأدرد المفتوح على خانه ..

هزه شهوان ليوقظه .. سقطت المنشة من يده .. خرج من فمه زفير هائل كان كافياً لآن يشتت الذباب الذي عشش على فمه في الحارة كلها ..

أخيراً وقف على باب خضرة ودق الباب :

- جئت أعتذر لك يا خضرة ؟

- هل تعرف زوجتك أنك هنا ؟

- كلا .

- أنت جبان مثل كل أهل الحارة .. لو كنت قادماً للإعتذار لأحضرتها معك .. لتكسر الوحشة التي تخيم علي منذ أعوام .

أشارت إليه أن يجلس على الحصير .. تحت الجميزة حيث قتل والدها .

جلست أمامه في ثوب بسيط ولكنه نظيف ينحسر عن الساقين .. لاحظ ان سيقانها مشعرة كسيقان فتى على حافة البلوغ .. وجهها لم يكن عليه أي أثر للزينة .. ولكنه كان نضراً يفيض حيوية وعذوبة .. أما عيونها فكانت نفاذة كطعنة خنجر يماني .

- جئت تبوح لي بحبك أيها الزمار الوغد .. افعل ذلك الآن .. أحب أن أسمع من يتذلل لي ويقبل أقدامي .

مدت قدمها باتجاهه .

تناول قدمها بكلتا يديه .. قبلها في خشوع .. ضحكت حتى خال أن جميع أهل الحارة سمعوا ضحكتها بمن فيهم زوجته .. استلقت على ظهرها ..

انحسر الثوب عن فخذين ممتلئتين رجراجين .. فهم شهوان الإشارة .. انقض عليها كحيوان استثيرت غرائزه .. لم تصده هذه المرة.. اغتبطت به .. لم تتمنع أو تتصنع الحياء كما تفعل زوجته وسائر النساء .. كانت تعطي وتأخذ .. تأخذ وتعطي .. في متواليات أسكرته .. بلغت به النشوة حد الجنون .. ذاق لذة خشي معها أن يموت ..

حينما ارتويا تماماً .. قالت له وهي تشير إلى الباب :

- أغرب عن وجهي ولا تدعني أراك مرة ثانية .

نظر إليها كطفل بوغت وفي يده الحلوى :

- ألا تتزوجيني يا خضرة ؟

- تأخرت كثيراً يا ابن الكلب .. أكان يجب أن تنهش جثتي قبل أن تعرض على الزواج.

- خضرة سوف يقتلك أهل الحارة .

- وما الفرق ؟ لقد قتلوني طوال الوقت .. قتلوني كل ساعة وكل دقيقة وكل لحظة .. هؤلاء الأنذال .. لو كان فيهم رجل حقيقي لقتلني مرة فأراح واستراح .. أغرب عن وجهي قبل أن أصرخ .

انطلق شهوان إلى الشارع لا يلوي على شئ .

دومت في شوارع غزة وأزقتها رياح الخمسان .. محملة بأوراق الشجر اليابسة والأوشاب .. وما خف من نفايات المدينة .. مؤذنة بالشتاء الوشيك .. بدأت الخمسان بخميس الأموات .. فتقاطر الناس إلى المقابر لزيارة موتاهم .. حاملين الصدقات من

التمر والتين الناشف والزبيب والكعك وأرغفة الخبز .. يوزعون كل ذلك على الفقراء وعابري السبيل .. ليكون رحمة ونوراً للموتى .. في ظلمات قبورهم الضيقة .

انتشر المقرئون العميان .. يتحسسون الطريق بعصيهم الطويلة المعقوفة بين شواهد القبور .. أو يتخذون مجالسهم متربعين على التراب يقرأون آيات من الذكر الحكيم .. أو يرددون بعض المدائح النبوية .. وقد نفرت طرابيشهم الحمراء من عمائمهم كأنها شقائق النعمان .

جلس حبوش أمام قبر بني حديثاً .. رفع صوته المشروخ يرتل قوله تعالي (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أؤلئك هم خير البرية .. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً .. رضي الله عنهم ورضوا عنه .. ذلك لمن خشي ربه) .

قال سالم لشهوان :

- يبدو أن أهل الميت أجزلوا لحبوش العطاء .. وإلا لما أدخله الجنة بهذه السرعة .

سمعهما حبوش فنادى :

- يا سالم صرفنا ختمة عن روح والدك في رمضان الماضي .. ولم تدفع لنا حسابنا .. وأخاف أن تظل قراءتنا معلقة بين السماء والأرض فلا تصل إلى روح والدك كي يتغمده الله برحمته .. فأبرئ ذمتك وذمته قبل فوات الأوان .

أجاب سالم :

- والدي الحاج رجب قضى حياته في أعمال الخير ولا يحتاج إلى قراءتك حتى يتغمده الله برحمته .. ادخر قراءاتك للعصاة والمذنبين ومن خفت موازينهم .

- فعل الخير يا سالم لا ننكره عليه .. كان المرحوم رجل خير نعم .. ولكن ماذا عن ترك الصلاة .. لقد كان والدك يغفل عن صلاة الفجر لأن نومه ثقيل .. والدتك لم تكن تغامر بإيقاظه ودفعه إلى المسجد حتى لا يصيبه البرد .. هل تعرف ماذا أعد لتارك الصلاة .. إن الأقرع الشجاع ينتظره في القبر .. يضربه بالمرزبة ضربة تغور به إلى الأرض السابعة .. ثم يرفعه منها ويضربه أخرى عن كل ركعة تركها .. أليس من الأجدر بك أن تخفف عنه بصرف ختمة عن روحه .. لكنك ولد عاق .. قصرت مع والدك في حياته وفي مماته .

هاج سالم كثور نخز في عرعوره :

أنت سافل وسليط اللسان .. ما أعماك الله من خير .. علي الطلاق بالثلاثة لأوصلنك -
. الليلة إلى صاحبك الأقرع الشجاع
: هجم عليه فأمسك به شهوان
حد الله يا رجل .. هل تريد أن يقال الزير سالم أبو ليلى المهلهل ضرب ضريراً لا -
. حول له ولاقوة .. أمض بنا .. هيا
دفعه شهوان ومضيا وهو يسب ويلعن .. عندما وصلا قبر الحاج رجب .. أنزلا
قفة التمر والخبز وبكارج القهوة .. أشعلا النار تحتها في انتظار وصول باقي أهل
الحارة .. مر بهما ثلاثة عميان يسحب بعضهم بعضاً .. يقودهم أولهم .. أعطى شهوان
لكل واحد منهم رغيفاً وحفنة من التمر .. دسوها في أكياس يحملونها على أكتافهم ..
.. ومضوا وهم يترحمون
: أقبل شيخ الحارة في نفر من أصحابه.. قال شهوان
ها قد وصل عمك .. سأتركك الآن لزيارة أبي وأمي وقراءة الفاتحة لهما .. موعدنا -
. خميس أبو الكاس بعد أسبوع .. هل ستشترك في السباق لتأخذ الجائزة مثل كل سنة
نظر إليه سالم بطرف عينه .. هذا الخبيث يعيره بفشله في الحصول على
الجائزة عاماً بعد آخر .. رغم أنه أنفق على خيله نصف ثروة الحاج رجب .. صر
: سالم على أسنانه
. الله يسهل عليك -
(ثم تابع في سره (الله لا يسهل عليك ولا يقشعك خير
شباب الحارة وصلوا ضريح أبو الكاس منذ الصباح الباكر على ظهور الخيل التقوا
هناك شباب الحارات الأخرى الذين تجمعوا حول الضريح .. للإشتراك في السباق الذي
.. نقيمه غزة في خميس أبو الكاس مرة كل سنة
ارتفعت حول الضريح الزينات والأعلام .. زينت القبور المحيطة به بجرائد النخل
والورد .. في آخر الشوط انتصب سرادق مهيب تم إعداده لكي يجلس فيه درويش باشا
. والقاضي معروف وشيخ المشايخ ومشايخ و أعيان الحارات
كان تيمور الضرغام يشترك بحصانين عليهما فارسان من فرسان القبيقول .. أما
التفكجي باشا .. رئيس القراقول فقد أصر على أن يشترك بنفسه على ظهر حصانه ..
عند وصوله إلى الساحة فرقع بسوطه في الفضاء.. لكي يدخل الرعب في قلوب هؤلاء

الفلاحين الذين يريدون منازعته الجائزة .. بعض البدو جاءوا من ديرة السبع ومن سيناء البعيدة بخيلهم المضمرة .

وصل جوهر يتمختر على ظهر الأشعل حصان يونس .. أشرف على الساحة .. صهل الأشعل صهلة قرعت الخيل كلها .. أوجس الفرسان خيفة وايقنوا أن فوزهم اصبح أمراً مشكوكاً فيه .. أعاد سواد جوهر إلى الأذهان فروسية عنترة وأبي زيد الهلالي .. حرك في وجدان الناس ملاحم الزمن الغابر .. أعطوه من الحب والهتاف والتشجيع ما أسكره حتى الثمالة .

رحب درويش باشا بيونس في السرادق .. أجلسه جانبه نكاية بشيخ المشايخ .. ما أن علت الشمس قليلاً في ردأة الضحى حتى أصدر درويش باشا أوامره بالبدء في إجراءات السباق .

اصطف الفرسان في أول الشوط صفاً واحداً وأخلي المضمار من السابلة .. تناثر على جانبي المضمار فرسان العيوانية والاسبهلية بحرابهم الطويلة وعمائمهم العالية لحفظ النظام .. أعطيت إشارة البدء .

كان شيخ التفاح يجلس في السرادق خلف يونس تماماً .. سمعه يونس وهو يراهن شيخ الشجاعية على فوز الحصان الأبيض بفردتين من القمح .. فدعى الله أن لا يخيب ظنه .

في بداية السباق كانت الخيل متقاربة .. وقبيل الوصول إلى منتصفه بدأ حصان يونس في تقدمه الحثيث .. ثم سبق الآخرين .. ترك بينه وبين الذي يليه مسافة كبيرة .. مقتحماً خط النهاية .. ضج الناس بالهتاف .

ترجل جوهر .. تقدم بحصانه إلى السرادق .. حين سأله درويش باشا عن اسم حارته .. قال دون تردد :

- حارة التفاح .. حارة الفرسان والمغاوير .

ضجت نساء الحارة بالزغاريد .. عانق شبابها بعضهم بعضاً .. أما مشايخ الحارات فنظروا إلى شيخ التفاح بحسد .. وهم يغبطونه على هذا المجد الذي هبط عليه.

حينما عادوا في المساء إلى مضافة شيخ التفاح .. لم يكن للحارة من حديث سوى حديث الفوز بجائزة السباق .. قدم جوهر الجائزة .. ألف قرش إلى يونس .. لكن يونس قال له :

هي من حقك أنت يا جوهر .. فأنت تعلم أنه لا فرس إلا من فارس .. عندها تلفت -
: جوهر حواليه ونادى شهوان

تعالى يا شهوان لأقاسمك هذه الجائزة .. فوالله لا يعدل ما صنعنا للحارة من مجد في -
. الفروسية .. إلا ما صنعته أنت لها من مجد في الشعر

: تهلل وجه شهوان وهتف وهو يعانق جوهر

. صدق المثل القائل .. النخا والجود عند الشباب السود -

: همس سالم لنفسه في غيظ

. الله يسود وجهك يا شهوان .. بعت حارتك للعبيد الجلابيب -

التفت يونس إلى مراد البتير .. صاحب المعصرة وأشطر أهل الحارة في عمل
: الكنافة .. وقال له

يا أبا انس لقد حلت الكنافة الآن .. اعمل لنا صدرين كبيرين ووزع على أهل -
. الحارة .. لكل بيت زبدية كنافة على كيسي

: صفق الحاضرون وقد تهللت أساريرهم وأخذوا في الدعاء ليونس

. عشت بارك الله فيك .. عمر .. يخلف عليك خلف ما يشح .. باطيتك خضرا -

نهض سالم .. لم على نفسه أطراف عباءته ومضى إلى الطريق .. لا شئ يرد غضبه .. ويهدئ نقمته سواها .. لو أن خضره لانت معه قليلاً فسوف يكون ذلك تعويضاً مناسباً عن كل الهزائم التي لحقت به .. كان الطريق خالياً .. حينما وصل .. تلفت حوله ودق الباب .. واصل التلفت .. مر دهر كامل قبل أن يتثاءب المصراع
. المصدئ

من ؟ -

. أنا سالم -

لم يكد يغلق فمه حتى انقضت على وجهه بصفعة قوية خال صداها يتردد في
. الحارة كلها .. صفقت الباب خلفها دون أن تتفوه بكلمة

تحسس سالم موضع الصفعة .. تأكد أن أحداً لم يره .. ثم انفلت إلى بيته .. في تلك الليلة أفاقت الحارة على صراخ زوجته رقية .. لقد ضربها ضرباً مبرحاً وفي كل
: مكان من جسدها .. خلصها منه شيخ الحارة

لماذا تضرب زوجتك .. ألا تعلم بأن النبي أوصى بالضعيفين المرأة والطفــل -
!الصغير ؟ وأنه قال استوصوا بالنساء خيراً ؟

: رد سالم وهو ينفخ غيظاً
النساء .. أما هذه البقرة العجفاء فلم يوص بها أحد .. ألا ترى إلى عظامها الناتئة -
. كالمنساس ؟ .. اتفووا
ارادت أن تفضحه وأن تخبر عمه بما رأته على باب خضرة حين تعقبت سالم
. أول الليل .. لكنها خافت أن يطلقها إن فعلت ذلك .. وآثرت النجاة

الأربعاء التي تسبق خميس المنطار هي أربعاء أيوب .. نجعت غزة بكل حاراتها وقراها إلى شاطئ البحر منذ الصباح الباكر .. انتصبت حلقات الدبكة والرقص والغناء طوال النهار .. كانت أكبر حلقة في الشاطئ كله الحلقة التي التفت حول شهوان .. جاء عشاق فنه من كل حدب وصوب للإستماع إلى شبابة شهوان وهي تنبه . المواجع .. وتلامس اللواعج الدفينة في قلوب المحبين
أما اشعار شهوان فقد أصبحت مضرب الأمثال .. تسير بها الركبان من حي إلى حي . ومن قرية إلى أخرى
شيخ حارة الدرج وقف مع بعض شباب حارته يتابع أشعار شهوان .. هازاً راسه يمنة ويسرة .. زاد في حبوره أن أهل حارته باعوا كل الجرار التي صنعوها خلال الموسم .. اشتراها الناس ليملئوها بمياه البحر بعد أن تغرب فيه شمس ذلك النهار . ليغسلوا وجوه أطفالهم منها ويسقوا دوابهم لتنال البركة في صبيحة اليوم التالي
كانت حلقة شهوان قد اتسعت حتى أن بعض الصبايا وقفن في الماء ليستمعن بعد أن ازدحم الشط بالرواد .. احداهن شمرت عن ساقيها حتى لا تبتل ثيابها .. لاحظت نظرات شهوان .. بالغت في رفع الثوب كأنما تمتحن شاعريته .. جاءها الرد باسرع : مما توقعت

يا لاهـــــي ضب شـــــي بان منــــك -
جواهر ضاويــــات الشــــط منــك
وأنا ايش ما جرالي اليوم لاقول منك
قمــر ونجــــوم بضـــون للســـما

تهلل الحاضرون .. وضجت الزغاريد .. كان الجميع يتابعون ما حدث .. أما الفتاة فقد أفلتت ثيابها حتى غاصت في الماء وابتلت الى الركبة وهي ذاهلة عن نفسها .. قال جوهر في سره .. ما أراها إلا علقت به .. صاح شيخ الدرج :

- والله يا شهوان ما تركت شيئاً لمحمد العابد .. اشهر من قال العتابا والميجنا في الديرة القبلية كلها .

تبسم شهوان .

- وأين أنا من محمد العابد يا عماه .. لقد طبقت شهرته الآفاق وغنوا مواويله في بلاد مصر والشام .. سأسمعكم بعض مواويله الآن .. هل تحبون ذلك .. نظر إلى الفتاة كأنما يعنيها بسؤاله .. أومأت برأسها .. كاد شهوان يطير مع الموال :

عتابا مطـــرق الفضـــه قدمها

مشت عالقـــــز ما علم قدمها

سبع باشـــــات والوالي خدمها

ووزير الصدر شد لها الركاب

كل العيون عيون وإنت عيوننا

يقول محمد العابد يا جيران

هواكم مزع قليبي يا جيران

وساق الله تعود اليام ونعـــود جيران

ويجمع ما بينا رب السما

يا رايح عاروبين .. سلم سلم عالحلوين

يا رايح عاروبين

تصايحت الفتيات خلفها :

- نريد ظريف الطول .

سكت شهوان .. تعلقت بها الأنظار .. ما هم .. أومأت برأسها :

انطلق صوت شهوان :

- يا ظريف الطول وتوي إللي مرق

تقول عود الزان ملفـــلف في الورق

كامل الأوصاف متلو ما انخلق

يا نبات الســـهل مربى بلادنا

طارت أقدام الدبيكه .. كما تطير أسراب الحجل
شقت الحناجر .. اطلع .. اطلع
تس .. توه .. تس .. توه
يا ظريف الطول رايح عامصر
يا خفيف الدم يا رهيف الخصـــر
من ريش العصفور لأبنيلك قصر
ومن دمع العيون لأجبللوا طينا

أخذ الحماس شيخ الدرج .. فشد جوهر من يده لكي يتوسطا الحلبة ويدبكا وحيدين .. لكن جوهر تخلص منه بلباقة وعاد إلى مكانه وسط النظارة .. فالرقصة الوحيدة التي يجيدها هي رقصة السيف .. وحتى هذه الرقصة لم تكن النجاشي لترضى عنها أبداً .

أبناء الملوك لا يرقصون لأحد .. حسبهم أن الناس يرقصون أمامهم .. لا تنسى يا - جوهر أنك ابن ملك عظيم الشأن .. وأن الحبشة كلها تنتظر عودتك .. وسوف تقرع لك طبول كثيرة حين تعتلي عرش أبائك وأجدادك .. وتحكم بين الناس بالعدل كما كانوا يفعلون .

هل تعرف اسمك ؟ واسم أبيك ؟ واسم جدك ؟ واسم قبيلتك ؟

.. إسمي هيللا .. واسم ابي مانويل وجدي مارا واسم قبيلتي زانوا

: تخاصر الراقصون وجنت الدبكة وبدأ شهوان دلعونته التي لا تنتهي

على دلعونة وعلى دلعونة -

نسم يا هوا القبلي الحنونه

وإذا كان شهوان نجم الغناء .. فإن مبارك كان نجم الدبكة بلا منازع وقد سمع الكثيرات يتهامسن مشيرات إليه (أبو الصايه الحرير) ولكنه كان في شغل عنهن .. كانت عيناه تفتشان الشاطئ كله بحثاً عن ليلى .. أخيراً أيقن أن سالم في إحدى نزواته أقسم يميناً بالطلاق ..أن لا تذهب نساؤه إلى أربعاء أيوب .. فقد كان دائماً يتفنن في اختيار المناسبات الهامة لإنزال غضبه على أهل بيته .. صدقت أمه حين قالت لإبنته : ليلى

. معاشرة أبوكي زي قرش الصوان -

في آخر النهار غربت الشمس .. ظل الناس ينتظرون حتى سقط قرصها الأحمر في ماء البحر ..ا خلعوا ثيابهم ونزلوا إلى الماء لتنالهم البركة في تلك الساعة التي شفى الله فيها جراح العبد الصابر أيوب حين قال له :

- اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب .

عندما خيم الظلام بدأ الناس طريق العودة إلى بيوتهم .. حانت لحظة الوداع .. قال جوهر لشهوان لقد كان هذا يومك مثلما كان خميس أبو الكاس يومي أنا .. فتعال نتقاسم ما حصلت عليه .

أجاب شهوان :

- لقد أضعت جائزتي .. لو لم أكن متزوجاً لما تركت الفتاة تفلت من يدي .. كان عهدي فيما مضى أن أتبع تلك العيون إلى آخر الأرض .. أظفر بها أو أدوخ الليالي بالشعر والتشبيب .. لكن قلبي يا جوهر يحدثني أنها لم تضع .. وأن أربعاء ايوب ليست نهاية المطاف بيني وبينها .

تعانقا وانصرف شهوان .. فكر جوهر : لعل هذا هو الفرق بيني وبين شهوان .. إنه يسلم قلبه للحب من أول نظرة .. فإن لم يصل فحسبه الشعر .. أما أنا فأغلق قلبي وعيني لا أطلب الحب ولا أعطيه الفرصة ليطلبني .

تأخر مبارك قليلاً في العودة .. كان يحمل جرة من ماء البحر على أكتافه هدية لليلى .. خرجت لترى من يدق الباب .. قال لها :

- إذا لم تذهبي إلى البحر .. فإنني أحمله لك على أكتافي يا ليلى .. مسحت دموعها وتنهنهت :

- هل كنت تبكين طوال النهار ؟

تناولت الجرة وضحكت :

- لو علمت أن ماء البحر يجلب إلى نفسك كل هذه السعادة لحملت لك البحار السبعة وانشد:

اطلبي الإيوان أحمله على   راحتي كسرى وهامات العجم

واساليني البيد مهراً أو سلي   ما وراء البيد من حمر النعم

- علمتك مصاحبة شهوان الشعر والغناء .

- ليس هذا من شعر شهوان .. هذا من شعر عنترة وعلمه لي جوهر عندما زرت فاطمة في وادي الزيت آخر مرة .

: جاء صوت أمها من الداخل كالفحيح

هل نصبت حدوته على الباب .. الدنيا منتصف الليل .. قد يعود والدك في اية لحظة -
..

كان سالم في الآونة الأخيرة قد وطد صداقته بنظمي أفندي الكلاغاصي .. اعتاد أن يسكر عنده كلما ساء مزاجه أو أحس بالضيق .. ينفق هناك عن سعة بمقدار ما . يقتدر على نسائه وأهل بيته

الويل لهما لو عاد سالم سكراناً فوجدهما يتطارحان الغرام على الباب .. اختطف : مبارك قبلة سريعة وانفلت إلى بيته وهو يدندن

شمالي يا هوى الديرة شمالي -

على إللي أبوابها ملقى الشمالي

***

الخميس الثالث كان خميس المنطار .. خبزت الحارة الكعك المحشو بالتمر .. وأصناف الغريبة والمعمول .. خرجت تتفرج على موسم سيدنا علي المنطار آخر . خمسان غزة المقدسة

اجتاز سالم ومراد البتير وحسان السلامين بسطات الثياب والحلوى والفاكهة .. عبروا المساحة المخصصة لأراجيح الأولاد .. معرضين عن نداءات باعة السوس والخروب وصبابي القهوة المرة .. فقد كانوا في عجلة للإنضمام لشيخهم الذي أخذوا . عليه العهد على الطريقة الشاذلية

ما أن وصلوا حيث تجمع دراويش الطريقة حتى هرعوا لتقبيل يد شيخهم الملقب . بالخليفة

ساروا مع الموكب تحت الرايات والبيارق يتقدمهم خليفة الزمان .... ضجت الأرض . (بقرع الطبول والدفوف والصاجات وهم يتمايلون على نغمة الذكر (الله .. الله .. الله

وصلوا المقام .. قرأوا لصاحبه الفاتحة .. جددوا له العهد .. انحدروا إلى : السفح المواجه .. نصبوا حلقة الذكر .. بلغ الحماس مبلغه حين صاح الخليفة

شويش على رجال حراميه ونهابين

. بلقلقم في الضبب والناس غفلانين

صلوا على واحد نبي بالسيف قام الدين

لا بد ما ينكشف ستر الملونين

.. (صاحوا جميعاً بصوت واحد (حي

بدأ الدراويش يضربون أنفسهم بالخناجر فلا يحسون بالألم من شدة الاتصال وحلاوة الذكر .. دق سالم الشيش في خده وأخرجه من الخد الآخر .. ابتلع مراد البتير النار فتهلل الحاضرون .. أما الفار فإنه جبن عن إيذاء نفسه .. تشاغل بالإستغراق في الذكر .. فترت همتهم .. ارسل الخليفة إحدى مقاطع الشعر الذي يسمونه المطاوعي لحثهم.

شوبش على رجال يوم الحرب ما ولوا -

وإن هانت الناس ما هانوا ومازالـــــوا

فرشم سجاجيدهم عالمـــــاء ما انبلـــوا

في أول الليـــل حلـــوا شـــعورهم حلوا

وفي آخـــر الليـــل في حرم النبي صلوا

حي .. حي .. حي

صار الدراويش يستعرضون كراماتهم .. فمن مظهر فاكهة في غير أوانها .. إلى آكل للشوك أو الزجاج .. بعضهم بلغ به الجهد مبلغه فصار يترنح كبناء على وشيك السقوط .. إلا أن الخليفة واصل انتخاءهم بأشعاره التي تحرك الحجر .

كف النبي نبع الزلال منو

شربوا العطاشى وجيش المؤمنين منو

الشمس ويا القمر طلبوا الرضا منو

باب البحيرة انفتح .. دخل النبي منو

حـــــي

لا باس يا سيدي أبو العباس لا باس

انصفت خضرة الشريفة من كلام الناس

الرمل ما ينعجن .. والشوك ما يندا س

والعهد ما ينعطى .. إلا لناس وناس

حــــــي

إربد وجه الفار وأزبدت شفتاه .. ثم سقط مغشياً وسط الحلقة .. حمله سالم والبتير وانصرفا به إلى الظل .. قال البتير :

- لم يتحمل جسده الرقيق قوة مواجده .. فحصل له ما حصل .. أنظر إلى وجهه الذي يطفح بحلاوة الإتصال .. مدد يا سيدي علي المنطار .

شخر سالم بحنق وهو ينزع الشيش من خده :

- بل قل أنه جبن عن إظهار الكرامات التي أظهرناها .. فادعى الإغماء .. إنه يتماوت .. صحيح صدق المثل :

- في رجال وفي رجرج .

تأمله البتير..تذكر افعاله وقصته مع خضرة وتردده على بيت الكلاغاصي .. وقال في أسى :

- من جهة الكرامات فلا يرقى إلى كراماتك أحد يا شيخ سالم .. أنت من الأربعة الأقطاب المتدركين في سبيل الله .

عاد سالم إلى حلقة الذكر .. أما مراد البتير فانتظر حتى أفاق حسان من إغمائه وقال له :

- هيا بنا إلى الحارة .

- والإتصال .. والكرامات .. وما يحدث للمتصل حين يمسك التراب فيصبح ذهباً .

- سندع كل ذلك لسالم .

ضحكا سوياً ثم أخذا أدراجهما إلى الحارة .

***

منذ أعلن عن وصول قافلة علي الطاهر من السودان .. وغزة تستعد لليوم الموعود .. مولانا علي الطاهر من علماء غزة الأفاضل .. عين قاضياً في السودان ثم ما لبث أن ترك القضاء واشتغل بتجارة الرقيق .. قوافله تعبر درب الاربعين إلى مصر .. ومنها إلى الشام بعد أن تتوقف قليلاً في غزة لعرض ما لديه من بضاعة نادرة .. وليقضي مولانا اياماً بين أهله وأصدقائه .

رغم أن الجواري السود كن يستخدمن في المطبخ .. إلا أن الطاهر حرص على أن يجمع في بضاعته مواصفات خاصة .. كان يتذوق اللون الأسود ويعشقه .. وكثيراً ما

حملت قوافله من جميلات صبايا الزنج ما يخلب الألباب .. القوام الممشوق .. صلابة الأرداف .. خفة الدم .. وحلاوة الملامح .. كأنهن تماثيل المرمر.

حرص مولانا على تعليمهن النطق بالعربية .. وتأديبهن وتدريبهن على القيام بالأعمال المنزلية .. حتى صارت زنجياته حلماً لكل موسر في مصر والشام ..

جنى مولانا من وراء ذلك ثروة طائلة .. في يوم الخميس بدأ المزاد على عدد من جواريه .. وقفت الجارية في منتصف الغرفة وإلى جانبها الدلال يصف محاسنها ويمدح خصالها .

حين وصل جوهر وجد غزة كلها هناك .. المتصرف .. التفكجي باشا .. شيخ المشايخ .. القاضي .. الشاهبندر .. كبار التجار .. أصحاب الخانات .. الأعيان .

تذكر جوهر وصية سيده يونس (لا تشتري حتى ينتهي المزاد .. الجمال ليس مهما .. أريدها عاقلة .. نظيفة .. نشيطة .. مطيعة .. تخدم فاطمة وتؤنس وحشتها في وادي الزيت) .

أشار مولانا الطاهر إلى الجارية بأن تخلع ثوبها .. ترددت قليلاً .. تقدم منها .. ساعدها في خلعه .. سطع سوادها كما يسطع الأبنوس .. مما زاد في بياض أسنهانها .. فتوهجت كصف اللؤلؤ .. قال الطاهر مشيراً إليها :

- الناس تعشق من خال بوجنته فكيف بي وحبيبي كله خال .

نزل الطاهر عن المنصة تاركاً العيون تلتهم معالم جسدها الوثني .. اندس في صفوف النظارة .. جاءت وقفته بين أبي الطايع والقاضي معروف .. كان الثلاثة أصدقاء طفولة .. وزملاء كتاب واحد .. قبل أن تتشعب بهم الحياة كل في طريقه .

بدأ الدلال عمله بوصف شعرها الجعد الثقيل .. مشيداً بقوته وغزارته .. ثم فرق بأصابعه شفتيها المكتنزتين ليرى النظارة أسنانها .. وأعطاها بندقة ليمتحن قوة أسنانها أمام الجمهور .. كسرتها دون عناء .. ثم انحدر إلى عنقها الطويلة .. فأكتافها الممتلئة .. فنهديها الصلبين الفائرين .. فبطنها المستديرة .. فكشحها الهضيم .. فساقيها ..

لم يترك له القاضي أن يسترسل .. قاطعه:

- لها أيطلا ظبي وساقا نعامة .

ضحك الحاضرون .. واصل الدلال وصفه الدقيق .

قال الطاهر لمعروف :

- فتاة كهذه تعيد لك شبابك أيها القاضي .

تدخل أبو الطايع ناصحاً :

- لا تشتريها أيها القاضي .. مع فتاة كهذه سوف يستنفذ زين الدين العطار كل أموالك..

سفه الطاهر رأي أبو الطايع :

- مع فتاة كهذه لن تحتاج زين الدين العطار على الإطلاق .. في جسدها من التوابل ما يغنيك عن أدوية العطارين .

أغرقا في الضحك .. قال أبو الطايع :

- عجبت لكما .. والله ما زادكما التقدم في السن إلا خفة وطيشاً .. وما زادكما التبحر في الدين إلا مروقاً منه .. وصدق فيكما قول الشاعر (وإن سفاه الشيخ لا حلم بعده .. وإن الفتى بعد السفاهة يحلم) .

أجاب معروف :

- ما شاء الله عليك أيها الحليم التقي الورع .. أظنهم يضعون الحجارة على أذيالك حتى لا تطير إلى السماء السابعة من شدة تقواك .. ألم تعرض على تيمور الضرغام أن يبيعك غلامه يلماز بعشرة ذهبيات .. أم أنك أردت الغلام ليؤمك في الصلاة أيها الفاسق .

أغرقا في الضحك ثانية .. بينما تلفت أبو الطايع حتى يتأكد أن أحداً لم يسمع كلام معروف .

كان المزاد قد بدأ .. فانصرفوا إليه بكل اهتمامهم .. تحسس القاضي معروف الصرة التي منحها له الجزار .. وقال في نفسه :

- لماذا خلقت النقود إن لم تكن للتسري بفتاة كهذه .

تحمس المزايدون وارتفع السعر أكثر مما قدر الجميع ..بدأوا يتراجعون إلا القاضي الذي قرر الصعود إلى آخر الشوط .. خمسة عشر ذهبية ..

حبس الجميع أنفاسهم .. جاء صوت الدلال :

- هي لك أيها القاضي .. هنيئاً مريئاً .

نقد القاضي الدلال الثمن .. تقدم من الفتاة العارية .. القى عليها عباءته واقتادها إلى الخارج .

استمر المزاد .. الجارية الثانية كانت من نصيب أبي الطايع .. أما الثالثة فاشتراها
: رشيد عليان .. قال نظمي أفندي لجاره
منذ افتض هذا اللعلين بكارة سارة .. لم تعد أي امرأة تملأ عينه .. ها هو يشتري كل -
. عام جارية ويفتضها إحياء للذكرى
: انفرد جوهر بالطاهر وقال له
سيدي يونس يريد جارية لخدمة زوجته .. الجمال ليس مهماً .. يريدها عاقلة مطيعة -
. حسنة العشرة
من سوء حظك أيها العبد (أراد أن يضيف التنتون.. ولكنه لاحظ السيف الذي يتدلى -
. (على جنب جوهر فتدارك
أيها العبد البهي الطلعة .. إن جميع جواري الطاهر يتمتعن بجمال فاحش .. ادخل البيت
وسترى بنفسك .. ربما اخترت احداهن مضطراً .. ولكن قبل أن أدخلك عليهن .. أريد
. أن أتأكد أن معك من المال ما يكفي للصفقة
: تدخل أبو الطايع .. وقد وجدها مناسبة لإغاظة صديقه الطاهر والنيل منه
اقصر عن جوهر .. فهو رسول السيد يونس صاحب وادي الزيت .. وإن ما معه -
. الآن يكفي لشرائك أنت أيها النخاس .. عشر مرات على الأقل
احمر وجه الطاهر .. فما تعود أحد في غزة أن يلقبه بالنخاس وهو العالم
القاضي الجليل .. ها هو واحد من أعز أصدقائه يفعل ذلك علانية .. ثم تذكر تواطؤه
: مع القاضي معروف ضد أبي الطايع منذ هنيه .. وقال في نفسه
. مازال أبو الطائع غاضباً علينا -
سحب جوهر من يده .. دخلا ليستعرض أمامه الفتيات الباقيات .. ما أن اجتازا
عتبة الغرفة حتى هرع إليهما كل من بها من الفتيات .. جثون على ركبهن وصرن
. يهتفن .. خذني .. خذني .. أنا .. أتوسل اليك .. أخرجني من هذا الجحر
: قال جوهر في نفسه
لابد أن هؤلاء جواري الدرجة الثانية .. اللواتي فشل الطاهر في ترويضهن وإعدادهن -
للبيع بالمزاد .. وقد جازاهن على ذلك بإساءة المعاملة والحرمان مما تتمتع به
. المحظيات والسراري من رغد ونعيم

جواري الخدمة في نظر الطاهر سقط متاع لا يؤبه له .. خاف جوهر إن اختار واحدة .. أن يشتط عليه الطاهر في الثمن .. خاصة بعد الذي سمعه من أبي الطايع ..
: أرد أن يباغت البائع

ماذا عن السعر يا سيدي ؟ -

لكل جارية سعرها .. هذه بثلاث ذهبيات .. تلك بأربعة .. الجاثية أمامك هذه - بخمسة .. أما تلك في أقصى الغرفة .. التي تدير وجهها للجدار .. فإنني أرضى ببيعها مقابل ذهبية واحدة .. لأنها عنيدة .. رفضت أن تتعلم شيئاً طوال عام كامل .. حسبنا
: أنها خرساء حتى ضبطناها تغمغم بالصلاة على طريقة نصارى الحبشة

سمع جوهر كلمة الحبشة فهرع نحو الفتاة .. ركع إلى جوارها وباللغة التي جاهدت النجاشي طويلاً لكي تعلمها له دون جدوى .. وبالكلمات القليلة التي ما تزال
: عالقة بذهنه .. خاطبها دون أن يسمعه ابو الطاهر

هل أنت من قبيلة زانو ؟ -

التفتت إليه فجأة ثم ارتمت على أكتافه وقد أجهشت بالبكاء .. تخلص منها دون أن يلفت
. نظر الطاهر

. لا تدعي هذا التاجر اللعين يلاحظ شيئاً .. تجلدي وسوف أبذل ما في وسعي -

: أخرج ذهبية وناولها للطاهر

. أريد تلك الفتاة -

. هي لك .. ولكن البضاعة لا ترد بعد البيع -

: سحبها جوهر من يدها وغادر المكان والطاهر يقول في نفسه

. لكل ساقطة لاقطة –

***

تجمع علية القوم لوداع قاضي غزة الذي سوف يلحق بالوالي ليحج في معيته
. إلى بيت الله الحرام

جلس يونس إلى جانب شيخ التفاح وجلس بقية المشايخ .. تصدر درويش باشا
: متصرف غزة الجلسة .. قال شيخ التفاح

هناك مثل يقوله العامة في حارتنا (إياك وصاحب القلم .. وصاحب العلم والحاج ثم - الحاج) .. ولقد أراد القاضي أن يجمع بين الثلاثة فهو صاحب قلم يجيد الكتابة والقراءة .. وهو صاحب علم وعمامته حمل بعير ,. والآن يريد أن يحج .. فالويل لنا .

قال الباشا وهو يسحب أنفاس ارجيله فارهة وضعت أمامه :

سمعنا أن جناب والي معظم راض عن حضرة قاضي غزة .. وإنه سوف يعينه قاضياً - للقضاة في بر الشام كله .

قال يونس :

إذا فالخوف في محله .. لا يعطي الجزار منصباً كهذا لوجه الله .. ماذا فعلت له يا - قاضي باشا .

بايعته على أنه المهدي المنتظر - .

بوغت الحاضرون .. لكنهم سرعان ما أخذوا الموضوع على محمل المزاح ..

قال يونس :

على أن تكون لك الخلافة من بعده - .

كلا .. فبعده ستقوم القيامة .. أطلعنا على كتاب قديم يؤكد ذلك .. بايعه كل العلماء - والقضاة في بر الشام .

اشمأز درويش باشا .. لف ناربيش الأرجيلة على عنقها في حدة ظاهرة :

ألا يكفيه لقب جناب والي معظم حتى يضيف إليه مهديات منتظرات .. ماذا يريد يا - قاضي باشا ؟

قال لي أنه سيملك المشرق والمغرب - .

صاح درويش باشا محنقاً :

والسلطان سليم خان خاقان البرين والبحرين وظل الله في الأرضين وحامي حمى - حرمين شريفين .. ماذا يملك ؟ أمان يا ربي أمان ؟ كم أعطاك الوالي يا قاضي باشا :

أعطاني ما أعطاه للآخرين .. صرة مال وكسوة فاخرة - .

قال يونس :

بعت الغالي بالرخيص يا شيخ معروف .. بعت الغالي بالرخيص - .

دخل شيخ المشايخ تيمور الضرغام فسكت الجالسون .. قبل يد القاضي وسلم على الآخرين بأطراف أصابعه .. قال له درويش باشا :

لماذا قبلت يد القاضي ولم تكن تفعل ذلك .. لابد أنك علمت بما أصاب من المكانة -
. لدى سيدنا الوالي يا شيخ المشايخ

عندما انصرف الجميع .. لبس القاضي عباءته .. اصطحب معه واحداً من حراسه .. انطلق إلى السجن لكي يودع تاج الدين .. وجد الرجل مستغرقاً في تهجده .. قبع إلى جوار الحائط ينتظر أن يفرغ تاج الدين من القراءة .. جاءه صوت تاج الدين
: صافياً نقياً خالياً من كل شوائب الدنيا

والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً .. والذين إذا ذكروا بآيات -
. ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً

قال معروف في نفسه : (كأنه يعنيني .. فهل أنا حقاً شاهد الزور الذي إذا ذكر بآيات ربه يخر عليها وهو أصم أعمى .. والله لو كان يعلم بوجودي لما سامحته عليها ولكن وجهه إلى الجدار .. والضوء شحيح .. ولا يعلم بنيتي في زيارته .. أم أنه كما يشيعون قد رفع عنه الحجاب .. جاهده العرق فأراد أن يتخلص من هواجسه .. تنحنح
: كي يلفت نظر الشيخ إليه

: أنهى تاج الدين قراءته .. والتفت فرأى معروف -

. خيراً يا شيخ معروف -

. جئت أودعك .. فأنا ذاهب للحج في معية سيدنا الوالي -

لكي تعلن على الناس بمكه أنه المهدي المنتظر ؟ -

: سكت معروف وتابع تاج الدين

. يا معروف إن لم تكن قادراً على نصرة الحق فلا تعن على الباطل -

توسطت لك عند سيدنا الوالي وكان ينوي قتلك .. لو وعدتني بمهادنته .. سأطلب لك -
. العفو

. أهادنه على ماذا ؟ على أنه المهدي .. والله إن السجن أحب إلي مما تدعونني إليه -

. أردت أن أنصحك -

بل أنا الذي أنصحك يا معروف .. أطلب لنفسك النجاة مما أنت فيه .. ألا تعلم بأن من -
. أعان ظالماً سلطه الله عليه

إن هي إلا كلمة تقولها وتخرج إلى بيتك وأهلك وتلاميذك .. ألا تخاف أن يقتلك -
. الجزار .. فتحكم على أولادك باليتم .. وعلى بيتك بالخراب

قال رسول الله صلعم لعلي بن أبي طالب (لو اجتمعت الإنس والجن على أن ينفعوك - لا ينفعوك إلا بشئ كتبه الله لك .. ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يضروك .. لا يضروك إلا بشيئ كتبه الله لك .. رفعت الأقلام وجفت الصحف) .

- إنما أردت لك الخير يا تاج الدين .

- والله يا معروف لا أجيبك إلا بما أجاب به شيخ الإسلام ابن تيميه .

لقد استطاع خصومه أن يوغروا صدر سلطان مصر عليه .. فسجنوه أكثر من مرة .. وهموا بقتله أكثر من مرة .. لكن روحه ظللت مضيئة بقوة الإيمان .. لم تهن ولم تضعف .. قال لتلميذه إبن القيم مرة :

– وما يفعل أعدائي بي .. أنا جنتي هنا في صدري وإن رحت فهي معي لا تفارقني .. إن حبسي خلوة .. وإخراجي من بلدي سياحة .. وقتلي شهادة في سبيل الله .

***

وضعت فاطمة ابنتها البكرية نعمه في بيتهم بالحارة .. ورغم أن البدو يفضلون الأولاد الذكور على البنات إلا أن يونس فرح بها فرحاً عظيماً .. وفي أسبوع نعمة أولم للحارة وليمة كبيرة .. ذبح فيها عشرة أكباش سمان .

قال نظمي أفندي الكلاغاصي لسالم :

- ماذا سيفعل نسيبكم عندما تلد له فاطمة ولداً .. والله ما شبعت الحارة لحماً قبل هذا اليوم .

- هذه ليست حكاية ولد أو بنت يا نظمي أفندي .. الحكاية أنه يريد أن يشتري الحارة بهذه الوليمة .

- رأيتك تسرع إلى تهنئته وتتربع على أول منسف .. هل اشـــتراك أنت أيضاً ؟

- كنت أجامل عمي .. ولا اريد أن يظهر أمام صهره وكأنه مقطوع من شجرة .. فيطمع به .

- والعباءة التي خلعها عليه .. رأيتك فرحاً بها كأنك ظاهر العمر في زمانه .

هل كنت تريدني أن أرفضها وأجاهر بعداوتي لرجل يخشاه حتى الباشا في الدبوية .. -
. شعرة من دقن الخنزير بركه
خنزير .. الرجل الطيب الذي أعزكم وأعز الحارة بمصاهرته خنزير ؟ أنا ذاهب الآن -
. غلى المضافة .. لعلني أجده هناك وأرى إن كان حقاً كما تقول
. هبط قلب سالم إلى ركبه .. فهذا النذل لن يتورع عن النميمـــة .. لحـــق به
قبل أن تشي بي تذكر أنني كتمت دورك في الوشاية بالعامري .. ولم أبلغ أهل الحارة -
بما تؤلف فيهم من الهجاء عندما تدور برأسك الخمر .. تلك القوال التي يتناقلها الناس وتصبح عاراً على من قيلت فيه .. وسبة تلازمه إلى الأبد .. ألست القائل (قلة الذوق عند أولاد خليل مرزوق) .. فذهبت مثلاً .. ثم ألست القائل (ثلاث ضرطات دايرة في البلد .. واحدة في دقن إللي بصدق محمد سليم .. وواحدة في ذقن إللي بعامل النصيرات .. وواحدة في ذقن إللي يناسب المراجعة) . وإن من ذكرت كلهم متعطشون لمعرفة القائل .. أما قصيدتك في هجاء كل أهل الحارة والتي تبدأ بالقول ألك الحمد يا رب في زراعين المشاش زرعوا الزرع وإجا الزرعي وراهم شاش .. ولما تحاسبوا عند الخم
. امتلت دقونهم فاش
. لن أشي بك يا سالم .. بيننا عيش وملح .. فكف شرك عني -
. دخلا المضافة سويا .. ألقيا بالتحية .. ثم اتخذا مجلسهما في انتظار القهوة
كان جوهر يجتهد في تحميص البن .. وهي أهم مرحلة من مراحل صنع
. القهوة .. وعليها يتوقف مذاق البن ونكهته
دخل يونس يحمل نعمة قبل أن تكمل الأربعين .. لم يكن من المعتاد دخول أنثى إلى المضافة حتى ولو كانت طفلة في لفائفها .. أنهى جوهر تحميص البن .. وضع
. المهباش جانباً حتى تفوج حرارته
. (تقدم يونس .. ناوله نعمة وهو يهتف (هذا عمك جوهر
الأبوة شئ عظيم يا جوهر .. لماذا لا تتزوج وتصبح أباً مثلي ؟ -
نظر جوهر إلى وجه الطفلة الملائكي .. قبلها .. احضللت عيناه بالدموع ..
أليست إبنة أخيه .. يونس بعطيها له أمام كل أهل الحارة كنوع من التكريم لا يخفي
.. عليه
كرر يونس السؤال المفاجأة ؟
لماذا لا تتزوج يا جوهر ؟ -

هجم عليه عبيد الشيخ راكان وحملوه إلى (الشق) حيث جلس الشيخ ركان ووجوه القبيلة .. كان في الخامسة من عمره .. وجد مريبيط الحلاق يشحذ موسه ..حوله بعض أطفال العبيد يجأرون بالبكاء وقد انحسرت أثوابهم عن الركبتين والدماء تسيل من افخاذهم .. صرخ صرخة هي جماع رعبه .. سمعتها النجاشي في الحريم فاهتز قلبها .. كانت قد قضت خمس سنوات بينهم دون أن تفتح فمها بكلمة .. حتى ظنها البعض خرساء .. لكن الصرخة زلزلت كبرياءها فأقبلت كلبؤة جريح .. رآها العبيد الذين أمسكوا بتلابيبه .. تركوه وولوا الأدبار .. وقفت أمام الشيخ راكان بقامتها المارِدة وقالت بعربية سليمة فاجأت الجميع :

- لا تفعلوا ذلك بأولاد الملوك .

وقف كل من في المجلس مشدوهاً .. قال الشيخ راكان :

- أنت تتكلمين إذن يا نجاشي .. تتكلمين لغتنا .

- جاء يونس وفي يده قطعة الحلوى التي صنعتها له .. وسيفه الخشبي يتدلى على جانبه .. قال لأبيه :

- ما ألذ ما تصنع النجتشي من الحلوى .. تذوق هذه .

أخذ القطعة لاكها في فمه .. كان قراراً صعباً هذا الذي يطلب منه .. لكن النجاشي ألحت :

- وفر جوهر من هذا إكراماً لسيدي يونس .

عاد العبيد يمسكون بجوهر .. هجم يونس على العبيد بسيفه الخشبي :

- لماذا تسحبون جوهر خلوا عنه .. خلوا عنه .

ضرب العبيد جاهداً في تخليص جوهر منهم .

- اتركوه .. أتركوا أخي .

اهتزت نخوة الشيخ راكان .. يونس ..طفلة اليتيم .. كبر وصار يأمر وينهي .. بعد أن تركته أمه المريضة للنجاشي تعنى به أكثر مما تعنى بولدها .

أشار بيده للعبيد .. تركوا جوهر .. قال للنجاشي :

- عندما يكبر سنلحقه بالرعيان .. لا يجوز أن يبقى معك في المضارب .

- ليكن .

احتضنه يونس وأخذ يمسح دموعه .

كان جوهر مازال يتفرس في وجه ابنة يونس حينما دهمه السؤال من جديد :

- لماذا لا تتزوج يا جوهر ؟

هل يتزوج مرجانه .. إنها جميلة وعذبة وقد صارحته بحبها بعد أن تجاهل تلميحها أكثر من مرة .. بل أنه لم يتورع عن السخرية بها :

- لقد رأيت وجهي في حوض الجماقية فامتلأت رعباً .. ما أظن الله قد خلق من هو أبشع مني يا مرجانة .. كيف تقوين على النظر إلى .. ومصارحتي بحبك ؟

- لماذا لا تتزوج يا جوهر ؟

- هل يكذب عليه كي يتخلص من هذه الملاحقة .. قالت له النجاشي مرة .. أولاد الملوك لا يكذبون .. ليس خوفاً من عواقب الكذب .. ولكن لأنه لا يليق بهم ذلك .

- لماذا لا تتزوج يا جوهر ؟

- هل يتزوج مرجانة وينتج لسيده جيشاً من العبيد ؟

بكت الطفلة فأعادها لوالدها وهو مازال شارد الذهن .. التفت إلى المهباش .. سكب البن في المصحان الفخاري .. أخذ يهرسه بعصاً غليظه .

أعطى يونس الطفلة لجدها وعاد إلى جوهر .. أمسك عصا البن ليوقفه عن العمل ريثما يأخذ منه جواباً شافياً :

- لماذا لا تتزوج ؟

- أي مطاردة هذه .. يبدو أن لا مفر من السقوط في يد يونس .

- لا أريد أن أرى أولادي في العبودية .

قفز يونس من مكانه كمن لدغته أفعى .. نظر إلى جوهر كأنه يراه لأول مرة .

- ليس العبد من يولد في العبودية يا جوهر .. إذا كانت له نفس حرة كريمة مثل نفسك .. العبد من يولد حراً ويسير بنفسه إلى العبودية .. عبودية المال أو الجاه أو المنصب أو الشهوة .

ثم اتجه بحديثه إلى الحاضرين :

- اشهدوا وليشهد الله أن جوهر حر منذ الساعة .. وإنني أعتقه لما أسلف لي من حسن الصحبة .

تصايح الحاضرون :

- مبروك يا جوهر .. أنت لها .. تستحق والله كل خير .

ترك جوهر عدة القهوة .. اقترب من يونس وعلى وجهه علامات التأثر .. تابع يونس :

- منذ اليوم إن شئت أن تصاحبني فأخي وصديقي .. وإن رحلت فسيكون حزني لفراقك عظيماً .

قال جوهر :

- والله ما زدتني بعتقك لي إلا عبودية لك .. كيف أجزي الإحسان بغير الإحسان .. أنت أخي و سيدي .. وكل ما لدي في هذه الدنيا .

احتضن جوهر يونس .. تعانقا كأخوين .. اختلطت دموعهما كما في طفولتهما البعيدة .

هنأ سالم جوهر بطرف لسانه وخرج من المضافة حانقاً .

ظلت السماء في أواخر أيلول ملبدة بالغيوم .. خرج شيخ التفاح من المسجد بعد صلاة المغرب .. سرح عينيه في الفضاء .. كانت عصا الريح تسوق قطعان السحب إلى الشرق .. قال ليونس :

- أيلول طرفو مبلول .. سرعان ما ستمطر .. هل تأتي معي إلى المضافة ؟

- بل أود أن أتمشى قليلاً باتجاه بركة قمر .

حياه الشيخ رمضان .. دلف إلى المضافة .. انطلق يونس في طريقة .. وقد تدلى سيفه الطويل على جانبه .. مر بالجماقية .. كان بعض السقائين يزاحم على الماء .. حياهم فردوا تحيته بأحسن منها .. ملأكفيه بالماء وشرب .. حمد الله ثم واصل طريقه (ما أعذب هذا السبيل .. ما عرفت ماء أكثر حلاوة ولا أرد للظمأ منه) .

بدأ المطر يتساقط خفيفاً واهناً .. تصاعدت من تراب الحارة الذي أحرقته شهور الصيف رائحة مميزة .. تشممها يونس فملأته بالإثارة .. اي طقس هذا الذي سيبدأ الآن .. أحس بالأرض تهتز تحت وقع المطر .. وتفتح مسامها لإستقبال الخصب القادم.. تذكر فاطمة حين لمسها بكفه أول مرة .. اهتزت تحت يده واضطرب كيانها كله .. حتى أنه اضطر لسحب يده حتى تهدأ .. خامره اشفاق عليها وحنو جعل الدمع يطفر من عينيه .. تذكر الآية الكريمة (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) .. سمع قصف الرعد فسبح (قدوس سبوح .. سبحت لك الملائكة والروح) أحس بخطى تغذ وراءه فتلفت .. حياه شهوان :

- هل أمشي معك قليلاً ؟

أومأ يونس برأسه .

قال شهوان :

- والله إنني أحبك من كل قلبي .. وقد سمعت عمي أمام المسجد يقول إذا أحب أحدكم أخاً له فليبلغه بحبه .

ربت يونس على كتف شهوان :

- وأنا أحبك وأطرب لأشعارك وغنائك العذب .. ألا تسمعني الليلة شيئاً من العتابا ؟

- بل سأسمعك من البغدادي وهو لا يقل روعة عن العتابا .

تلفت شهوان .. كانا قد خرجا من الحارة .. وامتدت أمامهما الحقول المترامية حول بركة قمر .. لم يكن شهوان بحاجة إلى إلحاح لكي يرسل صوته الحنون في هدأة الليل .

- جسمي تقطع وجرحي طال يا مولاي

وأقلام صبري براها الهم يا مــولاي

حبو نخل عظمي

كما ينخل السوس عاصي الخشب

نهرا الفرا من دمعتي فار

ودور طاحون وخشــب

إنت بتتين ياللي من حديد وخشب

إيشحال أنا من لحم ودما صابر على بلواي

قال يونس :

- هل هو حب جديد يا شهوان ؟

- نعم يا سيدي .. فتاة من الشجاعية قابلتها أول مرة في أربعاء أيوب .. وانقطع عني خبرها إلى أن التقينا في سوق الجمعة .. اسمها وضحا .. والله ما رأت عيني أجمل منها .

- وزوجتك يا شهوان ؟

- أحبها ولم أصل إلى الزواج منها إلا بقتل نفسي .. ولكن الزواج يا سيدي أكبر آفة تصيب الحب .

- كيف يا شهوان ؟

- يصبح اللقاء مكرراً وتعتاد على ما كنت تظنه أمنع المستحيلات .. ثم أن الطالب عدو المطلوب .. والزوجة لا تكف عن الطلب .. خاصة عندما يتكاثر الأولاد .. يغيض الوجه الصبوح وتختفي الإبتسامة المشرقة .. فلا يواجه الزوج سوى اللوم والتقريع .. كان أبي رحمه الله يقول لي أن المرأة لا تطلب من الله في صلاتها سوى أن يعطيها

زوجاً .. فإذا أعطاها الله الزوج طلبت من الزوج كل ما تريد .. ولو أن الأمر توقف عند مطالبها لهانت الأمور ولكنها ناصبت الشبابة العداء .. تعتبر الشعر والغناء صنعة فاسدة وتطالبني بالإقلاع عنهما .

آه يا سيدي ألا يحق لي الهرب إلى حب جديد .. أم تريدني أن أغلق صدري على الهم حتى أموت .

- لا بأس عليك مادام حبك شريفاً .. ومادام يلهمك هذا الغناء العذب .

توقف شهوان قليلا ثم تابع الحديث :

- المرأة المستحيلة هي التي تجعل الشاعر يصيح كما تصيح ديكة الليل .. أخرج شبابته من صدر قنبازه .. وارسل أنغامه التي تشطر القلب .

فكر يونس في حديث شهوان .. ثم قال في نفسه :

- لابد أن حبي لفاطمة يختلف عن ذلك .. فوالله ما يزيدني تعودي عليها إلا عشقاً وصبابة .. وإني لا أمل النظر اليها حاضرة ولا أمل تخيلها غائبة .. حتى يجمعنا مكان واحد .. لعله الفقر الذي يقتل الحب .. الفقر يجلب القهر .. والقهر إذا احتل مساحة النفس يدفعها لأن تبحث عن الخلاص .. فتجري وراء السراب .. عادا أدراجهما إلى الحارة .. ووجه فاطمة يضيئ شغاف قلبه .

في تشرين أول حل موسم قطاف الزيتون .. أهل الحارة وعدد من الحارات الأخرى التقوا في وادي الزيت للمشاركة في القطاف .

قال شيخ الحارة ليونس :

- وصل العدد إلى أربعمائة .. ما بين رجل وامرأة وطفل ..

أجابه يونس :

- كتر الأيادي في الحصيدة غنيمة .. رزقنا ورزقهم على الله .. استمر العمل قرابة الشهر دون توقف .. كانت الجمال آخر كل نهار تنقل الغلة إلى المعاصر .. وهناك يتهافت تجار الزيت على المحصول .. بنادقه .. أتراك .. عرب .. يظل خان الزيت يعج بهم طيلة الموسم .. إنتظاراً لما تعطيه الشجرة المباركة في التنزيل .

سكينة كعادتها كانت منشرحة الصدر .. حاضرة النكتة .. تطوف كالإبتسامة على شفاه الناس .. نساء وادي الزيت أحببنها وفتحن لها قلوبهن .. لجأن إليها في مشكلاتهن .. وجدن لديها دواء لكل علة .. براهم للجروح .. وصفات للحمل .. أعشاباً لأمراض المعدة .. ذروراً للعيون المريضة .. وكحلاً للعيون السليمة .. جاءتها إحداهن

على استحياء .. أخبرتها أنها عروس منذ عامين ومازالت عذراء وأن زوجها عاجز ..
. لم تجد سكينة سوى البكاء .. بكت حتى تتهنه قلبها
رقية كان لها هم آخر .. ظلت تتعقب أخبار فاطمة .. وتتسقط الأحاديث من
. نساء الوادي .. فلم تسمع إلا ما أغاظها وملأها حسداً
: قالت لها امرأة فلاح من الوادي
كان زوجي يملك ربع هذه الوادي قبل أن ينزع الملتزم ملكيته .. وسوف أصدقك -
الحديث : فاطمة هذه إمرأة مباركة .. مبارك كل شئ تلمسه أو يقع نظرها عليه .. منذ
حلت الوادي حل معها الخير كله .. الأشجار أعطت أكلها ضعفين .. حتى الكعوب
الهالكة اخضرت وأخرجت قعالها .. القطعان الهزيلة التي كنا نرعاها على أطراف
الوادي امتلأت شحماً ولحماً .. النعاج اتأمت والأبقار توالدت واكتظت أثداؤها
بالحليب .. حتى النحل البري آوى إلى جذوع الأشجار .. بنى خلاياه في انتظار مرور
فاطمة .. لتقطف الشهد بيدها .. توزعه على الأطفال والمرضى .. والعجائز الذين لم
. يبق في فمهم أسنان لمضغ كنافة مراد البتير
. انصرفت رقية وهي تزوم كحية قطع ذيلها
في اليوم الأخير أولم لهم يونس عجلين .. تولت سكينة ونساء الحارة طبخ
السماقية وتوزيعها في صحون الفخار على المشاركين في الطلقة .. ثلاثة أحمال من
. الزبادي الفخار وزعت على المشاركين في الطلقة .. ليغرفوا بها سماقية يونس
راقبهم يونس بجذل وهم يغدقون الزيت على وجه السماقية .. يغمسون فيها
الخبز وقبل أن تستقر اللقمة في أفواههم يقضمون قرون الفلفل الأخضر العاصي
. ويمضغون بتلذذ
من أين أتيتم بهذا الزيت الرائع ؟ -
: أشار شيخ الحارة إلى الوادي حوله
. لا ينقل التمر إلى هجر -
: تبسم يونس
. ها أنت تردد أمثالنا في البادية -
: علق جوهر
. من ناسب القوم أربعين يوم صار منهم -

أوصاه يونس بأهل الحارة خيراً .. وأكد عليه أن لا يعاملهم كما يعامل باقي
. الحارات عند تقسيم الحصص
: قال شيخ التفاح
. والله لا ينفق نفقتك أحد ولا يتزكى زكاتك أحد -
. يا عماه سنة أخرى كهذه .. فاسترد كل ما دفعته ثمناً لوادي الزيت -
: هز جوهر رأسه
. في الحديث الشريف ما نقص مال امرئ من صدقة -
استأذنهم يونس في الذهاب الى البحر لوداع أصدقائه من تجار الزيت المبحرين
. بتجارتهم إلى أوروبا
: سأل جوهر في دهشة
وهل يصل زيتنا إلى أوروبا ؟ -
: أجاب يونس بجذل
. زيت غزة يضيئ قناديل العالم -
. في الحارة أقسم شهوان لزوجته
لم تمتلئ خوابينا بالزيت منذ وفاة والدي إلا هذه السنة .. أما الشيخ محمود فقد أغرق -
: زبدية السماقية بالزيت .. وحين لامته زوجته على الإسراف أجابها
. (في الحديث الشريف (كلوا الزيت وادهنوا به -
الزهار وحده كان حانقاً في ذلك اليوم على يونس .. انفجر في زوجته وهو يلقي
: أباريق الزيت في الفناء خارج الدكان
. لن نبيع هذه السنة زيتا لأهل الحارة .. إنهم يخوضون في زيت يونس إلى الخلخال -

***

فتحت الأرض الطيبة صدرها للمحاريث .. ظلت طرقات الحارة تشغي
بالفلاحين منذ الفجر .. تدفعهم إلى المسارب الضيقة بين الحقول .. وقد اختلطت
أصوات الناس بالثغاء والصهيل والنهيق .. كان الجميع يتدافعون رجالاً وعلى كل
ضامر .. إلى سهول القمح والشعير المحيطة بالمدينة وبساتينها .. يزرعون نصفها
ويريحون نصفها الآخر .. متناوبين عليها سنة بعد سنة لحماية التربة من الإجهاد .
كان شيخ كل حارة يتولى توزيع الأرض موارس (حصص) على العائلات كل
حسب طاقتها على العمل .. فأرض الفلحة مشاع لأبناء الحارة كلها .. وعلى من يجتاز
شيئاً منها لفلاحته أن يدفع الضريبة للدولة نسبة من الغلة .
قال شهوان لسالم وهما في الطريق إلى الموارس .. وددت لو أن زوجتي لا
تغار علي .. إذا لتزوجت وخلفت جيشاً من الأولاد والبنات كما فعل البطش والسويسي
والريفي وغيرهم .. ولكنني اليوم أسرح بهاتين البقرتين العجفاوين لأحرث المارس
الذي خصصه لي شيخ الحاره وحيداً مثل مسمار أقطم .
قال سالم وهو يرتجف من البرد .. ويحكم لف الدفية على جسده الفارع :
- ها أنت تشكو من زوجتك وقد قتلت نفسك لتحظى بها .
- الشبعان الحبنبطي بفت للجعان فت بطي .. حلال عليك أن تتزوج ثلاثة وتبحث عن
الرابعة .. وحرام علي أن أفكر في الزواج مجرد تفكير .
- أنا تزوجت الأولى إرضاء للمرحوم والدي .. ولم أكن أحبها كما تعلم .. وتزوجت
الثانية عن حب .. أما الثالثة فهي قريبة لي أردت أن أسترها .
قال شهوان :
- وهي أصغر منك بعشرين سنة سترتها وسترت عشرين دونماً من التين والعنب ورثتها
عن أبيها .. أما شقيقها الطفل وشريكها في الميراث فقد أخرجته صفر اليدين وكنت
تريد أن تختم لشيبتك بحسن الختام .. فخطبت فاطمة .. ولكن يونس لم يمهلك .
قالها وهو يراقب سالم بطرف عينه .. فقد أدرك أنه ذهب ابعد مما يجب .. وأن
لحظة انفجار سالم صارت وشيكة للغاية .. ولكن سالم اكتفى بأن يشخر ويبرطم وهو
يبتعد عنه :
- وغد وطيل اللسان .. والا فكيف صار شاعراً ؟

عند الموارس كان بعض أهل الحارة قد وصل قبلهم وبدأ العمل .. أخذت المحاريث تشق خطوطها الطويلة في الأرض .. تقلب التربة على الجانبيين وتلقيها عارية تحت الشموس في انتظار الخصب القادم .

تأمل شهوان الأرض المستكينة لعربدة المحاريث .. اشتم تلك الرائحة المميزة .. رائحة طلع النخلة حين يتشقق عن بذور اللقاح .. خيل إليه أن الأرض امرأة استسلمت لفعل الحب .. أطلق صيحة فرح مجنونة وركض .. ركض حتى حافة الأرض المحروثة .. انبطح فوقها فارداً ذراعيه كأنه يعانق امرأة حقيقية من لحم ودم .

وقف سالم يتأمله :

- لقد تيقنت دائماً أن ما ينقصك هو الجنون .. ها هو النقص يكتمل الآن وعلى رأي المثل (ولد ما هو من ظهرك .. كل ما انجن أفرح لو) .

ساق سالم حميره وابتعد .. بينما أنزل شهوان الحمل عن بقرتيه .. شد المحراث بينهما .. ابتدأ حرائة أرضه في خط طويل سار بمحاذاة المسرب الذي مضى فيه سالم ورهطه .. ثم ما لبث أن أطلق عقيرته بالغناء :

ولك حراث البقر ما أطـــول معانيك

قطعت قلوب البقر من طولة معانيك

نام القمح في الطين وما نامت معانيك

كلامك صار من سبل وعيدان

حني وجودي عالغريب يا بلادنا

عاتبني يا مرج ابن عامر عاتبني

صلايب فيك من قمحي وتبني

أنا روحي فداك وروح ابني

وعلى الدشمان مردود النقا

زهر القرنفل يا ربيع بلادنا

كان شهوان ينتهي من مواله فيرد عليه الشباب من الموارس المجاورة .. كأنهم في أحد أعراس الحارة .. مر به السويسي .. وسمع الحراثين يرددون لازمة الميجانا وراء كل مقطع .. فسأله ضاحكاً :

- عرس من هذا يا شهوان ؟

- عرس الأرض يا عماه .. ألا ترى كيف نفتض بكارتها بكل هذه المحاريث؟
تخلفت مريم في الحارة مع باقي النساء لإنجاز طعام الغذاء وحمله إلى الموارس قبل أن ينتصف النهار .
حملت العجين ومضت الى الفرن .. كان صوت سكينة يلعلع في الفضاء .. الحارة خالية من الرجال .. وليس لها أن تتحشم أو تهمس بالحديث على عادتها .
- لو أعرف مين أخذت إبريق الميه من الفرن لأدسوا في .... والله عال .. هيه تفتح رجليها طول الليل .. وأنا أسخن لها الميه .
قالت سرية .. صغرى زوجات البطش الاربعة لجارتها بنورة :
- لقد بيتت سكينة ابريق الماء في الفرن لكي تجده ساخناً في الصباح .. ولكن إحداهن سبقتها إلى الفرن وسرقت الماء الدافئ .. هكذا لم يجد الفار بدا من أن يغتسل بالماء البارد .. حتى لا تفوته صلاة الصبح في المسجد كباقي رجال الحارة .. وأنت تعرفين عوده الرقيق الذي لا يحتمل نسمة الهواء .
ضحكت بنورة وقالت :
- أما أنا فأشترط على زوجي أن يتطهر من بركة الجماقية وهو في طريقه إلى المارس .. ولا يكلفني عناء إحضار الماء الساخن .
تنهدت زوجة البطش :
- أنت صغيرة ووحيدة ومدللـــه .. أما أنا فإن امتنعت عن تحضير الماء لزوجي فإن نساءه الأخريات سوف يحضرن له لبن العصفور ليغتسل فيه .. مقابل أن ينام معهن .. فهل أضيع ليلتي يا بنورة ؟
اقتربت منهما سكينة وسالت :
- ليلة من كانت هذه الليلة في دار البطش ؟
أجابت سرية :
- ليلة أم عواد .. وما أظنها تسرق الماء .
قالت سكينة :
- ما أظن البطش يحتاج إلى الماء بعد ليلة مع هذه الشمطاء .. لا أظنه ينام في غرفتها إلا إكراماً لأولادها العشرة .. بالمناسبة كم محراثاً غادر داركم اليوم يا سرية ؟
- عشرون محراثاً .

لقد غلبكم السويسي .. أحصيت ثلاثين محراثاً يغادرون بيته هذا الصباح .. زوجات -
السويسي وكناينه .. يخبزون مائة رغيف كل يوم على مدار السنة ومع ذلك فإن تأخر
. بعضهم عن موعد الطعام يظل جائعاً لليوم التالي

تابعت سكينة وهي تصلي على النبي خوف الحسد .. زوجة السويسي الأولى خلفت إثني
عشر ولداً وبنتاً .. والثانية خلفت تسعة .. أما الثالثة فقد خلفت ثلاثة أولاد وبنتين ..
الرابعة تزوجها وهو في الستين وخلف منها ثلاثة ويقال أنها حامل .. لقد زوج أربعة
. من أحفاده في العام الماضي .. وهذا العام بعد الحصيدة سيزوج ثلاثة آخرين

: دخلت أم عواد فبادرتها سكينة بالسؤال

إيش وعدس طبختي يا أم عواد ؟ -

بامية وعدس .. وإنتي إيش طبختي للفار ؟ -

. برغل وعدس -

: قالت بنوره

دار السويسي طبخوا خمسة قدور سلق وعدس .. بدي أشحت منهم كشكولة خليهم -
. يفقروا

.. حملت الخبز ومضت

: علقت سكينة

بدك من دار السويسي كشكولة سلق وعدس ؟ قال المثل عند الغولة وليمة بس تكفيها -
. وتكفي أولادها

: التفتت اليها بنورة

إنت نقطينا بسكوتك .. على رأي المثل (لو سلم أبو الحصيني من العيوانية لشرب -
. (من الجماقية

***

وصل الجزار إلى مدينة رسول الله .. اغدق على الناس ولم يرد أحداً وقف أمامه .. غنياً أو فقيراً .. إلا بملء جيوبه ..بينما اشاع رجاله في الحج أنه المهدي المنتظر الذي يظهر بمكه .. ومن جملة من أعطاهم شيخ الحرم وصاحب الروضة المشرفة .. كبير عبيد الدار أعطاه مائة ألف محبوب وقال له :

- إذا كان يوم عرفه فاخطب الناس في الحرم داعياً إلى مبايعتي .. فأنا المهدي .

قال له شيخ الحرم :

- لقد زعم كثير من الملوك الماضين أنه المهدي ولم تصح دعوى أحد منهم .. وفي الحديث الشريف (لا مهدي إلا عيسى ابن مريم) .

استشاط الجزار غضباً وقال له : إن لم تفعل ما أمرتك به فسيكون لي ولك شأن .

مضى إلى مكة المكرمة .. فعل بها ما فعله بالمدينة من الإغداق على الناس غنيهم وفقيرهم حتى قالوا (هذا عطاء من لا يخشى الفقر) وأن جوده ليس من جود أهل زمانه .. حفل الناس بالذهب والفضة ولم يحفلوا بدعواه .. أما الذين بايعوه فهم من الدهماء الذين لا خطر لهم .. العلماء وعلية القوم تحاشوه خوفاً على دينهم وأعناقهم .. رجع مغضباً إلى المدينة .. استدعى شيخ الحرم .. قال له :

- لما لم تنفذ ما طلبته منك ؟!

أجاب شيخ الحرم :

- لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .. هذه المائة ألف محبوب التي أعطيتها لي كما هي .

وضع الصرة أمام الجزار

- ماذا قلت للشيخ الزياني المغربي حين سألك إن كان الجزار هو المهدي المنتظر ؟

- هذا رجل من أمة محمد سألني النصيحة .. وما كنت لأكتم مسلماً النصيحة .. وقد قال الرسول صلوات الله عليه (الدين النصيحة .. ومن غشنا فليس منا) .

- إذا فأنت لا تكتفي بعدم مبايعتي .. ولكنك تنفر الناس عني وتسفه دعواي ؟

- أنا أقول الحق ولا أخشى فيه لومة لائم .

فقد الجزار رشده ونادى على حراسه البشناق :

اضربوا عنق هذا الرجل على باب الحرم ليكون عبرة لغيره .. ثم التفت إلى قاضي -
: غزة

. سوف أتبعه برجل قبلت فيه شفاعتك يا قاضي النحس -

. نشدتك الله ألا تفعل .. نشدتك الله ألا تفعل -

. سبق السيف العزل

في تلك الليلة لم يستطع القاضي معروف النوم .. تذكر نصيحة تاج الدين (من أعان ظالماً سلطه الله عليه) أيقن أن من يقتل امام الحرم قد يقتله في أية لحظة دون أدنى شفقة أو رحمة .. والجزار بدأ يقلب له ظهر المجن .. ربما كانت المسألة مسألة وقت فقط .. صارت الوساوس تنخر صدر القاضي معروف .. لم يغمض له جفن ..
. رغم أنه وضع تحت وسادته حجاب حصن الحصين من كتاب رب العالمين

قبل أن ينبلج الفجر سمع طرقاً على الباب .. حسب أن منيته قد حانت .. أراد
: النهوض .. خانته ركبتاه .. زحف إلى الباب وفتحه .. دخل حرس الوالي

. سيدنا يريدك الساعة -

أعانه الحراس على النهوض .. قادوه إلى حيث يجلس الوالي .. لما انصرفوا ..
: قال له الجزار

يا معروف عاودتني الليلة تلك الرؤيا المشئومة .. رأيتني أقطع لحماً من جسدي - وأطرحه للكلاب حتى تعافه .. جلست محاولاً أن أطرد النوم عن عيني .. ولكنني
. أغفيت ثانية .. فرأيتني أقطع لحماً من جسدي وأشويه في النار حتى يتفحم

ما الذي تراه أيها القاضي ؟ -

تمالك معروف روعه .. إذا فالوالي لم يستدعه للقتل ولكن للمشورة .. دبت فيه شجاعة لم يعهدها في نفسه وهو يرى الطاغية يتمزق من الداخل وينهار أمامه بكل
. جبروته وقسوته

لماذا تسرعت بقتل شيخ الحرم ؟ والله وددت أنك لم تفعل.. أفي الشهر الحرام ؟ وفي - البلد الحرام ؟ تريق دماً حراماً .. ثم تسألني ماذا ترى ؟ أرى أن تعفيني من القضاء ومن صحبتك .. وأن تدعني أجاور رسول الله صلعم ما بقي من عمري .. لعلني أكفر
. عن ما سلف مني

. بكى معروف حتى رق له الوالي .. أمره بالإنصراف من حضرته

: أشار الجزار لبني جلدته البوشناق

. لا أريد أن أنام .. عليكم بإيقاظي كلما غفوت -
. ظل على هذه الحالة لا يذوق النوم إلا لماماً حتى وصل عكا

***

استمر المطر لليوم الرابع .. بدأت بركة قمر ترشح المياه باتجاه الحارة .. أحس أهل الحارة بالخطر القادم .. بدأوا بتحصين مداخل بيوتهم حتى لا يقتحمها السيل .. : بعضهم بنى مدماكاً في باب داره وبعضهم بنى مدماكين .. قال شهوان لزوجته
لن ينفعنا بناء الباب ولو بنيناه كله فبيتنا أوطأ بيوت الحارة .. خير لنا أن نرحل إلى - بيت الزهار قبل أن تغمرنا المياه .. لقد دعانا الزهار للإقامة عنده حتى يتوقف المطر .. انهمك شهوان في إفراغ الحرادس من بقايا الغلة في أكياس صغيرة .. جمعها في شوال وضعه على ظهر الحمار .. ثم رفع الفراش عليه وحزمه بالحبل .. وقال :لزوجته
. اجمعي ثيابك وهاتي عطية والحقي بي -
: أجابت بسخرية
. قالوا للعنز ارحلي .. قالت توب عليه وتوب على الوتد -
غاصت سيقان الحمار في الوحل إلى الركبة قبل أن تصل إلى بيت الزهار ..
أفرغ شهوان الحمولة وربط الحمار في البايكة وعاد لاصطحاب زوجته التي تأخرت عن اللحاق به .. وجدها مستندة على الباب وقد أخذتها نوبة من القيئ .. هرع إليها .. احتضنها وأجلسها على حافة اليوك .. ما بك .. هل أصابك البرد ؟
بل هو ضيف جديد يا شهوان .. أخا لعطية وربما أختا .. ماذا تريد هذه المرة ؟ -
. بل اريده أخاً لكي يصبح في بيت شهوان ثلاثة حصادين -
ضمها إلى صدره وضحكا من القلب .. ها هي مريم التي أحبها تظهر أخيراً عطوفة رقيقة ممتلئة حباً .. لا شراسة ولا عناداً ولا لوماً تقريعاً .. ود لو أن اللحظة تطول بهما إلى الأبد .. ولكن مريم نهضت تحمل عطيه من فراشه وتحكم لف الغطاء .. عليه .. لشدما كبر هذا الطفل ذو العامين .. حتى إنها لتعجز عن حمله
حمل شهوان صرة الثياب وتقدمها إلى الزقاق .. كانت المياه قد ارتفعت في الزقاق منحدرة منه إلى سواقي الحارة كأنها نهر صغير .. سارا بموازاة الجدران .. في

منتصف الطريق أبصرا كبير البطوش يجاذب الشيخ محمود أطراف الحديث .. والشيخ
: منهمك في بناء المدماك الرابع في باب دارهم .. قال له كبير البطوش
يكفيك ما بنيت .. هل تريد إغلاق الباب كله يا شيخ محمود ؟ لقد صار باب دارك -
مثل سد مأرب؟
: قال الشيخ محمود
يا للفأل السئ .. ألا تعلم بأن سد مأرب أكلته الفئران ولم يصمد أمام سيل العرم ؟ -
لم يكمل حديثه حتى كان السيل يعلو مقبلاً من جهة بركة قمر ويجتاح ما بناه ..
انهار الجدار وتدفق السيل إلى داخل البيت .. حاول الشيخ محمود التقهقر فانزلقت قدمه
وغاص في الماء .. صرخت مريم : أبي .. ناولت عطيه لكبير البطوش وانطلقت نحوه
.. رمى شهوان صرة الثياب وغاص باتجاه عمه .. أخرجه من الماء وأخذ يمسح وجهه
. بطرف كوفيته
. لا بأس عليك يا عماه .. لا بأس عليك -
. احتضنته مريم وهي تولول
فتح عينيه فأبصر مريم وشهوان يحيطان به .. أسلمه شهوان لمريم وانطلق يعدو خلف
. صرة الثياب التي سحبها السيل
استمر المطر طوال الليل وحينما طلع النهار امتلأت قلوب أهل الحارة
بالرعب .. كانت السواقي المحيطة بالحارة قد اتصل بعضها ببعض بعد أن غمرتها
. المياه وأزالت كل معالمها
: قال الشيخ محمود وهو يسرح البصر على امتداد الأفق
ما هذا البحر العجاج المتلاطم الأمواج ؟ -
: أجابه الريفي
لن يطول الحال حتى تهبط بيوتنا الواحد تلو الآخر .. فقد جرف السيل أساساتها .. -
وما أظن أن جدرانها الطينية تحتمل المزيد .. لم يكمل حتى أقبل طبوع أبو الرواكي
. وقد تقطع نفسه من العدو
أين دارنا يا شيخ محمود ؟ قضيت الليل في الساقية وحين رجعت لم أجدها .. إذا فقد -
. جرف السيل أول بيت في الحارة ..حاولا مواساته ولكنه أجهش بالبكاء

بدأ أهل الحارة يحملون متاعهم وينتقلون الى البيوت المرتفعة .. قبل أن تهبط السقوف على رؤوسهم .. فتحت خضرة أبواب بيت العامري عسى أن يلجأ إليها أحد .. . أشارت لهم بكلتا يديها

. تفضلوا -

أشاحوا بوجوههم ومضوا في طريقهم .. لم تيأس .. تركت الأبواب مشرعة لعل أحداً يفكر في اللجوء إليها .. بلغ ذلك مسامع نظمي افندي .. ورغم أن بيته لم يتضرر . بشئ .. إلا أنه حمل صرة ثياب وهرع إلى بيت العامري

. اقتحم الباب .. القى صرة الثياب على الأرض

. النبي وصى على سابع جار -

. نظر إليها ملياً.. كانت عيناها تلمع بنظرة جمدت الدم في عروقه

. لكنك دعوت الناس للإقامة عندك -

. دعوت الناس وليس الكلاب من أمثالك -

: اختطفت سكين المطبخ وأشارت إلى الباب

. أخرج -

اتجه إلى الباب وهو يتميز غيظاً .. نسي صرة الثياب .. تناولتها خضرة .. . وقذفت بها على طول يدها فسقطت في الوحل

. طريق الوداود .. يودي ما يعاود -

في اليوم السادس أطاح السيل بعشرة بيوت دفعة واحدة .. كان بينها بيت شهوان وبيت الشيخ محمود .. أخيراً استقر رأي أهل الحارة على التشفع بالشيخ حيار ولي الحارة لكي يطلب لهم من الله وقف المطر .. خاضوا في الماء إلى صدورهم ليصلوا إلى مقام الشيخ حيار .. لكنهم لم يجدوا له أي أثر .. كان الماء قد جرف المقام والقبر . معاً

وغير بعيد أبصروا الباب الخشبي المزخرف الذي كان يزين المقام .. يطفو على وجه . الماء

: قال الشيخ محمود وهو يثبت العمامة على رأسه

. تالله لقد اتخذ طريقه في البحر سرباً -

وصل حبوش متأخراً يسحبه طبوع أبو الرواكي .. ما أن أشرفا على المكان

: حتى صرخ حبوش بعالي صوته

. سرك الباتع يا شيخ حيار -

: التفتوا إليه وهم يهزون رؤسهم اشفاقاً .. تولى شهوان الإجابة

الشيخ حيار لم يعد هنا يا حبوش .. لقد رحل هو وأولياء الحارة جميعاً .. كانت -
قبورهم تمخر مياه السيل كالمراكب في طريقها إلى البحر .. أغلب الظن أنها ستواصل
. إبحارها إلى الحجاز بقصد الحج والعمرة

: انهالوا عليه باللوم والتقريع .. قال شيخ الحارة

!أتهزأ بأولياء الله في يوم كهذا يا شهوان ؟ -

: انبرى له حبوش وقد وجدها فرصة لكي يسلقه بلسانه الحاد

. إن الرقعاء من أمثالك هم الذين يستنزلون البلاء على أقوامهم -

: قال الشيخ محمود وهو يخاطبه لأول مرة منذ تزوج مريم

. استغفر الله يا شهوان -

: استغفر شهوان كما أمره عمه .. ولكن حبوش تابع هجومه

لقد استحق أهل الحارة غضب الله .. كما استحقه قوم نوح ولوط وعاد وثمود .. -
الفسق والزنى وشرب الخمر وأكل مال اليتيم .. ماذا بقي من المحرمات لم تدخلوه إلى
هذه الحارة ؟

: قال شهوان لسالم

. أنا المعني بالأولى .. وأنت المعني بالأخيرة -

: غلى الدم في عروق سالم فهجم على حبوش

. يا أعمى الكلب -

: أمسك به نظمي أفندي

لقد عرض بي أنا أيضاً .. ودائماً يردد أن بيتي هو خمارة الحارة .. وأن باب -
. الكلاغاصي من أبواب النار .. ولكن لا بأس هذه المرة مادام قد أصاب خضرة

: ترك طبوع يد حبوش واتجه إلى نظمي أفندي

إنت بتشتغل في الدبوية وبتعرف كل شي .. شفت دارنا .. وين دارنا يا نظمي -
أفندي ؟

: أشاح عنه نظمي أفندي

. خلي حبوش يشوفها -

. انصرف نظمي افندي إلى سبيله .. قال الشيخ محمود وهو يتأمل السماء

- يا ألطاف الله .. أنظروا هناك .

نظروا إلى حيث أشار .. كان خيط من شعاع الشمس قد لاح في الأفق المكفهر .. خلال فرجة بين الغيوم أخذت تتسع شيئاً فشيئاً .

- سوف تصحو إذا ؟

ردد الشيخ محمود قوله تعالى :

- (قلنا يا سماء اقلعي ويا أرض ابلعي ماءك وغيض الماء) .

***

عاد محمل الحج منذ أشهر طويلة .. استقر الجزار في قلعة عكا ولم يعد القاضي معروف .. ظن الناس به الظنون .. فمن قائل أن الوالي عينه قاضياً للقضاة في بر الشام .. وأنه اتخذ مركزاً له في دمشق .. ومن قائل بأن الوالي انتدبه لكي يدعو له في بلاد المغرب .. أما قالة السو فقد أذاعوا في الناس أن الوالي غضب على الشيخ معروف وألحقه بمن سبقه من الدارجين .

أخيرا سرى خبر عودته .. هرع الناس للتسليم عليه وتهنئته بالحج المبرور والسعي المشكور .. يونس وشيخ التفاح أبطأ في السلام عليه حتى ينفض من حوله من المنافقين .. إلا أنهم فوجئوا عند وصولهم .. بتيمور الضرغام يتصدر مجلس القاضي .. ولا يدع فرصة تفوته في تمجيد سيده الجزار والإشادة به .. لعل القاضي حين يلاقي الجزار يذكره عنده بخير .

قال يونس لشيخ التفاح :

- انتظر حتى ينصرف كلب الجزار هذا .. فنخلوا إلى معروف ونسمع منه أخبار رحلته على حقيقتها .. فإني أراه مربد الوجه مقبوض السحنة .

عندما انصرف تيمور ومن معه .. أشار القاضي ليونس وشيخ التفاح بالإقتراب منه .. هش لهما وبش .. قال ليونس :

- أشكرك على هديتك .. حقاً إن خرفان وادي الزيت سمينة دهينة وقد اشتقنا لطعامتها ودسامتها .

: نظر إلى شيخ التفاح وتابع
. لقد أرسل لي صهرك خمسة خرفان كأنها النوق الشمالية يا أبا مبارك -
: أجاب شيخ التفاح
. هنيئاً مريئاً إن شاء الله -
دارت فناجين القهوة المرة المعطرة بحب الهال دورة جديدة قبل أن يتكئ
: القاضي وتحل عقدة لسانه
ليتني سمعت نصيحة تاج الدين .. والله لقد أخلص الرجل النصيحة .. كانت هذه أول -
.. مرة يسمع فيها يونس عن تاج الدين .. وحين أكمل القاضي رواية قصته
: قال يونس
إذن في وسط هذا الظلام الدامس كان هناك بصيص من النور .. لقد صدق والله -
. (رسول الله حين قال (الخير في وفي أمتي إلى يوم القيامة
: سأل شيخ التفاح
وماذا عن تلك الرؤيا المشئومة التي تراود الوالي يا شيخ معروف ؟ -
. لقد وجد الوالي تفسيراً لرؤياه عندما وصل عكا -
ران الصمت برهة .. حدق فيه يونس وشيخ التفاح يستطلعان جلية الخبر ..
: تلفت القاضي يمنة ويسرة كأنما يطمئن لخلو المكان .. ثم قال
كان الجزار قبل نهوضه بمحمل الحج إلى مكة .. قد خلف وراءه قواد جنده -
ومماليكه .. وأخصهم سليم باشا الذي عينه الباشا نائباً عنه في شئون الولاية وحارساً
. على حريمه
قام سليم باشا بالعمل خير قيام .. ولكنه أكثر من التردد على مسكن الجزار .. وسمح
لرجاله بمشارفة الحريم والمخالطة معهن .. أكثرت الأهالي من الطعن على حريم
. الجزار
عاد الوالي .. لحظ أموراً غريبة تجري في حريمه .. ظل يراقب ما يجري خفية حتى
رأى وسمع ما تقشعر له الأبدان .. كان يريد أن يتثبت من خيانة جلبهار .. أغلى نسائه
. على قلبه ومن شغفته حباً بلغ به حد المذلة .. قبل أن يبدأ انتقامه
لم يطل انتظاره .. رتب له كبير الخصيان مجلساً يرى فيه بعينه ويسمع بأذنه .. رآها
وسمعها وهي تركع على ركبتيها أما مملوك شركسي أشقر في ريعان الصبا خاضعة
: متذللة .. والمملوك يتهرب منها ويقول

- ما فعلناه في غيبة الجزار .. لا يجوز أن نفعله في حضوره .. فلسنا نأمن شره وشر عيونه .

قال الجزار :

- إذا فقد كنت أقطع لحماً من جسدي والقيه للكلاب حتى تعافه .. هذه نصف الرؤيا .. إلي بالنصف الآخر .

كان عليه أن يتخلص من مماليكه وقادتهم قبل أن يبدأ بتنفيذ ما عزم عليه ..

جهز حملة للعسكر على جبل لبنان بحجة تأديب العصاة .. وما أن غادروا القلعة حتى أمر خصيانه بإيقاد نار كبيرة في باحة القصر .. وطلب إليه الحريم واحدة واحدة مبتدئاً بأحبهن إلى قلبه .. يقبض على عنق كل واحدة ويطرحها في النار على وجهها ويدوس على رأسها وظهرها بقدميه حتى تلفظ الروح .. ثم يطلب غيرها إلى أن قتل سبعة وثلاثين امرأة وهو يصرخ كالمجنون :

- هكذا اقطع لحماً من جسدي واشويه في النار حتى يتفحم .

لم تنج إلا طفلة في الثامنة من عمرها .

ثم تفرغ للتنكيل بقادة الجند والمماليك فقرضهم عن آخرهم .. وإنه ليلغ في الدم فلا يزداد الا عطشاً كأنه الكلب المسعور .

قال يونس :

- هل زرت تاج الدين بعد عودتك ؟

- ورويت له كل شئ .. فما زاد عن قوله :

- إذا فقد فشل الجزار في إشعال نار الفتنة بدعواه الآثمة تلك .. ثم ردد قوله تعالى (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً .. وكفى الله المؤمنين القتال .. وكان الله قوياً عزيزاً) .

رددا بصوت واحد :

- صدق الله العظيم .

ثم استأذنا في الإنصراف .

قال يونس لشيخ التفاح :

- عجل بنا إلى بيت درويش باشا .

كان درويش باشا قد حظي بسارة بعد طول دلال وتمنع .. فاجأته زيارتها وما ابدته من لين ورقة في معاملته .. حتى حسب أنه شغفها حباً .. وما كان ليقابلهما لو لا

يقينه من أن في الأمر رشوة .. ولولا أن حبه لساره لا يعدله إلا حبه للمال .. خرج لهما حاسر الرأس متلفعاً بعباءة يستر بها عرية .

- خير إيش في ما في شيخ يونس ؟

ناوله يونس صرة النقود وقال له :

- إذا سمعت غداً صراخ آمر السجن وأنت في نافذة الدبوية .. فاعمل لك أذنا من طين وأذنا من عجين .. نريد أن نفك سجيناً لنا ..

قال درويش باشا وهو يتناول صرة النقود :

- اطمئن يا شيخ يونس .. غداً لن يكون لي أذنان على الإطلاق .

حينما عاد سألته ساره وهي تتشاغل بفك ضفائرها :

- ماذا يريدان ؟

قال وهو يخفي صرة النقود في صندوق مطعم بالجوهر :

- يريدان اطلاق سجين لهما .

- لعله مجرم شرير من قطاع الطرق الذين انتشروا هذه الأيام .

- لا أعرفه .. ولم أسأل عن اسمه .. ليكن من يكون ما علينا .

فخار يكسر بعضو ..

فكرت سارة هل تكتب هذا الخبر إلى شقيقها داوود ؟ .. لقد طلب منها أن تكتب له كل شاردة وواردة .. من أخبار الوالي والمتصرف والدولة ورعاياها .. أصدقاءه الفرنسيين يريدون معرفة كل ما يدور في البلاد .. إنهم يجزلون له المكافأة عن كل خبر ينال اهتمامهم .

***

- 11-

أي فجر هذا الذي طلع على آمر السجن ؟ دهمته خيل يونس حتى أنهم ساقوه قبل أن يحتاز ثيابه .. وقف عارياً أمام يونس يستر عريه بكلتا يديه .. ناوله أحد العبيد خرقة لف بها وسطه .. قال شيخ التفاح :

- خذنا إلى الشيخ الذي عندك والويل لك أن كنت مست شعره من رأسه .

أجهش آمر السجن :

- هذا رجل مبارك .. إنني أتقرب بطاعته إلى الله .. كيف دار بخلدكم شئ كهذا ..
- دونكم الشيخ فاسألوه .. وحياة ديني أنا ماشي معاه سربست .. أطل رجل مقيد بالأغلال في يديه وقدميه وقد تهدل شعره الأبيض مختلطاً بلحيته .

- أطلقوني أولاً ثم افعلوا بهؤلاء الحراس ما يحلو لكم .

حين تجاوزوه ضرب كفاً بكف :

- إللي ما بعرف الصقر بشويه .

لم يلتفتوا إليه .. ساروا خلف آمر السجن حتى وصلوا غرفة معزولة في آخر الرواق .

كان العارف بالله تاج الدين الخروبي .. يؤم ثلاثة من السجناء في صلاة الفجر .. جاء صوت تاج الدين متهدجاً حنوناً كأنه نسمات الصباح المنعشة في ليلة صيف قائظ:

- أولى لك فأولى .. ثم أولى لك فأولى .. أيحسب الإنسان أن يترك سدى .. الم يك) نطفة من منى يمنى .. ثم كان علقة فخلق فسوى .. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى .. أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى (.

أحسا بفيض من الأمل يغمرهما .. وحين سلم الشيخ هرعا لتقبيل يديه .

سحبها وهو يردد :

- أستغفر الله .. أستغفر الله .. من أنتم ؟

- أنا يونس من عرب السبعة .. صاحب وادي الزيت على مشارف غزة .. وهذا عمي الشيخ رمضان شيخ حارة التفاح وولده مبارك .. وهذا أخي جوهر .. إن رجالي على خيلهم يحاصرون المكان .. فإن شئت أن تصحبنا أنت ومن تختاره فهذا شرف عظيم لنا .. وسوف نمنعك بسيوفنا أن يصيبك مكروه حتى نموت عن آخرنا .

ضحك تاج الدين وقال ليونس :

- أنت إذا من نجد .. من ديار الشيخ الجليل محمد بن عبد الوهاب .. مصلح الملة ومجدد العقيدة .. رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام خيراً .. لعلك أدركته يا بني .

- بل تلقيت العلم على أحد تلاميذه .

ران السكوت برهة إلا من صوت حبات المسبحة وهي تتراكض بين أصابع تاج الدين .. تابع يونس :

. سنوفر لك مكاناً ترتاح فيه .. وتأمن شر الجزار وبطانته -
: قال تاج الدين
. لا راحة لمؤمن حتى يلاقي وجه ربه -
. إنك أعلم أهل زمانك .. ولا نريد أن نخسرك -
ما نفع العلم إذا لم يلهمنا سلوك الرشاد .. أو لم يقل الحق .. (يا أيها الإنسان إنك - كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه) .. أم أنكم تستكثرون علي أن ألاقي ربي راضياً مرضياً؟ لقد سجنت وعذبت .. ولكننا بتنا نخشى عليك ما هو أسوأ من ذلك .. قد يعمد الجزار إلى . قتلك
. والله أن التي تخوفونني منها للتي عشت في طلبها .. الشهادة في سبيل الله -
: أراد أن يهون الأمر عليهم فتابع
لا ضير علي هنا .. إن كتبي عندي . وأنا منصرف إلى القراءة والكتابة بما يسعفني به - النظر الكليل .. وحينما أفرغ من العمل .. أنصرف إلى هؤلاء الأشقياء (واشار إلى . المساجين) .. عسى الله أن يصلح بي قلب عبد من عباده فأنقذه من الهلاك
واحد أو اثنان تنصرف لهما .. وتترك الأمة في هذا الكرب ؟ إن أحياء الناس واحداً واحداً - قمين أن يستهلك أعمارنا وأضعف أضعافها .. لماذا لا تخرج معنا لإحياء الناس دفعة واحدة ؟ ألست من أفتى في عكا بنقض الطاعة .. والخروج على سلطان الحكام الظلمة .. مستشهداً بالحديث الشريف (من قبل الظلم شارك ظالمه في الإثم) ؟ أم أنك في عكا غيرك فـــي غــزة .. لعل معروف بالغ في نقل خبرك إينا ؟؟
. لقد أخذتك حدة أهل نجد .. لكن لا بأس ما دامت حدة في الحق -
لعلني استعجلت الصدام مع الطغاة قبل أن تنضج دعوتي في صدور الناس .. وها أنت ترى النتيجة .. لقد جنيت ثماراً فجة .. الأمة يا بني غارقة في الجهل .. والجاهل عدو نفسه .. إن علينا أن نلقي البذور في الأرض .. وأن نتعهدها بالرعاية حتى تنمو وتعطي .أكلها
تنبت كل حبة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة .. وإذا عم الوعي واستيقظت هذه الأمة بعد .. جيل أو جيلين أو ثلاثة .. نكون قد بلغنا الرسالة وأدينا الأمانة
جيلان أو ثلاثة .. ثم يؤجلها كل جيل إلى الجيل الذي يليه .. أية أمة هذه التي تمهل وتهمل؟ - لمن خلقت هذه السيوف إن لم تكن لرقاب الظلمة ؟ أو لم يقل رسول الله (من رأى منكم . منكراً فليغيره بيده) .. ولن أعدو إلى بقية الحديث ما دامت يدي قادرة على حمل سيفي

- يا بني .. الظلم قديم ومتواصل وراسخ .. وقد صار له عبر مئات السنين دولة وملكا عضودا .. وأنت تريد أن تغير كل ذلك بضربة سيف ؟ معركتنا مع الظلم يا بني تبدأ هنا في صدورنا .. والله إننا لنتظالم فيما بيننا .. في البيت والسوق والبيدر.. بأضعاف ما يظلمنا هؤلاء الحكام .. أكنت تعتقد يا بني أننا الآن نستحق ولاة غير هؤلاء .. وفي الحديث الشريف (مثلما تكونوا يولى عليكم) .. ان شق عصا الطاعة على وال .. أو قتله .. أو قتل عدد من الولاة .. أو قتلهم جميعاً .. لن يغير من الأمر شيئاً .. سوف يجيئ من هو ألعن منهم .. إن علينا أن نتغير نحن أولاً .. ولن يتم لنا ذلك فجأة .. ولن يتم بسيفك أو سيوف ألف من الرجال الصناديد .

- والله إنني لا أدري ما الذي يخيفك من عدوك .. أهو هؤلاء العيوانية والاسبهلية .. أم جنود القبيقول الذين قتلتهم شهوات الخمر والنساء ؟

- يا ولدي : إن أهون دعائم الظلم ما ترى من خيله ورجله .. أما أشد دعائمه وأكثرها رسوخاً فهو ما ران على قلوبنا من الخور والضعف .. وما استمرأناه من المرتع الوخيم .

- ولكن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .. ولو ولينا أمورنا خيارنا .. لحملوا الناس على الحق طوعاً أو كرهاً .

- حتى لو ولينا خيارنا .. وكشــفنا هؤلاء الطغاة عن ديارنا وكافة ديار الإسلام .. فان التغيير يتطلب وقتاً طويلاً وطويلاً جداً .. ربما اقل من الوقت الذي نحتاجه .. لو بقي هؤلاء الحكام الظلمة في أماكنهم .. ولكن الثمن الذي سندفعه سيكون فادحاً .. ولا يتناسب مع الوقت الذي وفرناه .

لقد غير عمر بن عبد العزيز كل الولاة الظلمة الذين عينهم طغاة بني أمية قبله .. وبدأ بإصلاح نفسه وإصلاح بطانته .. ولكن إصلاح الأمة لم يتم له حتى وافاه الأجل .

قال مره لولده عبد الملك حينما سأله :

- أجاب عمر مالك لا تنفذ الأمور؟ .. فوالله ما ابالي لو أن القدور غلت بي وبك في الحق.. :

- لا تعجل يا بني .. فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين .. وحرمها في الثالثة .. وإني أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة .. فيدعوه جملة .. وتكون من ذلك فتنة .

- إذا فأنت مصر على البقاء حيث وضعك الجزار ؟

- إن وجودي هنا يا ولدي شهادة على فساد الزمان وأهله .. عسى أن تلهم هذه الشهادة الناس فيغيروا ما بأنفسهم حتى يغير الله ما بهم .

- أهذا آخر ما تراه ؟

- ارى أن تنصرفوا عني راشدين قبل أن تزهق بسببي روح .. أو تراق قطرة دم .

: قال شيخ التفاح

إذا كنت ترفض الخروج معنا .. فلا أقل من أن تقبل بولدي هذا .. ليقوم على خدمتك .. -
. عسى أن يتعلم منك ويعلمنا

: نظر الشيخ إلى مبارك وسأله

هل تعرف القراءة والكتابة يا بني ؟ -

. وأحفظ القرآن غيباً -

ما شاء الله .. أو تحب البقاء مع شيخ طاعن مثلي ؟ -

. سأكون خادمك وتلميذك يا سيدي .. ولا ارى شرفاً يعدل ذلك -

. بارك الله فيك .. كم أنا محتاج لمن يقرأ لي ويكتب عني .. فللسن أحكامها -

: قال يونس

ليكن مبارك رسولاً بيننا .. وبالله عليك ألا تتردد في طلبنا إن رأيت أننا نستطيع أن نقدم لك -
. شيئاً

ضعف الطالب والمطلوب .. هل لرجل مثلي أن يسأل أحدا والله عليم بالحال .. غني عن -
. السؤال

. إذن في جيرة الله -

ودعه يونس وسار مهموماً .. يتبعه شيخ الحارة وجوهر .. مرا بالسجين المكبل
: بالأغلال فابتدرهم منشداً

كاس الهـــــوى للمذلـــة أتعاتبــــــوا ولا -

أنا ما يوم باب السجن عن جانبـــي ولـــي

أنا ان ما أجاني فرج من عنـــــد خالقي ولا

لاصيح مظلــوم و مالي في المضيقـــة أحد

كليت وأنا أعد اسبوت وأجمل في ليالي أحد

لما العـــــــزم راح وزمــــــان الصبـــا ولى

: توقف يونس وقد هزه الشعر وملك عليه قلبه .. التفت إلى آمر السجن وسأل

من هذا ؟ -

. هذا عاصي الله والسلطان .. صقر حرحش .. قائد الفتنة في نابلس -

: صرخ الرجل

جرعت سيدك العلقم يا ابن الزانية ..فضن علي بالموت .. وأقسم أن أقضي بقية عمري في
حديد السجن .. ثلاثة عشر عاماً لا أسمع غير رنين القيود .. ولا اشم سوى روائح العفن ..

أين أنت يا سهول طبريا .. وشطوط عكا .. وقمم عيبال .. اين أنت يا صهوات الجياد ؟
أهكذا ينتهي الحال بالمقدم صقر ؟
: ثم نظر إلى يونس وتضرع
. أنا في عرضك يا شيخ العرب -
: أشار يونس لآمر السجن
. فك قيوده -
هرع الرجل إلى السجين .. فك قيوده وحاول أن ينتزعها دون فائدة .. كان اللحم قد
.. بني على حديد القيد
: أشار يونس لعبيده
. احملوه بقيوده -
. حملوه ومضوا
. ناول يونس آمر السجن صرتين
. هذه لك .. وهذه لكي تنفق منها على الشيخ .. وتنفذ له كل ما يطلبه -
احفظ عليك مالك يا سيدي .. إن ما رايناه من كرامات الشيخ وهو بيننا .. ليجعلنا رهن -
. إشارته .. والله أن بركته لتغمرنا بالخيرات
: في طريق العودة قال يونس لمن معه
لقد استطاع تاج الدين أن يشفي تركياً من داء الرشوة .. هذه أول كراماته .. وما تلبث باقي -
. الكرامات أن تظهر
: نظر إليه المقدم صقر حرحش مشفقاً من على ظهر جواده -
لا تسخر من الرجل يا سيدي .. لقد حاول آمر السجن صفع تاج الدين يوم وصوله فتجمدت -
ذراعه ..وسرى الجمد في جسده .. قال خذوني إلى الشيخ قبل أن ينحبس صوتي .. أخذوه
. فاستسمح خاطره .. وشفي من ساعته
من يومها وجميع من في السجن يقيمون للشيخ ألف حساب .. ولو طلب أن يطلقوا سراحه
.لفعلوا

قال جوهر :

– ألم تسمع عن شيخك فلاح الرواشدة بالحديث الشريف (رب اشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره) .. وبالحديث الذي يقول : (إن لله عباداً إذا أرادوا أراد) .

– بلى سمعت يا جوهر .. ولكن كراهيتي لما ارتكبه أدعياء الدين .. وما اصطنعوه من الكرامات ليضلوا بها العباد .. جعلتني أضرب الصفح عن ذلك .

✵ ✵ ✵

ضرب الخواجا موسى عدس ضربته .. اتفق مع التجار الآخرين على أن يكون له وحده حق شراء الشعير في غزة وقراها .. على أن يترك لهم الحبوب الأخرى في غزة وباقي الولاية .

كانت لديه معلومات من العدوة الأخرى للبحر .. أن أوروبا ستقبل هذا العـــام علـــى شراء الشعير بكميات هائلة .. فمصانع الجعة في بريطانيا وألمانيا وفرنسا تتزايد .. وأصحابها يستهلكون شعير بر الشام كله .. ويصرخون هل من مزيد .

ورغم أن غزة وقراها تنتج سبعين بالمائة من شعير بلاد الشام .. إلا أنه في السنة الماضـــــية اضطر إلى شراء الشعير من سهول حوران وبعلبك وبلاد بشـــارة والشـــقيف .. فلـــم يكـــن باستطاعته الحصول على كل شـــعير غزة .. بسبب المنافسة الشديدة بين تجار الحبوب .

هذه السنة سوف يأتيه الشعير إلى باب بيته .. دون عناء أو مشقة .. وســـوف يحـــدد سعر الشعير هنا .. وفي العدوة الأخرى من البحر أيضاً .. لماذا إذا لا يتثاقل على الفلاحيـــن حين يأتونه لإقتراض المال .. أو البذار للموسم القادم .. فيأخذ منهم الربا أضعافاً مضاعفة .. أو يشترط عليهم أن يردوا له الصاع ثلاثة بدل صاعين ؟

ما أن هل موسم الحصاد حتى أخرج الخواجا موسى دفاتره وبدأ يجري حســـــاباته .. اطمأن الخواجه إلى أن ثلث شعير غزة سيكون رهن يده.. وأن عليه أن يشتري الباقي بحـــــر ماله من صغار المرابين أو من الفلاحين مباشرة .. وبحسبة أخرى أدرك الخواجة موســـى أن الفلاحين سيعودون للإقتراض منه بعد اربعة أشهر على الأكثر من انتهاء الموســـم .. لكـــي يسدوا رمقهم باقي السنة .. وبذلك يضمن محصول العام القادم .. أما اذا لم يكن الموسم خصباً هذه السنة فإن على الفلاحين أن يركعوا أمامه لكي يصبر عليهم إلى العام القادم .. وأن يعدوه بمضاعفة ديونه عليهم عند تسديدها .

ورغم أن عملاءه من الفلاحين طيبون أمناء .. وقد عاملهم سنين طويلة فما أكلوا عليه قمحاً ولا شعيراً .. إلا أنه وجريا على عادته في الإحتياط للأمور قبل وقوعها .. قرر أن يبدأ الموسم بإهداء هدية لدرويش باشا .. فمن يدري ؟

ربما اضطر للإستعانة به لإنفاذ أحد العقود أو لوضع اليد على محصول أحـــدهم إذا ارتـــاب الخواجه في نواياه .

دعى الخواجه موسى .. العزيزة سارة إلى العشاء في بيته .. ليستشيرها في موضوع الهدية .. اشارت عليه سارة أن يشتري للباشا (الفارعة) .. وهي واحدة من أصائل الخيـــل في عرب الهزيل .. كان لها صيت جاوز غزة وقراها إلى البلاد الأخـــرى .. وقـــد ســـمعت درويش باشا يذكرها ويسعى لإمتلاكها .

وكان بها .. ركب درويش باشا ظهر الفارعة .. وركب الخواجا موسى ظهور حصادي الشعير من رفح إلى نهر جريشه .

(12)

هبت نسمات نيسان حارة لافحة .. فاحمرت خدود الصبايا .. وانتفخت الثمار ولوحت العناقيد .. إنه الحصاد يقترب .. وأهل الحارة يستعدون لموسم الخير الوشيك .. باع شهوان مشخلع زوجته الذهبي واشترى بثمنه حمارين .. فبقرته لا تنفع في نقل المحصول .. قال لزوجته :

– لو كان باب دارنا عالياً لاشتريت جملاً .. ولكن لا بأس بالحمارين هما هزيلان قليلاً الآن لكن هزالهما لن طول كثيراً .. غداً تبدأ الحصيدة ويغبان من الشعير والفول والعدس .. فيصبح الواحد منهما في حجم القنطرة .. ونبيعهما للسقايين بضعف الثمن .. عندها أرد لك المشخلع ومعه إسوارة ذهبية .

أما السويس فقد هدم بوابة داره .. وبنى بوابة كبيره تتسع لدخول الجمل وما حمل .. مر عليه شيخ الحارة فقال مازحاً :

– إللي بعمل جمال بوسع باب دارو.

باقي أهل الحارة انشغلوا بإصلاح قواليشهم وتقطيب شباكهم التي تسمى كل شبكة منها (الكر) والتي تستخدم في نقل السنابل .

حسان السلامين (الفار) قال لزوجته : عليك بإصلاح (الكر) وتقطيب ما تمزق منه .. أما أنا فسأذهب إلى سوق الحدادين .. أشتري قالوشاً جديداً حاد الشفرة يلقمط الحصى .

في طريقه مر على دار البطش .. كان فناء الدار قد تحول إلى ما يشبه سوق الجمعة .. فهم يستعدون للحصيدة بتركيب الحداوي لخيلهم .. وإصلاح رحال جمالهم .. وتنظيف البوايك والحراديس لاستقبال الغلة الجديدة

ألقى عليهم السلام .. فرد عليه الحاج محمد كبير البطوش :

– وعليكم السلام .. قال المثل جابوا الخيل يحدوها مد الفار رجلو .. مد رجلك يا حسان نركب لك حدوة .

رد الفار في سخرية :

– يا ريت تلاقوا حداوي على عددكم .. قبل ما تركبوا حداوي للناس .. قال المثل (ما بتطلع صدقة من دار مستحق) .

هرع حسان إلى سوق المدينة .. عند ساحة الشوا .. قابله مراد البتير صاحب معصرة

الزيتون عائداً من السوق .. كان مهموماً كسير النفس .. وضع يده على كتف الفار وقال له :
- هل يرضيك يا حسان ما يقال في حارتنا من القصائد في الحارات الأخرى ؟
- وماذا يقولون يا أبو أنس ؟
- يتحدثون عن العرض .. ينشرون عرض الحارة .. يوطون راسي وراسـك وروس أهـل الحارة .. كنت اليوم في الشجاعية .. اعترضني بعض شبابها وهم يتغامزون علي .. قالوا :
- من أي حارة أنت ؟
- قلت ألا تطرحون السلام أولا ؟ .. أنا من حارة التفاح .
- من حارة التفاح .
ثم أخذوا يتضاحكون .. وحين هممت بهم قال لي واحد منهم بل قل من حارة التفين .. هذا هو الإسم الجديد لحارتكم ثم أنشد :
لأقعد على القوز وأكتب في ورق و أقـرا
وإن كان فيكم رجل قوموا اقتلوا خضـره
وإن ما غسـلتوا العـار ما أنا بلايمكـم
خللوا النسـا يا قـوم تلبـس عمايمكـم
لصفكـم صفين .. وأبصـق على الصفين
يا حـارة التفـاح .. يا حـارة التفـين
- هل يرضيك ذلك يا حسان ؟
- ما الذي يرضيني ؟
- القصيدة ؟
أزاحه حسان من طريقه :
- حل عني يا مراد .. الناس في حصايد وإنت في قصايد .. مالك ولخضرة .. إلا بكفي مـا جرى لها .. (ضرب كفاً بكف) لا حول ولا قوة إلا بالله .

ظلت الحارة قائمة قاعدة .. حتى أعلن شيخ الحارة أن (الطلقـة) سـتبدأ غـداً فـي وادي المقدمة .. وعند الفجر كان الجميع هناك .. حملوا الندى على أذيالهم .
صف شيخ الحارة الرجال في صف واحد .. بين كل حصاد وآخر مسافة ذراعيـن .. هي مجال حصاده .. وتسمى هذه المسافة (اللجنة) ثم نادى بعالي الصوت :
- استعنا على الشقا بالله .. بسم الله .
بدأت القواليش تخرط الزرع الناشف وتخلفه وراء الحصادين .. عبقت مـن سـيقان الشعير المخروطة .. رائحة فواحة .. تنشقها شهوان وقال في نفسه : يا للرائحة .. كأنها أثداء

امرأة مرضع .. امتلأ قلبه حبوراً وبهجه .. انهال بمنجله على السيقان الطرية .. خلف الحصادين كانت النساء تجمع الشعير في أغمار وتنقله إلى الكوم (الصليبة) .. أما الأولاد فكانوا يتراكضون لإلتقاط السنابل التي تسقط من الغمارات.. أو من الشباك أثناء نقل الغلة إلى الجرون .

ألقت مريم زوجة شهوان غمر الشعير على الصليبة .. وقفت تحيل بصرها في المروج الذهبية التي تتوهج على مدى البصر .. وصلت سكينة بحملها سألتها :

– كيف سيحصدون كل هذا ؟

– يحصدونه على أفخاذنا .

اتسعت عيون مريم من الدهشة .. أكملت سكينة وهي تلقي ما تحمل على الكوم :

– هؤلاء الحصادون الأوغاد سيشغلون أنفسهم كلما اشتد بهم العناء بالحديث عنا .

فلانه أفخاذها مدملجة .. فلانه صدرها تخت ورخت .. فلانه بتضوي من عنقها الشمعة .. وهكذا يمضون الوقت بالترويح عن أنفسهم .. ولا يحسون بالتعب .. حتى يخرط آخر قالوش آخر سنبلة في الأرض .

دنت منها زكية كنة الريفي .. ألقت بغمر الشعير الذي تحمله وهمست :

– سمعت فرج السويسي يقول لأخي علي كلاماً عن خضرة .. وحينما أحسا بي سكتا فجأة .. كما لو أنهما ضبطا متلبسين .. هل تعتقدين يا سكينة أن أخي العاقل الذي يستحي من خياله يتسلل إلى بيت العامري أيضاً .

قالت سكينة :

– حسبي الله ونعم الوكيل عليك يا سالم .. والله كلما ذكرت لي خضرة أتحسر عليها كما لو كانت ابنتي .. أتعلمون أنها من جيل ولدي دياب (دقت على صدرها بأسى) الله يستر عليها وعلى كل الولايا .

على رأس الطلقة (المرج الذي انطلق الفلاحون لحصاده) كان يجلس الشيخ رمضان الهواشمه شيخ الحارة .. وحوله الاختيارية من كهول الحارة وأهل الحل والربط فيها .

قال السويسي :

– هل راحت علينا ولم نعد نصلح للفلحة .. نحن الذين كنا نقول للأرض اشتدي ما عليكي قدي ؟ شاب شعرنا وانحنى ظهرنا .. صرنا عالة على سواعد أولادنا وأحفادنا .. والله إنني لأتمنى أن أعود شاباً ولو بنصف عقل مثل طبوع أبو الرواكي ..

ضحك الجميع .. قال شيخ الحارة :

– إنتو الذهب العتيق يا أبو ابراهيم .. إنتو الخير والبركة .. وعلى رأي المثل إللي ما إلو كبير يشتري له كبير .

رد عليه الزهار :

– قال زي طبوع .. أي إنت ما شاء الله عليك ملك زمانك .. الكلمة كلمتك .. والمال كله بإيدك .. الله يخلي لك هالشمعات .. والله أولادك كلهم آية من الآيات .. ما بخالفولك رأي .. أحمد الله يا رجل .. إيش يقول إللي زيي لما يختير وما حيلتو لاولد ولا تلد .

أراد كبير البطوش أن يفض السيرة فقال :

– إنتو كلكوا عجزتوا ما عداي .. أنا لسه شباب ومش راح أختير أبداً .. نهض خفيفاً كما ينهض الشباب .. ناول فنجان القهوة الفارغ لشيخ الحارة:

– قهوة دايمة .

– إلى أين يا حاج محمد ؟

– إلى الحصيدة .. الإيد البطالة نجسة .

انطلق بهمة إلى حيث الفلحة .

– الله معكم يا شباب .. هادي جمعة المنافع بدها المرجلة .. ما شاء الله تبارك الله على هالشعير الخصاب .. الله يطرح البركة .. لمح رضوان أصغر أحفاده يطوح بالمنجل وقد تورمت كفاه .. كانت هذه أول سنة يحصد فيها :

– هات هالقالوش يا رضوان .. قال المثل إن قعقع القعود ديروا عالجمل حملو .. عنك يا ولدي هات .

مانع رضوان قليلاً .. ثم ناوله المجل على استيحاء .. ووقف يراقبه وهو يحصد بدلاً منه .. قطع البطش في لجنة حفيده .. كانت ذراعه المدربة تخرط سيقان الشيعر كأنها الدولاب .. حتى أنه وصل إلى باقي الحصادين وكاد يسبقهم .. صاح شهوان وهو يرى تقدم البطش عليهم :

– باطل عالشباب .. اختيار يسبقهم ويفوز عليهم .

استفزت عبارة شهوان الصبية الذين يحصدون لأول مرة مثل رضوان .. أما الحصادون العتاولة مثل ابي غوش وسالم واولاد الريفي واولاد السويسي .. فإنهم لم يستجيبوا للتحدي احتراماً لشيبة البطش .. عندما سبق الجميع ..زغردت حفيدته زكية كنة دار الريفي وزغردت كل نساء الحارة معها .

امتلأ زهواً .. ناول القاووش لرضوان :

– خود قالوشك يا رضوان وشد حيلك .. خليك سبع زي سيدك إللي بشيخ عالحصادين كلهم .

قال رضوان مازحاً :

– أكمل يا جدي .. أنت والله أمهرنا جميعاً .

ضحك البطش :

- هيه .. بدنا ناخد زماننا وزمان غيرنا .. على رأي المثل .. ياللي إنتو مني إيش بقى مني .. البركة فيك وفي إخوتك وأعمامك وأولاد أعمامك .

أخذ يجمع بعض السنابل حتى كون جرزة منها .. وعاد أدراجه وهو يتمتم :

- ساق الله على أيام الشباب ملاح .

عاد إلى حلقة الإختيارية .. كانوا ما يزالون يرتشفون قهوتهم على مهل ويتسامرون .. بادرهم بالتحية :

- السلام عليكم .

رد عليه السويسي محنقاً وقد غاظه ما حققه البطش من المجد وهو في مثل سنه :

- وعليكم ما على النساء بعد العشاء .

نظر إليه البطش نظرة عتاب ثم قرب الجزرة من النار ليشويها :

- الله يهديك كما هدى الدجاجة للديك .

ضحكوا جميعاً .. علق الشيخ محمود أمام المسجد :

- أهذه هداية أم غواية يا حاج محمد ؟!

شوى البطش سنابله .. وزعها عليهم .. أخذوا يفركونها بأكفهم وينفخون ما علق بها من الرماد والسفير المحترق .. ويأكلونها بتلمظ

قال شيخ التفاح .. وهو يتلذذ بطعم الفريك :

- أولك وآخرك ونعيش وناكلك .

أذن الشيخ محمود لصلاة الظهر .. توقفوا عن العمل .. أمهم الشيخ محمود في صلاة تجمع بين الظهر والعصر قصراً وجمعاً .. بعد الصلاة جلسوا لتناول غذائهم .. فاحت روائح الزعتر واللبن .. انطبقت الأضراس على رؤوس البصل .

دار عليهم الأولاد والبنات بأباريق الماء .. شربوا وحمدوا الله .. استلقى رضوان على ظهره في ظل عوسجة قريبة حجبته عن الآخرين .. وتمنى أن تطول لحظة الراحة هذه أمداً طويلاً .. لولا أن فاجأه ظهور نوارة ابنة عمه .

قالت وهي تحكم وضع الغطاء على رأسها :

- هل تعبت .. هذه أول سنة تحصد فيها ؟

نظر إليها وتبسم .. أنها دائمة القلق حول غطاء رأسها .. فهذا أول موسم تتحجب فيه .. تأملها بعينين والهتين .. إن جدهما سيأمر بزواجهما بعد عام على الأكثر .. مثلما زوج باقي أحفاده وحفيداته (ابن العم أولى بإبنة عمه .. نحن لا نعطي لحمنا للغرباء .. إحنا البطوش زيتنا في دقيقنا) .

جلست نواره إلى جواره وتناولت كفه ونظرت اليها .. كان المنجل قد حفر في يده

اليمنى مجرى دامياً له .. أما اليسرى فقد تكلفت بها الأشواك التي تنبت بين سيقان الشعير .. فيدت مثخنة بالجراح .. حملت راحته إلى شفتيها وقبلتها :

- سلامتك يا رضوان .

ضاع كل تعب النهار .. اعتدل رضوان ومال عليهـــا منـــدفعاً .. أراد أن يختطـــف قبلة .. كانت عيناها تشرقان بالدمع .. انفلتت منه كظبية مذعورة .. ابتعدت وهي تتلفت مخا فة أن يراهما أحد ثم انطلقت إلى الصليبة .

نادى شيخ الحارة :

- يا الله يا شباب .. كل واحد يركب لجنتو .

تثاقل الحصادون في النهوض بعد أن تذوقوا طعم الراحة في سويعة الغداء .. لابد مما ليس منه بد .

عادوا إلى العمل فلا تسمع إلا صوت المناجل تخرط الزرع .. والسنابل تهوي إلـــى الأرض .. تصلبت ظهورهم من طول تقوسها .. تورمت أكتافهم بعد أن رشحت دماً طـــوال الوقت قبل أن تغرب الشمس بساعة من الزمن .. وقف شيخ الحارة وقال :

- الله يعطيكم العافية .. الآن انتهينا من حصة المعزب (صاحب الفلحة) فليركب كل حصاد كروته .

دب فيهم حماس غير متوقع .. عاودتهم الهمة بعد أن حســبوا أنهــم فقــدوا الرمــق الأخير .. إنهم الآن يحصدون أجرهم عن النهار كله .. يصنعون خبزهم الخاص بعد أن نزفوا العرق والدم طوال النهار .. والشاطر وشطارته .. كل ما يحصدونه الآن هو لهــم .. حــتى غروب الشمس

حين تدلى الظلام حمل كل حصاد كروته في كر (شبكة مــن الليــف) علــى دابتــه وانطلقوا في طريق العودة إلى الحارة .. مثل جيش عائد من معركة تعادل فيها مع عــدوه .. فلم ينتصر ولم ينهزم .

اختاروا سهلاً قريباً من الحارة ليكون فيه الدرس والتذرية .. ووضعوا حصادهم فـــي أكوام منفصلة تدعى الجرون .. العائلات الكبيرة ابتعدت قليلاً عن الآخرين .. لحاجتها إلـــى أماكن أوسع لما سيتجمع لديها من السنابل بنهاية الموسم .. فسخوا أحمالهم وسارعت النســاء بالعودة إلى البيوت لإعداد الوجبة الرئيسية للحصادين (وجبة العشاء) وبقي الرجــال علــى حفافي الجرون يسمرون ويخلدون للراحة بعد أول وأكثر ايام الحصاد عناء ومشقة .

كانت طلائع الطعام قد بدأت في الوصول .. سلال التوت والمشمش والخيار .. قدور الجريشة بالبندورة .. الحرق أصبع .. البصارة .. مراجين الخبز .

تناول الجميع عشاءهم وأخلدوا للنوم كل على جرنه .. بســاط الصيف واسع .. وسماء غــزة

تغطيهم بكل نجومها ومجراتها .

استلقى شهوان على ظهره فوق الجرن .. فارداً ذراعيه على طولهما طلباً للراحة .. نام عطية على ركبتي مريم فأضجعته في القش وانسلت إلى جوار شهوان .. توسدت ذراعه المفرودة .. قال لها وهو يحدق في السماء :

– انظري يا مريم .. هناك .. لقد طلعت نجمة اسهيل مبكراً هذه السنة .. أجدادنا يقولون (سهيل بتطلع على غمر قمح وسل تين) .

– كل سنة وإنت سالم يا شهوان ..

– وإنت سالمه يا مريم ..

التصقت به فطواها بكلتا ذراعيه .. هدهدها كطفل .. ثم استسلما للنوم .

❋ ❋ ❋

تلك السنة كانت السماء أكثر رحمة وعدلاً من الخواجة موسى وصنيعته درويش باشا .. فقد أعطى قنطار الشعير إثنى عشر قنطاراً .. انتصبت جبال الشعير على طول الشاطئ .. من تلة البلاخية إلى مقام الشيخ عجلين .. بطول خمسة أميال بالتمام والكمال .. اشتغلت سفن البنادقة والفرنجة بنقل الغلة طوال أشهر الصيف والخريف .. وهكذا بعد أن اقتطع الخواجة موسى ما له على الفلاحين من ديون وما على الديون من ربا .. بقي لهم ما يحفظ أودهم طوال العام وزيادة .

باع شهوان الحمارين للسقايين بضعف ما اشتراهما .. وباع جزءاً من الغلة واشترى لزوجته المشخلع والإسوارة .. واحتفظ بمونة تكفيه إلى السنة القادمة .

السويسي والبطش والريفي وكبار الفلاحين .. امتلأت صوامعهم بالغلال .. زوج كل منهم عدداً من أبنائه وأحفاده .. شهدت الحارة الأفراح والليالي الملاح .

أبو غوش عادت عليه الحصيدة بمبلغ لا بأس به .. استغله في تجارة المواشي التي امتلأ بها حوش داره .

كان بارعاً في المداكشة (مقايضة البهائم المسنة بالبهائم الفتية .. رأسين برأس أو ثلاثة رؤوس برأسين) الفلاحون يفضلون هذه الطريقة لندرة النقود بين أيديهم .. أضاف أبو غوش غرفة جديدة وليواناً وحوشاً جديداً إلى بيته .. تقبلت زوجاته الليوان والحوش ولم يتقبلن الغرفة الجديدة .. كبرت الشائعات بأن الزوجة الرابعة في الطريق .

وصل التوتر في البيت حد العصيان .. لم يعجن ولم يطبخن يومين متتالين .. فاض الكيل بالزوج .. امتشق حزامه وأشبعهن ضرباً .. أقسم أن يداكش عليهن رأسين برأس .

انصرف باقي الناس إلى حلقات الشعراء الجوالين .. يتلون عليهم تغريبة بني هلال .. وقصة الزير سالم .. وعنترة والظاهر بيبرس .. امتلأت مخازن الخواجة موسى بالشعير .. ما يكفي لإقراض الفلاحين للموسم القادم .. ثلاثمائة وقية من الذهب استقرت في حفرة تحت فراشه .. لكنه عبثاً حاول النوم .. نغص عليه انتصاره .. الكتاب الذي تلقاه من حاخام الطائفة يدعوه للإجتماع به لأمر هام .. وأن يحفظ ذلك سراً .. ما لبث أن علم بأن أعيان اليهود في الولاية مدعوون لهذا الإجتماع السري .. لم ينس الحاخام أن يهنئه بما أصاب من ربح في تجارة الشعير هذا العام .

لعنة الله على الحاخام .. لا يجتمع به إلا ليطلب المال .. ليس له حديث إلا عن فقراء الطائفة (مالي أنا وفقراء الطائفة .. لماذا لا يسأل الرب أن يعطيهم مالاً بدلاً من أن يأخذ مالي ويوزعه عليهم .. طز يا طائفة .. طائفتي هم أولادي أولاد موسى عدس فقط) .

أخيراً قال في نفسه : بيننا وبين موعد الإجتماع شهر .. وفي ثلاثين يوماً قد يحدث الكثير .. قد يموت الحاخام .. أو أموت أنا .. أو يموت فقراء الطائفة .

أخيراً استطاع الخواجة موسى عدس أن يغلق عينيه وينام

❋ ❋ ❋

دخل الكلاغاصي المضافة مهرولاً .. لم يلق السلام على أحد .. اتخذ مجلسه وهو يلهث .. التفت إليه الحاضرون في استغراب .. التقط أنفاسه بصعوبة .. لعله كان يجري طوال الطريق من الدبوية إلى المضافة .

– خير يا نظمي .

اقترب منه الباقون على شكل حلقة .. وهم يرددون : يا لطيف يا حفيظ .. فالدبوية مقر المتصرف درويش باشا لا يمكن أن يرتجى منها خير على الإطلاق .

أدار نظمي افندي النظر حوله ليتأكد أن الحيطان ليس لها آذان ثم همس كأنه يخاطب نفسه :

– لقد علم أحمد باشا الجزار والي عكا بما أصاب عامله على غزة المتصرف درويش باشا من الثراء .. فأرسل يطلب منه فدية لرأسه مائة ألف قرش أو يحضر لعكا فوراً .. وقع الخبر على درويش باشا وقع الصاعقة .. فلطم وحثى التراب على راسه .. موقناً أن منيته قد حانت .. ولما زايله الروع واستعاد وعيه .. طلب إليه شيخ المشايخ .. اشار عليه تيمور الضرغام أن يقسم المبلغ على مشايخ الحارات لجمعه من الأهالي .

نكت شيخ الحارة بعصاه في الأرض وقال :

– الناس لا تجد الزاد إلا بالكاد .. فكيف يطيقون دفع مبلغ كهذا ؟

يقول درويش باشا يا روح ما بعد روح .. تابع نظمي أفندي الحديث .

– إنه لا يريد أن يلاقي المصير الذي لقيته عائلة السكروج منذ أشهر .

قال كبير البطوش :

– عائلة السكروج .. الم يكونوا أمناء على خزينة الولاية ؟ لقد خدموا الجزار زمناً طويلاً .

قال شيخ التفاح :

– لعله استطال مدة خدمتهم واراد أن يستبدلهم بسواهم .. ولكن ليس قبل أن يستصفي دمهم .. وهكذا أظهر الريبة بمال الخزينة .. عين عليهم مالاً يدفعونه له كتعويض .. دفعوا المال المعين .. فطالبهم بغيره .. استدانوا ودفعوا .. عاد للمطالبة بمبالغ أكبر .. لم يجدوا من يقرضهم المال فأمر بذبحهم عن آخرهم .

– إثني عشر رجلاً ما نجا منهم أحد .

تلفت الكلاغاصي حواليه ثم همس :

– إن للجزار عيوناً على الرعية وعامة الناس .. فإذا أخبروه أن أحداً قد أثرى من تجارة أو زراعة أو صناعة أو خلاف ذلك . أرسل في طلبه وعين عليه مالاً .. فإذا لم يدفع وضعه في السجن .. لقد امتلأ سجن الولاية بهم .

قال شيخ التفاح :

– أخبرني رجال البريد أن القيود قد نفذت من كثرة المساجين فما كان من الجزار إلا أن أصدر أوامره بإعدام السجناء القدامى وإعطاء قيودهم للسجناء الجدد .

قام شيخ التفاح مهموماً وغادر المضافة .. تبعه يونس إلى ساحة الدار وسأله :

– ماذا أنت فاعل يا عماه ؟

– غداً سأذهب إلى الإجتماع بهذا الوغد شيخ المشايخ .. ولكن علي قبل ذلك أن أرى مشايخ الحارات واتفق معهم على الرد .. ما أحسب أن أحداً منهم قادر على أن يجمع شيئاً من هذا المبلغ ولو باع أهل حارته في سوق العبيد .

لم يستطع درويش باشا أن يأخذ من مشايخ الحارات حقاً ولا باطلاً قالوا له :

– أنت الدولة ولديك العيوانية والاسبهلية وعسكر القبيقول .. فدونك والأهالي .. أما نحن فنعلم عن يقين أنك سوف تسوط جياداً ميته .. الضرب في الميت حرام .

رأى الباشا أن ينصرف عن الأموات إلى الأحياء .. جمع تجار المدينة وكبار ملاكها .. وضعهم في السجن .. قرر على رأس كل واحد منهم فدية لا يخرج إلا إذا دفعها .. أما من كان غائباً من التجار والملاك .. وسمع القصة فقد ولى الأدبار .. ومازال في الهرب والباشا في الطلب ردحاً من الزمن .

اليهود وحدهم لم يدفعوا من هذه الفدية شيئاً .. فقد استطاعت سارة أن تهول على

الباشا مخاطر التعرض لليهود .. خاصة وقد عين الجزار أحدهم (حاييم فارحي) المشـــهور بلقب المعلم .. أميناً لخزانة الولاية .. بعد أن فتك بعائلة السكروج .. وفضل درويــش باشــا ألا يثيــر على نفسه عش الدبابير .

❃ ❃ ❃

شفي المقدم صقر من قروحه .. لكن أثر القيد ظل مرسوماً على معصميه كالسوار .. في المرة الأخيرة التي زار فيها شهوان وادي الزيت شاركه النوم في المضافة .. كان السمار قد انفضوا عنهما فتجاذبا أطراف الحديث وحيدين .. اشتد البرد .. خرج شهوان إلى البايكـــة حيث يخبئون الحطب .. أحضر حزمة وضعها إلى جوار الموقد :

– يبدو أن جوهر والآخرين قد ناموا يا عماه .

جلس على البساط بعد أن وارب الباب خلفه اتقاء للريح الباردة .

تناول المقدم صقر بعض الأعواد .. ووضعها فوق الجمـــر المتوهـــج فـــي الموقــد الطيني :

– أما زالت تمطر .

– أجل .

تصاعد الدخان من الموقد .. اختنق شهوان بالسعال .

قال المقدم صقر كأنه يعتذر :

– دخان يعمي ولا برد يقمي .

– أجل يا عماه يكاد البرد أن يخترق عظامي .

– يا حيف عالشباب .. وهل تسمي هذا برداً .. ماذا لو كنـــت فـــي بلاد الرومـــاللي أو بلاد المسكوب .. حيث يغطى الثلج أرضها عدة شهور في السنة .

– وهل ذهبت إلى هناك يا عماه ؟

تناول المقدم غليونه وحشاه بالتبغ .. التقط جمرة بأصابعه ووضـــعها فـــوقه .. نفــث الدخان في الفضاء .. كانت ألسنة النار تتصاعد من الموقد وتضيئ مساحة العتمة .. حتى أن شهوان استطاع أن يميز ألوان البساط الذي يجلس عليه .

تابع المقدم كمن يتكلم في الحلم :

– أجل كنت هناك .. تطوعت في حرب المسكوب .

– وهل حاربت يا عماه .. يا ليتني كنت معك .. أنا أحب الحرب والمراجل .

– لا تقل ذلك يا شهوان .. الحرب لعنة .. الحرب جهنم .. كانوا يدخلون قرانا فيقتلون كل من يصادفهم من النساء والأطفال والشيوخ .. ويحرقون الزرع والبيوت .. وينشـــرون الخـــراب حيثما حلوا .. وقد بادلناهم ذلك حينما دخلنا قراهم .. فعلنا فعلهم وألعن منـــه أيضـــاً .. أيــن

المراجل في ذلك يا شهوان ؟

– ألم تلتحموا بهم ؟

– بلى فعلنا ذلك عدة مرات .. ولكنها كانت اشتباكات صغيرة وليست حرباً كبيرة حاسمة .

– وكيف خرجت من الحرب ؟

– توجهوا بنا إلى أحد معاقل المسكوب .. كانت الطريق مغطاه بالثلوج .. الجمال التي تحمل المدافع والا قوات جاهدت في الثلج حتى خلعت أخفافها وسارت بأقدام عارية ترشح دما .. أصابها الجمد فتهالكت على جانبي الطريق .

حملنا ما استطعنا حمله ومضينا .. باغتناهم عند الفجر .. التحمنا بهم في موقعة فاصلة .. تذابحنا طوال النهار .. كان الطبر سلاحي المفضل .. فلقت به رؤوساً كثيرة كما تفلق البطيخ .. أدركنا العياء .. خانتنا أكفنا واقدامنا .. تساقطنا كما يتساقط الجميز البوطي .. هدأ الليل هدأة الموت .. ناديت على جماعتي .. فما أجابني أحد .. لعلهم تجمدوا من الثلج .. أويت إلى جذع سنديانة ضخمة .. اشعلت النار حتى لا يصيبني ما أصابهم .. زحف جندي من المسكوب باتجاه النار .. راقبته ويدي على الطبر .. نزع سيفه ورماه بعيداً .. هجم على النار .. أخذ يصطلي دون أن يعيرني التفاتاً .. نحيت الطبر جانباً حتى أطمئنه .. أخرج زجاجة من عبه وشرب ثم ناولني .. كانت خمرة مثل ماء النار سرت في جوفي .. تدفأت عروقي .. تبادلنا الشراب حتى زالت الكلفة .. غنى وبادلته الغناء .. كان كلا منا يغني بلغته .. أشار إلي بسبابتيه وكفه .. فهمت أنه يدعوني للهرب معه .. قلت له :

– والسلطان ؟

قال : القيصر والسلطان .. وأشار إشارة بذيئة من يده .

انتابنا الضحك .. ضحكنا حتى استلقينا على ظهورنا .. وحد الضحك بيننا كما لو أنه اتفاق مكتوب .. مد يده تصافحنا بحرارة .. عقدنا صلحاً منفرداً ..قبل أن يطلع النهار هربنا معاً ..كنا نسير في النهار ونأوى في الليل إلى الخرائب وحظائر الماشية .. حتى وصلنا إحدى قرى الأرمن .. استضافتنا أرملة في بيتها .. اغتسلنا بالماء الساخن والصابون أولمت لنا عشاء دسماً .. أصرت على أن نقضي معها الليل في فراش واحد .. آيه الصبا جنون .

قال شهوان :

– وقصتك مع الجزار يا عماه ؟

– الجزار يا ولدي قاتل مأجور .. عاش في مصر يبيع رأس مملوك لمملوك آخر .. ويقبض الثمن .. حتى افتضح أمره وأصبح موتوراً للجميع .. هرب إلى الشام .. خدم لدى أمراء جبل لبنان .. حتى عينه أحدهم حاكماً لبيروت .. ظل يتأمر على أسياده بالرشوة والغدر .. حتى استقر به المقام والياً لصيدا .. لكن عينه كانت دائماً على قلعة عكا .. عكا يا ولدي ينطبق

عليها ما جاء في القرآن (القرية التي كانت حاضرة البحر) حصونها أمنع من الجوزاء .. لو رأيتها يا شهوان ؟

– بلى يا عماه رأيتها .. مررنا بها .. ونحن في طريقنا إلى مرج عيون .. حين كنا نخطر بالفخار بين قرى الجليل .

– قلعة عكا ليست القلاع والحصون والأسوار الشامخة التي تظهر للعيان فقط .. ولكن ما تحتها الأقبية والرواقات والدهاليز .. عنابر المؤن وآبار المياه ومخازن السلاح .

إن الف جندي يستطيعون الصمود داخلها أعواماً كاملة دون أن ينقصهم شئ .. إنها مدينة كاملة تحت الأرض .. تنام وتصحو على هدير البحر .

– سمعت أن الجان هم الذين بنوا عكا ؟

– بناها إبن طولون والي العباسيين على مصر وفلسطين .. وجددها وشحنها بالميرة والذخيرة والجند سيدي ظاهر العمر رحمه الله .. كان يمتنع فيها حتى على دولة بني عثمان .. لاسيما والأهالي يحبونه ويفتدونه بدمائهم .. فهو عربي مثلنا .. وليس مملوكاً مغامراً كهؤلاء الأرناؤوط والشركس والبشناق .

خبت النار في الموقد مخلفة الجمر والرماد .. التقط المقدم صقر بأصابعه جمرة صغيرة وضعها على غليونه .. أخذ يمتص تبغه بنهم .. محدقاً في اللاشئ .. كأنه يستعيد ملاحم أيامه الخوالي .

– كيف انتصر الجزار على ظاهر العمر إذن ؟

– بالغدر .. دس عليه بعض الجنود المغاربة .. استعملهم ضاهر على الأبواب ..وفي اللحظة المناسبة فتحوا الأبواب لجيش السلطان .. ورغم أن أولاد ظاهر العمر استمروا في المقاومة بعد سقوط عكا .. ممتنعين بقلاعهم الحصينة وبالتفاف الأهالي حولهم .. إلا أن ما قدر كان .

لقد بنى علي ابن ظاهر العمر قلعة صفد .. وبنى شقيقه صليبي سرايا الصقرية في طبريا وبنى شقيقهما عثمان قلعة شفا عمرو .. وشيد شقيقهم سعد قلعة دير حنا .

خاضوا مع الجزار حروباً ضروساً في مجد الكروم وأبوسنان والرامة .. كانت قواتهم من أبناء البلاد مثلنا .. الفلاحين والصناع والفعلة .. وكانوا يسمون عسكر العرب .. أما قوات الجزار فأنت أدرى بهم يا شهوان .

– وأنت يا عماه كيف كانت حربك مع الجزار ؟

– هزمته في كل موقعة حتى حاصرني في قلعة صانور .. صمدنا له تسعين يوماً .. لولا الأطواب التي جلبها له الأسطول التركي ودك بها القلعة .. لما استطاع أن يزحزحنا منها .. خرجت على رأس الفرسان بعد انهيار القلعة .. التحمنا بهم .. أصابني أحد الأرناؤوط برصاصة في رأسي .. سقطت عن ظهر جوادي .. لم أستيقظ إلا في السجن .

- وفي السجن أرسلت تطلب العدل من اسطنبول :

متعجبن يا خلق كيف تسطي عالصقور أفراج

أنا لما شــفت الأنــادل راكبيــن أســـراج

فــزيت مــن غفلتـــي كالذليــــل وقلـــت

ميلت ميـــزان عــدلك يا زمـــان وملـــت

اســطمبول دار العــدل منك نريــد افــراج

ضحك المقدم صقر :

- يا شهوان علمتنا الأيام أن العدل لا يطلب بالشعر .. العدل يطلب بحد السيف .

استلقى على الوسادة ..ولف العباءة على جسده :

- تصبح على خير .

❋ ❋ ❋

(13)

استبطأ الجزار وصول المال الذي فرضه على متصرف غزة درويش باشا ..أفضى بقلقه للمعلم فارحي أمين الخزنة .. استأذن فارحي أن يذهب بنفسه إلى غزة لاستيفاء المال له .

أوفد فارحي رسله سراً إلى وجهاء اليهود في فلسطين .. لموافاته بغزة ليلة الربعاء في حمام شمعون .

أغلق شمعون باب الحمام مبكراً تلك الليلة .. وبعد أن أحصى دخول ثلاثين رجلاً وامرأة واحدة .. أوقف أحد الصبية على رأس الطريق .. ليبلغ الزبائن أن الحمام محجوز .

تصدر حاخام الطائفة الجلسة .. رحب بالحاضرين .. قال لهم :
- كنت أتمنى أن يكون هذا الإجتماع في بيتي أو في الكنيس .. لكن خوفي من عيون الجزار جعلني أوافق على مكان كهذا .. لا يمكن أن يشك أحد في الداخلين إليه والخارجين منه .. ما كنا لنعقد هذا الإجتماع دون أن يحضره المعلم فارحي .. فخر الطائفة وملاذها ودون حضور أخي المبارك الرابي شلومو .. كاهن اليهود السمرة الذين هم ربع يهود فلسطين تقريباً .. نبدأ اجتماعنا بصلاة قصيرة لكي تحل علينا بركة الرب إله الجنود .

اضاء شمعة وبدأ في ترتيل صلاة قصيرة .. حينما انتهى ردوا عليه بصوت خاشع :
- آمين .

أطفأ الشمعة .. التفت إلى سارة :
- اقرئي يا ابنتي ما جاء في رسالة أخيك داوود .. حتى تعم البشرى الطيبة سائر الحضور .

قرأت ساره :
- من داوود ابن اسحق .. إلى الحبر الأمين .. منار الدنيا والدين .. حاخام يهود فلسطين . شالوم ليخيم ..

بعد تقبيل أعتابكم وطلب الرضى والبركات من جنابكم .. نرفع إلى مقامكم السامي أن حكومة الدراكتور (الإدارة) في باريس .. استجابت لمطالب يهود أوروبا التي قدمها الثري توماس كوريت من يهود إيرلندا .. بأن يتولى يهود أوروبا الإنفاق على حملة فرنسية تحتل مصر وبلاد الشام .. مقابل إنشاء دولة لليهود في فلسطين .. يهاجر إليها كل يهود العالم .. وتكون جزءاً من امبراطورية فرنسية في المشرق .

اصطخب الحمام هرجاً ومرجاً .. البعض استقبل الخبر بالفرحة وهب لعناق من يجاوره .. البعض أخذته المفاجأة .. هدأت الأصوات شيئاً فشيئاً حتى خيم صمت عميق .

تابع الحاخام :
- لدي هنا نص الرسالة التي أرسلها باراس إلى حكومة فرنسا .. اسمعوا ماذا قال لهم ليقنعهم بالفكرة :

((إن اليهود سوف يكونون لكم عنصراً استعمارياً ثابت الأركان .. يحل في آسيا محل الإمبراطورية الآخذة في الإنحلال (امبراطورية العثمانين) وسوف يقدم لكم هذا العنصر اليهودي أهم الضمانات لبث الفوضى وهدم العقائد وإشعال الأزمات .. وسوف يلين هذا العنصر التركي الصلد والمتعصب .. نتيجة الإحتكاك والاختلاط باليهود القادمين من مختلف البلدان .. حاملين مختلف النظريات والثقافات .. بل إنني أعتقد أن الصين ذاتها ستتأثر باليهود .

قال الرابي شلومو لمساعده :

– ها قد وقعنا في الفخ .. لو كنت أعلم بموضوع الإجتماع لما حضرت .. فليسامحنا الله يا بني .

تابع الحاخام وهو يمسح دمعة جاشت بها عينه تأثراً :

– إن صوتي يتهدج وعيني مغرورقتان بالدموع من الفرحة .. حتى أنني لا أستطيع إكمال القراءة .. هلا تابعت يا سارة قراءة البيان اليهودي الذي تم توزيعه على يهود الشتات حول هذا الموضوع ؟

تناولت ساره الورقة بتأثر وامتنان .. وقرأت :

((إن عددنا ستة ملايين منتشرون في جميع أنحاء العالم وفي حوزتنا أموال وممتلكات ..و ثروات طائلة .. وعلينا أن نتذرع بكل قوتنا لاستعادة بلادنا.. إن الفرصة سانحة ويجب أن نغتنمها)) .

يجب أن نعمل بالوسائل الآتية لتحقيق مشروعنا المقدس :

– إقامة مجلس يهودي عالمي ينتخب من يهود خمسة عشر بلداً : هي سويسرا .. المجر .. روسيا .. شمال بريطانيا .. أسبانيا .. ويلز .. السويد .. تركيا .. آسيا .. أفريقيا .. هذه اللجنة اليهودية تكون قراراتها مقبولة لدى كل يهود العالم .. بحيث تصبح قانوناً ملزماً .. واقتراحات هذا المجلس الدولي تبلغ إلى الحكومة الفرنسية إذا اقتضى الحال ذلك .. أما البلاد التي سنضمها إلى دولتنا فهي إقليم الوجه البحري من مصر إلى عكا .. ومن البحر الميت إلى البحر الأحمر .

هذا المكان من العالم هو الأكثر ملاءمة من أية بقعة .. ونحن فيه نصبح قابضين على تجارة الهند وبلاد العرب وأفريقيا الجنوبية والشمالية .. ولن تتأخر أثيوبيا عن إقامة علاقات تجارية معنا بملء رضاها .. فهي البلاد التي قدمت للملك سليمان الذهب والعاج والجواهر الكريمة .. ثم أن مجاورة حلب ودمشق تسهل لنا تجارتنا .. وموقع بلدنا هذا على البحر الأبيض المتوسط .. يمكننا من إقامة مواصلات سهلة مع فرنسا وإيطاليا وأسبانيا وسائر أوروبا .

إن هذا المكان الذي يتوسط العالم .. سوف يصبح كأنه مستودع لجميع الحاصلات التي تنتجها الأرض الغنية حولنا .

أما الإتفاقات والترتيبات الأخرى باقتراحاتنا للباب العالي فلا تنشر علنا وسوف نضطر لإبقائها منوطة بحسن إرادة الأمة الفرنسية .

وقف الرابي شلومو وقد فرغ صبره :

– كل شئ منوط بإرادة فرنسا الآن .. ولا شئ منوط بإرادة الرب الهنا ..

أنتم تجد فون .. كلكم تعلمون أن اعتقادنا الديني يحتم ظهور المسيح أولاً .. وبعد ذلك يقود

هو اليهود إلى فلسطين .. ويبني الهيكل في أورشليم .. ويقيم مملكة الرب التي هي دولة إسرائيل .. أما قيام دولة لليهود قبل ظهور المسيح .. فهو استخفاف بإرادة الرب واستهزاء بقدرته .

لا أعتقد أننا معشر اليهود السمرة سنشارك في هذا الإثم أبداً .. خرج الرابي شلومو محنقاً .. يتبعه مساعده .. أما شمعون فقد مشى وراءه مودعاً حتى الباب .. واستأذنه في العودة لرعاية ضيوفه .

خروج الرابي شلومو غير المتوقع .. ترك شكوكاً كثيرة تدور حول المشروع برمته .. تشجع بن هور الصفدي فوقف وقال بأعلى صوته :

– إن هذا الذي جمعتمونا من أجله والذي تسمونه (استعادة بلادنا) اسميه أنا خيانة .

صاح به الحاخام :

– خيانة لمن أيها الأحمق ؟!

– خيانة لعرب فلسطين .. الذين تجمعنا بهم أضعاف الروابط التي تجمعنا بيهود أوروبا أولئك الخزر الذين تهودوا .. والذين لا ينتمون بالدم إلى أي من الأسباط الإثنى عشر .

– روابط مع العرب ؟ ليس هناك رابطة نعترف بها نحن اليهود غير رابطة الدين .. ألسنا شعب الله المختار ؟ أم أنك تحسب هؤلاء الجوييم بشراً مثلنا ؟ ثم هذا التجديف حول أصل يهود أوروبا ! هؤلاء مهما كان أصلهم فهم ليسوا جوييم .

– الجوييم .. الجوييم ؟! ألسنا نعيش بين ظهرانيهم منذ آلاف السنين ؟ في كل بلاد العالم تعرض اليهود للإضطهاد إلا في هذا البلد .. أهله الذين تسمونهم الجوييم يعاملوننا بالحسنى .. جريا على عاداتهم في إكرام الضيف والغريب والجار .. تركوا لنا التجارة والمراباة .. وانصرفوا إلى صناعتهم وزراعتهم .. ما الذي يميزنا عنهم ؟ ألسنا نتحدث لغتهم .. ونرتدي ملابسهم .. ولنا نفس التاريخ والعادات والتقاليد .. وحتى لون البشرة والملامح ؟ هل هناك روابط أقوى من هذه ؟ لقد كتب إلي داوود أول وصوله إلى مرسيليا يشكو يهود أوروبا وغطرستهم وتعصبهم .. هل تدركون ماذا كان يسميه إخواننا اليهود هناك ؟ إنهم يسمونه (التركي) إن أحداً لم يخاطبه با سمه .. هل نسى ذلك حتى يطلب منا أن نخون جنسنا العربي وننضم إلى هؤلاء الأوروبيين .

استشاط الحاخام غضباً .. فنهض وأشار إلى الباب :

– أخرج أيها المارق .. قبل أن أهدر دمك وأجعلك عبرة لغيرك .

علت الصيحات تتوعده بالويل والثبور .. خرج مشيعاً باللعنات .

أراد موسى عدس أن يستغل الفرصة ويهرب .. ولكن يد المعلم فارحي كانت له بالمرصاد .

أجلسه المعلم فجلس على مضض .. وسرعان ما جاءته النجدة من حيث لا يتوقـــع .. عزرا كبير أثرياء يافا وقف وأدلى برأيه الثاقب :

- أنا أفهم لماذا تؤيد فرنسا أو أي دولة أوروبية قيام دولية لليهود في فلســـطين .. وأعـــرف المصالح التي يمكن أن تجنيها أوروبا من وراء ذلك .. فهـــي أولاً تتخلـــص مـــن يهودهـــا المكروهين (بكل دسائسهم واحتكاراتهم واستغلالهم وجشعهم إلى آخر ما يلصق بنا من تهم) وهي ثانياً .. تضع أسفينا في قلب الشرق الأدنى .. الذي هو مصدر الخطر المحتمـــل علـــى أوروبا لو أفاق ونهض من تخلفه واتحد في دولة قوية .. إن دولة لليهود وســـط بحـــر مـــن الأعداء الدهريين .. تظل بحاجة إلى حماية أوروبا ومساعدتها .. ولن تكون لهـــا إلا بمنزلـــة التابع الذليل الذي ينفذ مآرب أسياده وحماته .

ما مصلحة اليهود في إقامة دولة كهذه ؟ لماذا نوافق أوروبا على التجمع فـــي مكـــان واحد ؟ سأقول لكم رأيي صراحة : وطن الانسان جيبه .. وعلاقة الانسان بأي وطن .. تتحدد بمقدار المال الذي يستطيع جمعه في ذلك الوطن .. فإذا شح المال .. أو اضطرب حبل الأمان .. أو تعرض الانسان لأي أذى .. ما أسهل أن يحمل كيس نقوده وينتقل إلى مكان آخر .. ما حاجتنا لأن نرتبط بوطن معين .. ونكون مثل السمكة التي وقعت في الشبكة ؟

ثم أننا أقلية في هذه البلاد .. لا نتعدى الواحد في المائة من عـــدد الســـكان .. فمـــاذا سيحدث لنا إذا انحزنا علناً إلى الغزاة الفرنسيين .. ثم فشل هؤلاء وعـــادوا إلـــى بلادهـــم .. تاريكننا لقمة سائغة في أفواه الضواري؟

اشتد الهرج والمرج .. هم البعض بمغادرة المكان .. أمرهـــم فـــارحي بـــالجلوس .. أجهش الحاخام بالبكاء فانشغل الجميع بتهدئته :

قال الحاخام :

- كأنكم تقولون لي : إذهب أنت وربك فقاتلا .. إنا هنا قاعدون ؟

قال فارحي :

- بل نحن معك قلباً وقالباً .. ولا مكان بيننا لأي خائن أو متخاذل .

جلجل صوت أحد المتحمسين فرد عليه الجميع بهتاف واحد :

- لتنسني يميني أن نسيتك يا أورشليم .

أحس الحاخام بنشوة النصر فلوح لهم بيده :

- بورك فيكم يا أسباط اسرائيل .. إن علينا الآن أن ننظم صفوفنا .. ونبدأ العمل مع أشـــقائنا من يهود العالم .. والتنظيم كما تعلمون بحاجة إلى المـــال .. وعليكم أن تتبرعوا بسخاء مـــن أجل ذلك .

هتف موسى عدس بصوت سمعه الجميع :

- هذا بيت القصيد إذا ؟

حدجه الحاخم بنظرة قاسية :

- ألا نتوجه إلى الله كل يوم بالصلاة من أجل أن يعيد إلينا أورشليم ؟

وصلت السكين إلى ذقن موسى .. وأصبح الحاخام قاب قوسين أو أدنى من أمواله .. فهب يدافع عنها بلا وعي :

- الصلاة شئ ..والمال شئ آخر .. نحن نصلي لله لكي يعيدها إلينا مجاناً إذا أراد .. إما أن ندفع نقودنا للإنفاق على مشروع خيالي كهذا .

ارتفعت الهتافات ضد موسى البخيل الشحيح .. عدو الله .. بعضهم أمسك بتلابيبه .. لولا أن المعلم فارحي تدخل :

- دعوا موسى لي وأنا كفيل بأنه سيتبرع .. دعوه لي .

انفضوا عنه .. ألقى الحاخام كلمة .. لم يعرها موسى التفاتاُ بعد فجيعته في ماله .. وهكذا اضطر موسى مكرها تحت ضغط فارحي للتبرع بمبلغ مماثل للذي تبرعت به عائلة كوهين .. حينما انصرف الجميع قضى موسى مع شمعون سحابة الليل .. حتى لا يستفردوا به إن خرج من الحمام .

قال لشمعون بعد أن اطمأن إلى خلو المكان :

- من قال لهم أننا نريد فلسطين لكل يهود العالم ؟ فلسطين بلاد فقيرة ولا تكاد تكفي أهلها .. ولولا مهارتنا وسعة حيلتنا لمتنا فيها جوعاً .. هؤلاء الملاعين يهود أوروبا ألا تكفيهم أوروبا حتى يهجموا علينا ويخلصوا اللقمة من أفواهنا .

رد عليه شمعون بتهكم :

- دولة كل سكانها من اليهود .. من سيحرث الأرض ويزرعها .. ويحصد الغلال وينتج لنا الخبز والزبد واللبن والخضار والفاكهة .. إذا كان كل السكان من المرابين والصيارفة ؟! .

❊ ❊ ❊

كانت الحارة مشغولة بعرس أحفاد السويسي .. زارع تزوج إبنة عمه ميسر .. أما جواد فقد تزوج زينب البتير .. بديلة لأخته جازية .. التي تزوجها أنس بكر مراد البتير صاحب معصرة الزيتون .. أصر مراد البتير أن يولم لأهل الحارة على نفقته .. بمناسبة زواج ابنه البكر وهكذا قال أهل الحارة :

- الصيت للسويسي والفعل للبتير .

بعد وليمة العشاء نهض السويسي والبطش وشيوخ الحارة متثاقلين في طريقهم إلى

المسجد لصلاة العشاء .

مال البطش على صديقه السويسي :

– يا لك من داهية .. تزوج ثلاثة من أحفادك دون أن تدفع مهرا لأي منهم

– جاءت المسألة بظروفها :

– بل جاءت بحيلتك ودهائك .. أنت تقبن القط من ديله .

كان المسجد مقفراً .. فالجميع منشغلون بالعرس .. واليوم يوم شهوان .. أليس هـــذا عرس حارته .. وعليه أن يخلد هذه الليلة في ذاكرة الحارة إلى الأبد ؟

عدد قليل من المصلين تحلق حول الشيخ محمود منصتاً للدرس .. بدا الشيخ غاضباً لإنصراف أهل الحارة عن الصـــلاة ذلك اليــوم .. تفنن في وصف النار والجحيم وما أعده الله للكفار .. حتى أبكى الجميع رعباً وهلعاً .

همس البطش في أذن السويسي :

– منذ أجبرناه على تزويج مريم لشهوان .. استبدل الحديث عن الجنة وحورها العين بالحديث عن النار والزبانية والكلاليب المحماة .

جلس السويسي إلى جانب صهره الجديد مراد البتير .. لاحظ في الصف الأول مـــن المصلين.. حسنات شيخ حارة المشاهرة .. سأل البتير :

– هل دعوته للعرس ؟

– لم أدع أحداً من خارج الحارة .. لعله جاء لزيارة صديقه شيخ التفاح ..

بعد صلاة العشاء اتجه الجميع إلى المضافة .

امتدت بواطي الطعام .. أجزل البتير اللحم والشهم .. غمر الصحاف بالسمن الـــبري ..أكـــل الجميع وملأوا خواصرهم .

قال حسنات لابن عمه الذي يرافقه :

– ما جابك من الغرب إلا نصيبك .

ثم اتجه بالحديث إلى الشيخ رمضان والشيخ انس والجالسين :

– ابن عمي هذا يسكن الكوفخة .. وقد وصله خط من أخيه في الشام .. لم يجـــد أحـــداً فـــي الكوفخة يفك الحرف .. انحدر إلى القرية التي تليها .. وظل من قرية إلى أخرى دون أن يجد ضالته حتى وصل إلى غزة .

انتزع ابن عمه زمام الحديث وقد انتشى من الطعام والشراب .

– أخذني حسنات إلى امام مسجد المشاهرة .. وسلمه المكتوب وقال : اقـــرأ مـــا ورد لإبـــن عمي .. ضحك الإمام وقال لحسنات (كيف أقرأ وأنا رجل ضرير كما تعلم) قـــال حســـنات ولكنك تقرأ القرآن (أقرأ القرآن لأنني أحفظه غيباً يا حسنات) .

ضحك كل من في المضافة .. قال حسنات :

- سألنا عن إمام مفتح العينين فدلونا على إمام حارتكم .

تربع الشيخ محمود بجوار الفانوس .. بعد أن رج زيته وأخرج فتيلته قليلاً لمضاعفة الضوء .. قرب الورقة من عينه حتى كادت تدخل محجره .. لف الحاضرين سكوت مطبق فالمعجزة أوشكت على الوقوع :

- جناب فخر الأماجد وشمس المقاصد .. ذخر الإخوان وزين الاقران .. توفيق الزيبق .

تمايل الحاضرون طرباً وهم يتصايحون :

- الله .. الله .. العلم نور .

بعد انتهاء القراءة أقسم محمد غزال .. أحد ملاك الأراضي .. أن يرسل ابنه إلى الأزهر الشريف ليرفع رأس العائلة .. أما مراد البتير فقد أقسم أن يرسل باقي أولاده الذكور لكي يرفع راس الحارة كلها .. انتهت قراءة الرسالة .. أخذ الحاضرون في التسلل إلى الخارج .

لعلعت شبابة شهوان في الساحة .. والشباب يدبكون ويهزجون .. لم يبق في المضافة إلا شيخ التفاح وصهره يونس وضيوفه .. دخل الكلاغاصي مذعوراً .. تلفت حوله وهو يلهث :

- هل سمعتم الخبر ؟ الفرنسيس ملكوا مصر ! .. مراد بيك ومماليكه هربوا إلى الصعيد .. وصلت قافلة مصرية إلى خان الغلة ومعها الخبر .. أمير الفرنسيس رجل يقال له بونابرته .. ولقبه ساري عسكر .. معهم أطواب كبيرة تضرب الناس بالقلة .. ولا يصمد في وجهها شئ .

قال الشيخ محمود :

- يسلط الله علينا .. بذنوبنا .. من لا يخافه ولا يرحمنا .

نهض يونس مهموماً .. حين مر بالساحة كانت الدبكة على أشدها وشهوان يشدو بأغنيته الجديدة :

- والله لا حوسك .. والله لالوسك ..وأحل فردة من عقوصك

عذبتيني .. وجننتيني.. وحيرتيني منين أبوسك

عا جمالك .. عادلالك .. شغلتيني ولا على بالك

مهما تعلي ومهما تغلي .. إنت المهرة وأنا خيالك

هز يونس راسه في أسى .. وقد اشرقت عيناه بالدمع :

- خيالها الآن رجل يقال له بونابرته .

(14)

مثل ريح السموم سرت الإشاعة في الحارة (خضرة حامل) كذب الإشاعة قوم .. وصدقها آخرون .. وما لبثت أن صارت خبز الناس وملحهم .

تواقح سالم مع عمه كما لم يفعل من قبل :

– قالوا لجحا التعاريص دخلت حارتك .. قاللهم مادام بيتي بخير أنا بخير .. قالوا له التعاريص دخلت بيتك .. قال مادام قفاي بخير أنا بخير .

نهره شيخ الحارة :

– لو أن أحداً غيرك يا سالم خاطبني في خضرة ما لمته .. أم أنك تريد أن تقتل القتيل وتمشي في جنازته .. لقد ارسل لي شيخ المشايخ لحضور اجتماع لمشايخ الحارات .. وأنا ذاهب إليه فلا تعطلني .. أما إذا كنت تريد الوشاية بأحد كما فعلت من قبل فتعال معي .

– لم أش بأحد .. قلت لكم ذلك ألف مرة .. أنا رجل حر .. ولا أريد أن أضع قروناً على رأسي .. هذه الحارة حارتي وسأرى من معي ومن مع خضره.

انطلق سالم من المضافة يجعر مثل حمار شم رائحة البول :

– يا أهل حارة التعاريص .. ياللي خضرة طلعت لكو قرون .. يا توطوا روسكو في الأرض .. يا تغسلوا العار .

خرج الناس من بيوتهم واجمين .. وحدهم السفلة والأراذل اتبعوا سالم .

– خضرة لازم تعترف .

– لازم تقر مين إللي عمل العملة .

– يمكن مش من الحارة .

– لازم نعرف الصحيح .

وصلوا دكان الزهار .. قال له سالم :

– هل تخرجها لنا أم نقتحم عليها الدار ؟

تردد الزهار :

- يا ناس الله أمر بالستر .

دقوا على الشباك بقوة .

- أخرجي أيتها العاهرة .

خرجت خضرة تمشي الهوينى وقد أثقلها الحمل .

- ماذا تريدون ؟

تحلقوا حولها .. أخذتهم المفاجأة .

- ماذا تريد يا سالم ؟

- نريد أن نعرف .

- ما الذي تريدون معرفته ؟

- ابن من هذا ؟

ضحكت خضرة بأعلى صوتها .. ارتج عليهم .. لم تكن خائفة ولا مهزوزة .. بدت أقوى منهم وهي تتسلح بسخريتها وتتهيأ للنزال غير المتكافئ .

تدخل الزهار محاولاً منع الشر :

- ابن من يا خضرة ؟ قولي .. وسوف أتدبر الأمر مع الفاعل كائناً من كان .

تعالت الأصوات :

- ابن من .. ابن من .. تكلمي .

انخرط طبوع أبو الرواكي في البكاء حتى اهتزت قربة الماء على ظهره :

- مسكينة خضرة .. اتركوها وأنا أقول لكم ابن من ؟

التفت إليه الجميع ..

- ابن من يا طبوع ؟

- ابن العسكر .

صفعه سالم على وجهه :

- أغرب أيها الابله .

ثم التفت إلى خضرة .. هزها بعنف :

- تكلمي وإلا ؟

تكلمت خضرة :

- إنه ابن الحارة .. ابنكم جميعاً .. ألم تتناوبوا علي الواحد تلو الآخر ؟

صرخت رقية أولى زوجات سالم :

- إنها تريد أن توقع الشر بيننا .. اقتلوها .

انفلت حجر من الصفوف الخلفية أصابها في وجهها .. سال الدم على ثيابها ..
شق شهوان الصفوف حتى وقف بينها وبينهم :
– اتركوا خضرة .. أنا والد الطفل .. أنا الذي فعلتها .
أزاحته خضرة :
– لا تصدقوه .
صرخ كمن تلقى طعنه :
– بل أنا .
همست في أذنه :
– الانك الوحيد الذي جاءني في رابعة النهار .. وأراني وجهه ؟ ماذا عن الآخرين ؟
أشارت إلى أهل الحارة :
– أيها الجبناء .. لقد كنتم تتسللون إلى فراشي الواحد تلو الآخر .. لم أرد من الذين وفدوا علي سوى قتلة أبي .. سالم ونظمي .. صفعت أحدهما وأشارت إلى سالم .. أما الآخر فبصقت في وجهه .
انقضت عليها رقية :
– اخرسي يا فاجرة .. سالم أشرف من أبوكي وجدودك .
أرادت أن تشج رأسها بحجر كان في قبضتها .. لولا أن هرعت سكينة إلى حيث تركع خضرة وطوقتها بذراعيها ..
– اقتلوني معها إن شئتم .. ألا يكفي ما جرى لها بسببكم .. أين كانت مراجلكم عندما اغتصبها العسكر ؟ اتفوه عليكم .. قال أشراف وبغاروا عالعرض .
توسلت خضرة :
– دعيني لهم يا سكينة فأنا أستحق ما سيجري علي .
صرخ سالم كحيوان حيل بينه وبين الفريسة :
– انضبي يا سكينة .
– هل ستشي بي عند تيمور الضرغام كما فعلت بوالد خضرة ؟
أراد أن يصفعها .. لكن حسان السلامين حال بينهما .. وقال لزوجته :
– هيا بنا إلى البيت .. لحم كلاب في ملوخيه.
حينما تمنعت رمى عليها يمين الطلاق .
– طلاق .. طلاق والله ما بسيب هالبنت لو بأموت .
قال شهوان :
– اذهبي يا سكينة .. واحضري شيخ الحارة .. لن يقدر على سالم غيره .

انطلقت تركض باتجاه المضافة .. انهمرت الحجارة على رأس شهوان وخضـــــرة .. أغمي على شهوان .. أشار سالم لزبانيته :

- احملوه بعيداً .

حملوه الى دكان الزهار .. صرخ سالم بتشف :

- تكلمي يا خضرة .

غامت عيون خضرة .. تهالكت ركبتاها .. ركعت على الأرض وقد غطاها الـــدم .. توضأ والدها لصلاة العيد .. لبس قنبازه الروزة وهم بالخروج .. أوقفته لتقبل يـده .. كـانت ترتدي أجمل ثيابها وتعقد شريطاً أحمر في شعرها الناعم الطويل .. أمها انتهت مـــن طبـــخ القراصية وتوزيعها على الأطباق .. ناولت والدها طبقاً من القراصية .. ملأ الملعقة وناولها .

- تذوقي يا ابنتي حلوى العيد .. كل عام وأنت بخير .

سمعوا طرقاً شديداً على الباب .. دهم العسكر البيت .. ضـــربوا بأقـــدامهم أطبـــاق الحلوى فاختلطت بالتراب .. شدوا والدها إلى جزع الجميزة :

- أين الذهب يا عامري ؟

لم ينتظروا الإجابة .. فرقعت السياط في الهواء وانهالت على الجسد .. تخضب قنبازه الروزة بالدم .. هرعت أمها لكي تتلقى عنه السياط .. دفعوها بعيداً .. صاروا يلقفونها الواحد للآخر كالكرة .. أغمي عليها .

انكمشت خضره على نفسها إلى جانب الجدار مشلولة من الرعب .. اكتشـف أحـد العسـكر مخبأها :

- الآن سنعرف مكان الذهب .

جلس أمامها مباشرة مستنداً على ركبتيه .. أدار وجهها ناحيته :

- تكلمي يا حلوة .. أين الذهب ؟

حاولت الفرار مثل أرنب مذعور .. أطبق عليها .. جاهدت للإفلات .. ضـــمها إلـــى صدره ضمة قوية كادت تزهق أنفاسها .. أخذ يتحسس جسدها بنهم .. عاودت كفاه الفظتـــان نهش جسدها .. دافعته عن نفسها .. مزق ثيابها وطواها تحته إلى جانب الجدار .. صـــرخت حتى انشق حلقها .. سلمها لمن يليه .. أغمي عليها .. ليس في أذنها سوى دوي أصواتهم :

- تكلمي .

هزها سالم من كتفيها .. فامتلأت راحتاه بالدم :

- تكلمي وإلا ....

وصل الخبر إلى مريم .. كانت تعجن .. فركضت إلى دكان الزهار والعجيـــن فـــي كفيها .. صرخت :

– يا شماتة العدوين فيكي يا مريم .

كان شهوان طريحاً على الأرض مغمى عليه .. الدماء تنزف من رأسه .. وضعت رأسه على ركبتها .. تناولت البن من الزهار .. ملأت الجرح .. فتح عينيه :

– سامحيني يا مريم .

– كنت أحسب أنك تقتل نفسك من أجلي فقط .. وإذا بك تقتل نفسك من أجل أي امرأة .. ولو كانت عاهرة كخضرة .. ألا ترثي لمن باعت الأهل والأقارب لأجلك وعاشت في بيتك مقطوعة من شجرة ؟ألا ترثي لأولادك؟

سحبت ركبتها من تحت راسه .. فهوى على الأرض .. انطلقت تعدو إلى بيتها وهي تولول :

– وين كان مخبالك يا مريم .. يا غضيبة الوالدين .

لم تجد سكينة أحداً في المضافة .. ركضت مجنونة إلى الجماقية علها تجد بعض السقايين أو العيوانية .. تنتخيهم لإنقاذ خضرة .

كان جوهر على ظهر حصانه الغوج .. ومعه اثنان من العبيد على خيولهم يردون الحوض وجوهر يحدو لهم :

– الخيل على الميه .. تتباهى بصدورها

ورجال الحميه .. عقبان عاظهورها

صرخت سكينه :

– في عرضكم يا رجال .

قال جوهر :

– أبشري يا حرمه .

– يريدون قتل خضرة .. هناك .

أشارت إلى دكان الزهار .

طارت بهم الخيل إلى حيث أشارت .. عندما وصلوا قال جوهر لرجاله :

– أطلقوا الطبنجات .

اهتز المكان كله بالرعد القاصف .

التفت الجميع مذهولين .. تهاوت أذرعهم التي تحمل الحجارة .. دهمهم جوهر بحصانه .. وصل خضرة في الرمق الأخير .. القى عليها عباءته

– خضرة في جيرة الله وجيرة يونس .. الإيد إللي بتنمد عليها بتنقطع .. استل عبيده سيوفهم وأحاطوا به ... نكس سالم راسه ومضى .. تبعه الآخرون دون أن يتفوه أحد بكلمة .

أشار جوهر لعبيده :

- إحملوها إلى الداخل .

أضجعوها في الغرفة وتحلقوا حولها .. أسندتها سكينة إلى صدرها .. وأخذت تمسح الدماء عن وجهها بمنديل مبلل .

- حين على شبابك يا خضرة .

فتحت خضرة عينيها :

- لماذا لم تتركيني لهم يا سكينه ؟ أنا إمرأة نجسه .. خضت في الحرام وحملت سفاحاً .. سمعت أن الذي يعاقب في الدنيا يسقط عنه العقاب في الآخرة .. أردت أن ألحق بأمي وأبي وقد تطهرت من وسخ الدنيا .. أخذتها إغماءة قصيرة .. صار جسدها يختلج بقوة كأن شيئاً في داخلها يتصدع .. أخيراً هدأ الجسد .. سرت فيه برودة أحستها سكينة فأدركت أنه الموت .

- لا حول ولا قوة إلا بالله

فتحت خضرة عينيها ثانية .. أدارت البصر فيمن حولها :

- أتظنون الله يغفر لي ؟

مد جوهر يده ولمس كتفها :

- قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً .

سالت الدموع من عيون خضرة .. دموع غزيرة كأنها تنبع من مكان سحيق في القلب وتغسل سائر البدن .. ثم ما لبثت أن هدأت واشرق وجهها الشمعي بطيف ابتسامة .

مدت ذراعها الواهنة إلى حيث يتسلل الضوء من الباب المشرع .. هتفت :

- أبي .. لماذا تأخرت ؟

وسقط رأسها في حجر سكينة .

❋❋❋

(15)

استيقظ أهل غزة على قرع الطبول .. طبول كبيرة وزعت على مآذن المساجد منذ الصباح الباكر .. وظلت تقرع حتى صلاة الجمعة .

الجامع الأيبكي ليس له مئذنة .. صعد قارع الطبل على سطح المسجد .. تحلق الناس حوله واجمين .. أول الواصلين كان كبير البطوش .. ثم تلاه الريفي فالسويسي .. فشيخ الحارة .. ثم سالم .. والكلاغاصي .. وشهوان ومبارك .. وآخرهم كان الزهار .. تردد طويلاً قبل أن يغلق دكانه ويهرع إلى حيث تجمعت الحارة .

قال شيخ الحارة :

- هذا طبل الرجوف .. آخر مرة قرع فيها حين أعلن السلطان الحرب على المسكوب .

هز كبير البطوش رأسه :

- هي الحرب إذن .

ردد الحاضرون :

- يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف .

بدأ بعضهم في قراءة آية الكرسي آخذاً بالتحويط حتى يبعد عنه الشر .. النساء احتشدن في اقرب البيوت إلى المسجد .. تركن طواحين القمح ومغازل الصوف .. أخذن يولولن ويندبن الحظ العاثر الذي جعل الحرب تقع على أيامهن .. ضربت زوجة شيخ الحارة صدرها .. وهي تدعو والدموع في عينيها :

- يا رب حن على هالشباب وهالأطفال .

دخلت سكينة فاصطدمت برقية زوجة سالم وهي خارجة تزمجر فصاحت بها :

- روحي عالحرب يا رقية .. بس القوم يشوفوكي برجعوا .. ويمكن يطقوا ويموتوا والسلطان بعطيكي الحلوان .

ردت رقية بلؤم :

- أحسن ما يشوفوا مياصتك ويطمعوا في بنات المسلمين .

تضاحكت النساء .. قالت زوجة شيخ الحارة :

- الله يجازيكي يا سكينة .. ضحكتينا والدموع في عينينا .

قبل آذان الجمعة توقف قرع الطبل .. صعد الشيخ محمود وحبوش الأعمى الى سطح المسجد .. قرأ الشيخ محمود بصوت جهوري الفرمان السلطاني ..

- من أمير المؤمنين وخليفة المسلمين .. السلطان سليم خان .. حامي حمى الحرمين الشريفين وخاقان البرين والبحرين .. وظل الله في الأرضين .

أما بعد :

يا جماعة الموحدين .. وملة المسلمين ..اعلموا أن الطائفة الفرنسية .. جعل الله ديارهم دارسة .. وأعلامهم ناكسة .

سكت الشيخ محمود حتى يؤمن أهل الحارة على دعاء السلطان .. فأمنوا بأصوات متفرقة .. وبدون حماس .. فتابع الشيخ القراءة :

لأنهم الكفرة الطغاة .. والفجرة البغاة .. لا يؤمنون بوحدانية رب السماء والأرض .. ولا برسالة الشفيع يوم الفرض .. بل تركوا الأديان كلها .. ونكروا الآخرة .. ولا يعتقدون بيوم الحشر والنشر .. ويزعمون أن لا يهلكنا إلا الدهر .

مال سالم على نظمي أفندي :

– أليس هذا اعتقادك أيضاً .. لعلك تقرأ أنت والفرنسيس على شيخ واحد .

أشار له الكلاغاصي بالسكوت فسكت .. تابع الشيخ محمود :

– حتى أنهم نهبوا أموال كنائسهم .. وحملة صلبانهم .. وأغاروا على قسوسهم ورهبـــانهم .. وزعموا أن الكتب التي جاء بها الأنبياء هي كذب صريح .. وليس القرآن والتوراة والإنجيــل إلا زوراً وأقاويل .

تحسبن الريفي بصوت جهير .. وأخرج علبة نشوقه .. تنشــق وعطــس .. ســرت همهمة في الجمع الحاشد .. اهتزت العمائم البالية وتماوجت القنابيز المرقعة .. تحسبن الناس وحوقلوا وهو يستشرفون خطراً لا يدركون كنهه .

تابع الشيخ محمود :

– ويقولون أن الناس كلهم متساوون في الإنسانية .. متشاركون في البشرية .. ليس لأحد على أحد فضل أو مزية .. وعلى هذا الإعتقاد الباطل .. والرأي الهازل .. بنوا قواعــد جديــدة .. وقوانين أكيدة .. وشبوا على ما وسوس لهم الشيطان .. وهدموا قواعد الإيمـــان .. وحللـــوا لانفسهم المحرمات .. وأباحوا لأنفسهم ما تميل إليه الشهوات .

وقد افتتنوا بين الملل .. وألقوا الفساد في الملوك والدول .

بعد أن انتهى الشيخ محمود من القراءة .. لكز حبوش كي يرفع الآذان .. رفع حبوش آذان الجهاد .

– حي على الجهاد .. حي على الجهاد .. الله أكبر .. الله أكبر .. لا إله إلا الله .

دخل الرجال المسجد لأداء الصلاة .. وتفرقت النساء إلــى بيــوتهن .. أمــا طبــوع أبوالرواكي فقد وجدها فرصة ليفر من معلمه (الاسي) السقاء حل قربة الماء عن ظهره .. رمى بها إلى جدار الساقية .. ركب جريدة نخل وحمل سيفاً من الخشب ..سار يتبعه صـــبية الحارة وهم

يهتفون :

الســــلطان حامينا .. ويلك ياللي تعادينا

إللــــــي معــانــــــا الله معــــــــاه

وإللـــــي علينـــــا الله عليــــــــــه

بعد الصلاة لم ينس حبوش أن يدعو الناس إلى الإكثار من قراءة الموالــد .. وعمــل الختمات .. وترديد الأوراد والأدعية .. حتى يكشف الله الغمة عن المسلمين .

قال له شهوان :

- في الحرب تروج صنعتك يا حبوش وتبور صنعتي .. سوف تكون قبور كثيرة تشبع فيها لطماً وقراءة وصرف ختمات .. أما الشبابة فهي طائر الفرح .. لا أظن لها مكاناً في هذا السواد القادم.

هز حبوش رأسه يمنة ويسرة .. وهو يعوذ نفسه بالله من عين شهوان التي تفلق الحجر .. ومضى أدراجه وصوته يهدر على الطريق .. (من شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد).

مبارك لم ينتظر حتى يصلى السنة .. حمل نسخة من الفرمان السلطاني .. طار بها إلى تاج الدين .. قرأ له نص الفرمان .. وانتظر تعليقه .. ظل تاج الدين صامتاً متشاغلاً بحبات المسبحة يحركها بين أصابعه .. سأله مبارك :

- ماذا تقول في ذلك يا مولانا ؟

- أقول يا مبارك قوله تعالى : ((ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع .. ونقص من الأموال والأنفس والثمرات .. وبشر الصابرين)) .

حين وصل الخبر إلى وادي الزيت .. قال المقدم صقر :

- هذا كله جاء في الجفر .

التفت إليه الحاضرون فتابع حديثه :

- حينما أدركت التبع اليماني الوفاة .. بعد أن طعنه كليب وائل .. أمرهم بأن يكتبوا عنه ما علمه من الجان .. حول مصير الدنيا وما سيقع فيها بعد وفاته .. وقد سمي هذا الكتاب الجفر .

سأل جوهر :

- وما علاقة الجفر بما نحن فيه .

- تنبأ التبع بخراب غزة واللد والرمله .. فقد جاء في الجفر .

وتخرب غزة وأطرف يبنا .. ويعلى الضيم لد والرمال

ويصير الوبش ما يحمي عجوز .. ويصير العز في ظهور الجبال

نظر الحاضرون إلى يونس لسماع تعليقه .. لم يعلق بشئ

سأل جوهر :

- أتؤمن بهذه الخرافات وأنت المقدم صقر ؟!

نظر المقدم صقر الى يونس مستنجداً .

قال يونس وهو يربت على ظهره :

- يا صقر قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .. هو مولانا فنعم المولى ونعم النصير .

❋ ❋ ❋

دخل جوهر خان الزاوية .. لم يكن الرواق الخارجي للخان مكتظاً .. رغم أن هذه هي الليلة الرابعة من ليالي رمضان .. ورغم أن الشاعر الماوردي كان يتصدر المكان على دكته العالية .. يصول ويجول :

(صرخ إبراهيم الحوراني بعالي الصوت) :

- نجاب وحامل كتاب .

انهزت دروندات الجبال من عزم صوته .. مال ملك الافرنج مرعوب على جيوان المتلاعب بالأديان .

- يا جيوان إيش هالرعد القاصف وإحنا في تموز العنب والتين .

قال جيوان :

- يا مولانا هادا مش رعد .. هادا صوت نجاب المسلمين .. جايب لك مكتوب من الظاهر بيبرس.

اصفر وجه الملك :

- إذا كان هادا صوت المسلمين .. كيف أفعالهم يا جيوان .

قال جيوان :

- لا تتغر يا مولانا .. هدولا المسلمين حس من غير أريه .. بس تمطر الدنيا بفشفشوا وبموتوا زي الجعارين .. وبنعمل الجوامع صوامع .. والمدارس كنايس .. وبنصير أفخر ملوك الأرض .. من طولها والعرض .

اتخذ جوهر مجلسه إلى جانب شهوان .. طلب له شهوان كأساً من السحلب :

- أين ذهب الناس ؟ أمس لم تكن تجد مكاناً من كثرة الزحام .

ناوله الصبي الكأس .. ارتشف رشفة من الشراب الساخن :

- يبدو أنك لم تسمع النبأ ؟

- أي نبأ يا شهوان ؟

- احتل الفرنسيس قلعة العريش .. وهم يعدون العدة للزحف على غزة .

غص جوهر بشرابه :

- هيا بنا نلحق بيونس .

في مضافة شيخ التفاح كان الخبر قد سبقهم .. جلسا بين أهل الحارة واجمين .. تابع شيخ الحارة :

- أرسل بونابرته رسولاً إلى أحمد باشا الجزار يعلمه بقدومه ويطلب إليه المسالمة .. لم يتنازل الجزار بالرد عليه .. أرسل رسولاً آخر .. أمر الجزار بقتله وصلبه على سور عكا وأمر عماله وقادة جنده بالإستعداد لقتال الفرنسيس .

قال يونس :

- زارني درويش باشا أمس وقال لي (أنت فارس عظيم .. وحولك المغاوير من رجالك .. لو حاربت معنا فلن تنسى الدولة معروفك) .

لو رأيته يا عمي .. ذلك الديك التركي .. تحول إلى دجاجة هزيلة ترتعد من الخوف.

- بم أجبته ؟

- قلت له تمنيت لو أن هؤلاء الغزاة مسلمين مثلنا .. إذا لقاتلناكم معهم جنباً إلى جنب حتى نخلص الأرض من ظلمكم وفسادكم .. أما وهم كفار فأغلب الظن أننا سنلتزم الحيدة .. ولينصرن الله من يشاء .

دخل سالم المضافة مهرولاً .. ألقى التحية وجلس يلهث .. التفت إليه شيخ الحارة :

- هات ما عندك يا ابن أخي .

- نصارى المدينة المائة .. تركوا بيوتهم في عهدة خوري الطائفة ورحلوا إلى الجليل .. خافوا أن يتهمهم الباشا بالموالسة مع الفرنسيس لأنهم مثلهم على دين المسيح .. ويتخذها ذريعة لنهب أموالهم .

- ثم ماذا يا بشير الخير ؟

- الأتراك أيضاً بعثوا عوائلهم إلى اسطمبول مع حريم الباشا .

قال شهوان :

- هكذا يخص الباشا سارة بكل وقته .

دخل نظمي افندي يتبختر في مشيته كالطاووس .. يحمل البشرى لأهل الحارة ..

– صارت غزة أمنع من عقاب الجو .. إمدادات تصل تباعاً .. أطواب وعدة حرب .. قبيقول وانكشارية ومماليك (لاحظ نظمي أنهم لم يتحمسوا لحديثه فأراد أن يفاجئهم بخبر لم يتوقعه أحد) .

درويش باشا أبطل السخرة والمظالم ونهب الأرزاق .. وأعلن أن كل إنسان من دون حقه.

قال شيخ الحارة :

– وفيم العجلة .. كان أجدر به أن ينتظر حتى يدخل الفرنسيون غزة ثم يفاجئهم بإعلانه العظيم .

تجاهل نظمي أفندي ملاحظة شيخ الحارة التي لم تكن ودية على الإطلاق وتابع الحديث :

– لقد عدت لتوي من معسكر المماليك.. رأيت إبراهيم باشا وهو يشرف على تدريب عسكره .. االله االله كيف يحسن هؤلاء المماليك ألعاب الفروسية .. وأبواب الحرب من كر وفر ومجالدة بالسيف .. لو رأيتم خيلهم الأصيلة أين منها خضرة دياب ابن غانم .

قال يونس :

– ألم يرسل إبراهيم باشا زوجاته وأمواله إلى نابلس في القافلة الأخيرة ؟

رد عليه شيخ الحارة :

– ذلك لشدة ايمانه بالنصر .. لو كان جحا بفلح لفلح أرضه .. لماذا لم يحاربهم في مصر بدلاً من الهروب بمماليكه كل هذه المسافة .

نهض يونس مهموماً وذهب إلى بيته في الحارة .. كانت فاطمة مريضة .. جاءها الوحم شديداً هذه المرة .. وإنه ليخشى أن تتفاقم حالتها رغم عناية أمها ومرجانة وسكينة وكل جاراتها .

حين دخل البيت فوجئ بمبارك يجلس حزيناً وقد وضع رأسه في راحتيه :

– أنا رسول تاج الدين إليك .

– السمع والطاعة .. هيا بنا .

– لا يريد تاج الدين أن تذهب إليه .. بل يريد أن تصدق النية على الجهاد .. أن تعد لهؤلاء الفرنسيين ما تستطيع من قوة ومن رباط الخيل .. وأن لا تستنكف من القتال بقيادة الجزار أو أي من رجاله .. فجهاد الكفار تحت راية حاكم فاسق جائز في الإسلام ولا ينقص في الثواب عن الجهاد خلف الإمام العادل .. مادام ذلك دفاعاً عن ديار الإسلام .

وقد أرسل تاج الدين فتواه تلك لكل تلاميذه وأنصاره ومن توسم فيهم الغيرة على الدين والوطن .

– عجبت لتاج الدين .. يفتي بالخروج على سلطان الحاكم الظالم ونقض البيعة له في عكا ثـــم لا يلبث أن يدعو الناس إلى الجهاد خلفه في غزة .

– لقد اراد تاج الدين أن يخرج بنفسه لمجاهدة الفرنسيس .. وكتب إلى الجزار يستأذنه في ذلك ويحثه على الصمود في وجه الكفار صابراً محتسباً ويبين له ما للجهاد من فضل على ســـائر العبادات .

– وبماذا أجاب الجزار ؟

– أمر بتشديد الحراسة عليه في السجن وعين للسجن آمراً جديداً لا يتهاون أبداً وله عيـــون لا تغفل ولا تنام .

– ولماذا لم يخرج عنوة وتحت ظلال السيوف كما أردنا له ؟

– لا يريد أن تساور الجزار الشكوك حول مقاصده فيثبط ذلك من عزمـــه وتصـــميمه علـــى مقاومة الفرنسيس أو يشتت جهوده بين مقارعة الغزو وملاحقة الشيخ وأتباعه .

– وأنت يا مبارك ما الذي تراه ؟

– سألني شيخي مرة .. هل تدري يا بني لم خلقنا الله ؟ أجبت بقوله تعالى (وما خلقت الجـــن والإنس إلا ليعبدون) قال أوتدري ما هي العبادة : قلت الصلاة والصوم والزكاة والحج .. قال يا بني كل ذلك مدخل إلى العبادة فقط .. لقد استخلفنا الله في أرضه ولا تصح العبادة إلا بحسن الإستخلاف في الأرض .. إن علينا أن نسمو بأنفسنا عن الدنايا .. وأن ننحاز إلى جانب الخير في صراعه مع الشر .. وإلى جانب الحق في صراعه مع الباطل .. وإلى جانب الجمال فـــي صراعه مع القبح والدمامة .. عندها ينظر الله إلينا فنجمل في عينيه ويباهي بنا الخلائق .

ربت يونس على كتف مبارك بحنو وهو يصاحبه إلى الباب :

– لم يضع وقتك سدى مع تاج الدين يا مبارك .



اصطحب يونس جوهر واثنين من العبيد إلى سوق السروجية .. أصدر يونس تعليماته لشيخ السروجية بما يلزم لخيله من إعداد وعدة .. إنحدر إلى سوق الحدادين اشترى ما طـــاب له من السيوف والدروع .. لم ينس وصية المقدم صقر .. اشترى لـــه طـــبراً مـــن البـــولاد المسقي .. عرج إلى الجباخانة حيث تباع الغدارات والبنادق والطبنجات .. كانت كل البنـــادق الدك بماسورة واحدة ولكن حسن حظه أوقعه في بندقية حسب ألا مثيل لها في العالم .. بندقية بماسورتين .. قال له البائع :

– هذه ألمانية .. تدك الماسورتين بالبارود والخرق .. ثم تطلق أول مرة وثاني مرة طلقـــتين متواليتين .

قلبها بيديه في إعجاب :

– هذا هو السلاح .

اشتراها دون أن يفاصل في السعر .

في طريق العودة مر يونس بخان الزيت .. أكبر خانـــات غـــزة .. كـــان البيـــك آل رضوان صاحب الخان يجلس على المصطبة .. بجانبه أبو الطايع صـــاحب خـــان الزاويـــة ورشيد عليان وعدد من وجهاء المدينة وأفنديتها .

حين لاح موكب يونس .. همس ابو الطايع في أذن البيك :

– الشيخ يونس صاحب وادي الزيت .. قم بنا لاستقباله .

هرعا إلى حصان يونس فأمسكا بلجامه .

قال أبو الطايع :

– هلا شرفت أخي وصديقي البيك بالنزول عنده قليلاً ؟

أضاف البيك :

– لقد سمعنا عنك كثيراً يا سيد يونس من تجار الزيت الذين ينزلـــون فـــي الخـــان وتشـــوقنا لملاقاتك والتعرف عليك .

ترجل يونس عن جواده .. سلمه لجوهر ومشى مع مضيفيه .. صافح الافندية الواقفين .. اتخذ مجلسه بين البيك وأبي الطايع .

ابتدره البيك مرحباً ..

– رمضان كريم .

– الله أكرم .

ثم تابع البيك وهو يشير إلى أحد الجالسين :

– لعلك تعرف صديقنا الدريملي شيخ الحدادين .. استدعاه درويش باشا لكي يدفع لـــه أجـــرة الحدادين الذين أعدوا السيوف والحراب والبلطات للجنود .
صديقنا رفض أن يقبل قرشاً واحداً .. قال للباشا (إن أجرنا على الله) .
هنأه يونس :
– بوركت وبورك رجالك وفي الحديث ((من جهز غازياً فقد غزا)) .
رد الدريملي :
– لست وحدي من فعل ذلك .. أهل حارة الزيتون اشتغلوا في إقامة التحصينات حول المدينة ليل نهار .. ورغم أن الباشا أبطل السخرة منذ سقطت قلعة العريش .. إلا أنهـــم رفضـــوا أن يتقاضوا شيئاً مقابل عملهم الدؤوب .
قال شيخ الحارة للباشا حين قدم له المال :
– لن نضن بأرواحنا في الدفاع عن بيوتنا وأهلنا .. فكيف نضن بالمال ؟ ثم أشار إلى عسكر الباشا من الأرناؤوط والشركس وغيرهم .. ادفع لهؤلاء يا باشا .. عسى أن يصمدوا في غزة ولا يفعلوا ما فعلوه في العريش .
سأل يونس كمن يدافع خاطراً كدر عليه صفوه :
– أتظنهم إذا اشتدت بهم الحرب يتركوننا ويفروا ؟
قال أبو الطايع في سخرية :
– إذا اشتدت ؟ وهل سينتظرون حتى تشتد .. لقد بدأوا في الفرار منذ الآن
تطوع رشيد عليان بتوضيح ما يقصده أبو الطايع :
– شيخ المشايخ تيمور الضرغام .. اصطحب غلامه يلماز وهرب إلى الشام تاركاً نســـــاءه الأربعة للدفاع عن المدينة .
تمتم يونس بغيظ :
– الفئران تتراكض خارج السفينة الغارقة .
قال البيك وقد لاحظ سيماء يونس :
– لماذا تكدرون ضيفنا بهذه الأخبار .. هل تريدون أن يزهد في مجلسنا ؟ لا تعرهم التفاتاً يا سيد يونس .. هذه المدينة محرمة على الكفار حسب ما يؤكد القاضي معروف .
أمسك البيك هنيهة ثم تابع :
– مولانا القاضي لاحظ أن الباشا في الآونة الأخيرة يوسع النفقة .. فقرر المساهمة في الجهد الحربي حتى ينوبه من الحب جانب .. صعد إلى الدبوية وقال للباشا (غزة هذه هـــي غـــزة هاشم .. والسيد هاشم جد الرسول هو المسئول عن حمايتها من الكفار .. وقـــد علمنـــا مـــن أجدادنا .. أن الكفار حين يصلون مشارف المدينة كل مرة .. يخرج لهم السيد هاشم بســـيف

من خشب .. فلا يكاد يشير بالسيف نحوهم حتى تطير رؤوسهم عن أجسادهم قولوا دستور يا سيد هاشم .

قال الحضور بصوت واحد :

– دستور .

تابع البيك :

– اقترح مولانا القاضي أن يخرج الدراويش وأهل الطرق بالعدة والصاجات والطبول .. وأن يطوفوا بالسيد هاشم ويتضرعوا له ويقعوا في عرضه حتى يقوم بحماية مدينته .

أعجب الباشا بالفكرة .. أجزل العطاء للقاضي ولمشايخ الطرق .. خرج بنفسه معهم .. شارك في حلقة الذكر التي نصبوها عند المقام .

علق يونس ساخراً :

– هكذا إذا ضمنا النصر على الفرنسيين .

حمل أهل الحارة نساءهم وأطفالهم إلى وادي الزيت .. ريثما تنجلي المعركة .. توزعوا على المغاور والكهوف .. بعضهم اتخذ له خيمة أوبيتاً من الشعر .. حين مر بهم شيخ الحارة يدعوهم إلى الجهاد قالوا له

– الجهاد يا شيخ الحارة في سبيل الله وليس في سبيل تيمور الضرغام وعصابته .

بعضهم كشف له ظهره ليريه أثر سياط الجباة .. حين عجز عن دفع ما على أرضه للملتزم .

البعض الآخر تخلص بلباقة خشية انتصار الأتراك .

– يا اختيار إحنا فلاحين .. الحرب صنعة العسكر .. إللى بياكلوا خبز السلطان يضربو بسيفو .

حين عاد إلى يونس لم يكن معه من أهل الحارة سوى مبارك وصديقيه رضوان البطش وفرج السويسي .. الذين جاءا كرمى لمبارك .. وشهوان والشيخ محمود .

جمع يونس رجاله ..

– كنتم لي نعم الأعوان .. حاربتم معي ببسالة .. أحسنتم الصحبة .. إني فخور بكم .. معركة غد لا تشبه أيا من حروبنا الماضية .. الذين أمامنا ليسوا عصابة من قطاع الطرق .. ولا قبيلة من القبائل الغازية .. هذا جيش لا مثيل له في عدته وعدده .. من شاركني القتال وأبلى معي بلاء حسناً فهو حر لوجه الله .. إن شاء مصاحبتي بعدها فله مكانة أخي جوهر .. وإن شاء أن يرحل فله ما يريد ونعينه على ذلك بكيس من المال

قال شيخ التفاح :

– لله درك .. لله درك .

تصايح العبيد :

– نحارب معك .. لقد رضيناك سيداً .. لن نخذلك مادام فينا رمق .

دخل يونس الدار .. كانت فاطمة تضع له الزوادة في خرج الحصان .. نظرت إليها كأنها تحاول أن تزود عينيها منه .. احتضنته بقوة .. قبلها في رأسها وأشار إلى مرجانة .. تساندت على كتف مرجانة وهي على وشك السقوط .

لاحظ أن الحمل بدأ يظهر عليها واضحاً .. كان ذلك شهرها الخامس .. سحب حصانه عند باب الفناء تلفت إليها .. كانت تجاهد الإغماء .

هتف بلوعة :

– استودعك من لا تضيع عنده الودائع .

لوح لها بيده .. ومضى .

قاد يونس رجاله إلى المدينة .. كانت رياح شباط تعول في الحقول .. محاولة اقتلاع كل شئ أمامها .. الأشجار السامقة أحنت هاماتها لكي تمر الريح .. عندما وصلوا ضريح أبي العزم .. هدأت الريح قليلاً .. توجهوا صعداً في الطريق إلى الدبوية .. اهتزت الشرفات بالهتاف والزغاريد .. لم يملك يونس إلا أن يشهر سيفه ويلوح به :

– الروح من دونكم .. الروح تفداكم .

استلم يونس ورجاله مواقعهم خلف التحصينات .. قبل غروب الشمس أشعل الرجال النار والتفوا حولها فيما تولى مبارك المراقبة .. هشم المقدم صقر رغيفاً من الخبز نصفين بطبره .. وأدناهما من النار .. انطلق آذان المغرب .. تناول يونس إبريق الماء وشرب .. (اللهم لك صمت .. وعلى رزقك أفطرت .. وغداً إن شاء الله نويت) .

احتج شيخ التفاح :

– أتنوي صيام غد وأنت تعلم ما سيكون فيه .

– والله يا عم ما أفطرت يوماً واحداً من رمضان منذ احتلمت .. ولا أنوي أن أفعل .. سوف أستعين بالله على ما سيكون .. والثواب على قدر المشقة

تناول الرجال إفطارهم بصمت وعيونهم تحدق في الظلمة .. خيم صمت ثقيل فادح .. حتى صوت الريح توقف .. حتى عواء بنات آوى .. همس شهوان للمقدم :

– أشعر بالوحشة يا عماه .. وحشة تنهش القلب .

– أما أنا فأشم رائحة أعرفها جيداً .

– أية رائحة يا عماه ؟

بدأ شهوان يرتعد وتصطك أسنانه :

– رائحة الموت .

في الفجر كان درويش باشا قد استكمل كل استعداداته لملاقاة الفرنسيين .. أقام التحصينات حول المدينة في الأماكن التي تهدمت من أسوارها القديمة .. نصب الأطواب داخل التحصينات .. وزع التعزيزات التي أرسلها أحمد باشا الجزار على المواقع المشرفة .

قال التفكجي باشا رئيس القراقول لمساعده لاظوغلي أغا :

– ما أظن هذه الأطواب صالحة للعمل .. فمنذ تجريده محمد أبو الذهب على بر الشام لم تجر صيانتها أو فحصها .. طلبت من الباشا تجربتها بعد سقوط العريش لم نجد بارودا ً .. حين وصل البارود كان الفرنسيون قد اجتازوا وادي غزة .. خشي درويش باشا أن يسمع بونابرت صوتها إذا جربناها فيأخذ حذره .

هز مساعده رأسا كرأسٍ الملفوف :

– عفارم درويش باشا عفارم .. معلوم لازم مفاجآت .. الحرب خدعة أفندم .

في السهل الذي يمتد من وادي غزة حتى أعمدة الشهداء .. على أطراف حارة الزيتون .. كان كلا الجانبين يحضر المسرح للحرب القادمة أربعة آلاف خيال بغداراتهم وسيوفهم اصطفوا في مواجهة عشرة آلاف من جنود نابليون .

في القلب اصطف وجاق القبيقول وعلى الميمنة وجاق الانكشارية وعلى الميسرة مماليك ابراهيم الهاربين من مصر .. الإسبهلية والعيوانية ومتطوعوا الحارات اتخذوا مواقعهم خلف التحصينات المحيطة بالمدينة .

صهلت مدافع الفرنسيين .. تساقطت القنابل المحكمة التصويب على الخيالة والتحصينات .. أصدر درويش باشا أوامره بالهجوم .. انطلق الخيالة للإلتحام بالجيش الغازي .. لم يبتعدوا كثيراً .. كانت طلائعهم قد وصلت مرمى رشاشات الفرنسيين .. حصدتهم النيران .. عادت بعض الخيول المصابة تسحب أشلاءها وتصيح مجنونة .. تأكد درويش باشا أن أحداً من خيالته لن ينجو إذا واصل هجومه .

اشتد قصف المدافع وعلت سحب الدخان .. لم يستطع فارس واحد الإقتراب من خطوط الغزاة .

وقع في ذهن درويش باشا بأنهم سحرة لهؤلاء الكفار .. لأن الذي رآه كان أقرب إلى السحر .. ذلك الخط الذي تساقطت عنده الخيالة ولم ينج أحد .

مرت ساعات لعينة قبل أن يأمر درويش باشا خيالته بالإنسحاب إلى داخل التحصينات .. استدعى درويش باشا رئيس الإنكشارية ورئيس المماليك إبراهيم باشا للتشاور .. فلم يعثر لهم على أي أثر .

باقي الخيالة والعسكر لم يتوقفوا طويلاً في انتظار تعليمات الباشا .. لم يبق حول التحصينات سوى بعض الجند والمتطوعين من الأهالي .. قال المقدم صقر لشهوان وهو يراقب رحيل

الجنود:

– ألا ترى هذا الطوب ؟ لقد استعملنا واحداً مثله في حرب المسكوب .. وأستطيع أن أعالجه .. تعال معي .

تبعه شهوان وهو ذاهل عن نفسه .. ها هي الحرب التي اشتهاها ذات يوم .

ناولني تلك القلة .. هناك .

انفجرت قذيفة للفرنسيين خلفهم .. قطع حصان شيخ الحارة عنانه وفر هارباً على وجهه .. حاول مبارك اللحاق به .. لكنه رآهما يعالجان المدفع فهرع إليهما .. يده مع يد شهوان .. حملا القلة والقماها بوز المدفع وضع المقدم صقر بعض البارود في الثقب وأشار بيده .. انبطحا على الأرض .. أدنى الشعلة من الثقب .. وانبطح هو الآخر .. دوى انفجار رهيب .. خرجت القلة تصفر باتجاه مواقع الفرنسيين .

– إلي بالثانية .

لكن الثانية رفضت الإنطلاق .. أشار لهم المقدم :

– أهربوا قبل أن تنفجر فينا .. ولو الأدبار ..

لمح يونس ثلاثة من خيالة الفرنسيين يقتربون من التحصينات .. مد ماسورتي بندقيته الجديدة باتجاهم .. فعل العبيد مثله .. قال شيخ الحارة

– إنهم يقتربون من أعمدة الشهداء .. هنا خاض صلاح الدين معركة فاصلة مع الصليبيين معركة أنقذت غزة من الأسر .

حبس الجميع أنفاسهم .. اقترب وقع السنابك .. صاروا في مرمى السلاح .. أشار يونس للرجال .. انطلق الرصاص .. أطلق يونس الطلقة الثانية على آخر الخيالة .. هتف شيخ التفاح :

– الله أكبر .. لقد سقط الثلاثة بين الأعمدة .. سقطوا على آثار من سبقهم من الغزاة .. أعاد يونس ورجاله تعبئة بنادقهم وانتظروا .. لم يظهر أمامهم أحد .. أشار أحد العبيد :

– إنهم يجتازون التحصينات .. هناك انظروا .

هتف يونس :

– إليَّ بالأشعل .

امتطى جواده وصرخ :

– فتحت أبواب الجنة .. لبيك اللهم لبيك .

لكز جواده فطار به إلى حيث الفرنسيس .. لم يكد يبتعد حتى عاجلته قذيفة مدفع .. رآه شيخ الحارة يطير بحصانه إلى السماء السابعة ثم يهويان .. كلاهما إلى الأرض .. القذيفة الثانية عجنت لحمه بلحم حصانه .

أعول جوهر :

- الحياة بعدك حرام .. وانطلق إلى موقع الفرنسيس .

شيخ التفاح أحس الضربة تقصمه .. ظل ذاهلاً خلف التحصينات إلى أن اجتازه الجيش المهاجم .. هدأ كل شئ حوله .. خيم صمت فادح فداحة الفجيعة والثكل .. لم يعرف شيخ الحارة كم مر عليه من الوقت .. قبل أن يعود حصانه الهارب .

مد الحصان رأسه وأخذ يمرغ وجهه في صدر شيخ الحارة .. أمسك شيخ الحارة بلجامه وقاده إلى حيث سقط يونس .. جمع ما استطاع استخلاصه من جسد صهره ووضعه في خرج الحصان .

انطلق إلى مقام سيدنا هاشم .. فتح باب المغارة تحت المقام وسجى بقايا صهره .. أهال التراب على باب المغارة ووقف يقرأ الفاتحة .. قبل أن يغادر التفت نحو المقام :

- ها هو واحد من أرومتك يرقد إلى جوارك وقد نال الشهادة .. فلنعم الجوار في الدنيا والآخرة .. لنعم الجوار في الدنيا والآخرة .

تذكر فاطمة فانخرط في البكاء .

أحاطت خيول الفرنسيين بجوهر من كل جانب .. صاح قائدهم :

- أريده حياً .

ألقوا عليه الحبال .. كتفوه وطرحوه أرضاً .

سأله بونابرته :

- لماذا تحارب وقد هرب العسكر وأهل المدينة ولم يبق سواك ؟

أجاب جوهر :

- قتلتم سيدي يونس .. أعيدوه لي حياً إذا أردتم سلمي .

هز نابليون رأسه بأسى :

- لا نستطيع إحياء الموتي أيها العبد الوفي .

ثم أشار بيده :

- خذوه مع الأسرى .

التفت ساري عسكر إلى الضباط خلفه :

- تقدم يا شامبليون .. ها هي أول مدن الشام الكبيرة تسقط في أيدينا .. ما أسهل ما أحرزنا من نصر .. ماذا تقول كتبك عن هذه المدينة ؟

- سيدي !

- أعرف يا شامبليون أن هذا ابتذال .. لكن نبذة صغيرة لن تضير جلال التاريخ في شئ .. كم عمر هذه المدينة ؟

- المدينة موجودة منذ عصر البرونز .. (كانت الخيل تخب بهم صعداً إلى غزة) .. لم تكن تحمل نفس الإسم أو الملامح .. لكنها كانت في أوج ازدهارها حين غزاها الهكسوس قبل ستة آلاف سنة .

- أوج ازدهارها .. يا لمبالغاتكم أيها المؤرخون .. هل كانت باريس مثلاً

- لم تكن باريس موجودة في ذلك الوقت .. ولم تكن فرنسا أيضـــاً موجـــودة كـــان أجـــدادنا يخوضون عراة في مستنقعات ما حول نهر السين ..

في الوقت الذي بنى فيه أهل هذه المدينة القصور المزودة بغرف الإستحمام الرحبـــــة ومجاري المياه .. وغرف النوم ذات الأسرة المصنوعة من الخشب .. والوســـائد المحشـــوة بريش النعام .. كانت شوارع هذه المدينة في ذلك الوقت معبدة .. تقطعها العربات التي تجرها الخيل .. إن أهلها يا سيدي أصحاب حضارة رائدة .

- حضارة ؟! أهذه المسوخ المتخلفة هي وارثة تلك الحضارة .. تباً للحضارة إذن .

سكت شامبليون ممتعضاً .. لكن القائد استحثه :

- أكمل يا شامبليون .

- حكمها الهكسوس حين حكموا مصر .. فلما انتصر عليهم أحمس أول ملوك مصر وأجلاهم عن بلاده .. طارد فلولهم إلى هذه المدينة .. ثم دمروها على رؤوسهم تدميراً شاملاً .

- متى حملت المدينة هذا الإسم ؟

- حين عمرها الكنعانيون منذ ثلاثة الاف سنة قبل الميلاد .. سموها غزة ومعناها في لغتهم (العزة والكبرياء) .. توالت عليها الغزوات طمعاً في مركزها التجاري بيـــن مصـــر والشـــام وجزيرة العرب .. إضافة إلى خصوبة أرضها وكثرة غلالها .

- ماذا سيقول التاريخ عني يا شامبليون ؟

- ما قاله عن الفاتحين العظام قبلك .. هذه المدينة يا سيدي هي ســـرة العالم .. كلهم مروا من هنا .. الذين فتحوا الشرق والذين فتحوا الغرب أيضاً .

أحمس .. نبوخد نصر .. الإسكندر .. يوليوس قيصر .. منهم من ترك توقيعه علـــى قطعة من النقود أو كسرة من الآجر .. ومنهم من لم يفعل .. كلهم جاءوا وذهبوا وبقيت هـــذه المدينة .. لا الزلازل ولا الأوبئة ولا الطوافين استطاعت أن تقتلها .. في كل مرة كانت تولد من رمادها

كما تولد العنقاء .

- أرى أنك وقعت في حب هذه المدينة يا شامبليون .. هل ستشفيك من حـــب وادي الملـــوك وحواضر الفراعنة ؟

- المدن كالنساء يا سيدي .. كل مليحة بمذاق .

– إذا كانت المدن كالنساء كما تزعم فإن غزة لا تبدو لي أكثر من عجوز حيزبون .. أما زلتم تعملون في كتاب وصف مصر ؟

– نعم يا سيدي .

– ربما توجب على علمائنا إضافة فصل عن وصف سوريا .. أم أنك ترى وضع ذلك في كتاب مستقل ؟

– الأمور مرهونة بأوقاتها يا سيدي .

اقترب أحد الفرسان من بونابرت وأدى التحية .

– ما وراءك يا بورين ؟

– وجهنا قوة إلى القدس عن طريق الرملة .. وقوة أخرى لتعقب الجيش المنهزم حتى مشارف يافا للبدء في حصار المدينة .. ريثما تصل باقي قواتنا .

– يافا أمرها هين يا بورين .. المهم لدي عكا .. لو فتحت عكا فإنني سأجد فيها كنوز الجزار .. وأسلحة تكفي ثلاثمائة ألف جندي .. عندها أهيج أهل سورية الذين يبغضون الجزار لظلمه وأسلح منهم جيشاً عرمرماً أفتح به دمشق وحلب .. سينضم لي الأهالي كمخلص لهم من المظالم .. أسير بهم إلى الآستانة .. وأنشئ في المشرق امبراطورية عظيمة الشأن .



(16)

على باب الدبوية استعرض نابليون حرس الشرف .. عانق الجنرال كليبر قائد معركة غزة .. هنأه على انتصاره .

– ماذا عندك يا كليبر ؟

أشار كليبر إلى صف من الرجال خلفه :

– هذا وفد من العلماء والوجهاء .. على رأسهم قاضي المدينة .. جاءوا يناشدوك أن تحقن دماء الأهالي وترفع السيف عنهم ..

نظر نابليون إلى حيث أشار .. التقت عيناه بعيني القاضي معروف .. ارتجف معروف وهو يحس بعيني ساري عسكر تخزه كالمخرز .. حضن كرشه بيديه وبلع ريقه وهو يقول في نفسه :

– يا لقرد طول شبر .. ثم راجع نفسه وهو يرى ابتسامة ساري عسكر .. نعم هو بالغ القصر لكنه حسين الوجه .. وهذه الغرة على جبينه تزيده جمالاً وتألقاً .. ثم أنه في ريعان شبابه .. حسبته أسن من ذلك .

نقل معروف بصره في القادة والجند .. لاحظ أن وجوههم حليقة وناعمة كوجوه النساء .. تعجب كيف استطاع هؤلاء المخانيث الإنتصار على جنود السلطان الذين يتباهون بشواربهم ولحاهم .

التفت بونابرت إلى رجل معمم كان يقف خلف كليبر :

– تأكد يا شيخ دسوقي أنهم قد حفظوا درسهم جيداً قبل أن تدخلهم علي ..

انحنى الشيخ الدسوقي :

– أمرك يا سيدي .

تابع بونابرت حديثه مع كليبر وهو يتقدمه صاعداً درجات الدبوية إلى مكتب درويش باشا الذي أصبح منذ الساعة مقراً لساري عسكر .

– هل وجدتم في بيت درويش باشا ما كنا نجده في بيوت المماليك من كنوز وجواري وخلاف ذلك ؟

– كلا يا سيدي .. لم نجد سوى سارة .. تركناها في القصر تشرف على إعداد وليمة العشاء التي ستقيمها المدينة بعد غد تكريماً لكم ولقادة الجند .

– سارة .. هل هي ؟
– نعم يا سيدي .. شقيقة داوود التي كانت ترسل التقارير لنا عن أحوال المدينة .

عمل القاضي معروف بهمة ونشاط منذ طلبت منه سارة المساهمة في حفلـــة العشـــاء التي تعدها لبونابرت .

تعقب الزغاليل في المدينة والحارات حتى جمع منها مـــائة زوج .. اســـتعان بنســـاء الجيران في العمل .. وحين ظن أن الوقت لم يعد كافياً خلع جبته وعمامته .. شمر أكمام ثوبه .. جلس بنفسه يساهم مع النساء في تنظيف الزغاليل .. ناداه أبو الطايع ليستوضح منه جليـــة الخبر في موضوع العشاء هذا .. خرج له والريش على رأسه ولحيته .. ضحك أبو الطايع :

– أيها الخادم الشقي .. إذهب واستأذن لي بالدخول على سيدنا القاضي .
– لا وقت للمزاح يا أبا الطايع .. فالعشاء الليلة إذهب وجهز ما طلبته منك سارة .
– الحمد لله أنها لم تطلب مني الزغاليل المحشوة .. إذن لصار حالي من حالك يا مولانـــــا .. الخرفان أمرها هين .. وجزار الخان تولاها بعنايته .. عاد إلى الضحك .
– ولكن هل تظن أننا نفعل الصواب ؟
– طبعاً نفعل الصواب .. لقد أعطانا ساري عسكر الأمان .. وإن جنحوا للسلم فاجنح لها .
– والجزار الهادي المهدي ؟!!
– الجزار انتهى أمره .. لن يصمد عسكره في عكا إلا بمقدار ما صمدوا في غـــزة .. لكـــل زمان دولة ورجال يا أبا الطايع .

قال ذلك وهو يدخل بيته ويغلق الباب خلفه .

تفننت ساره في ترتيب وليمة العشاء الفخمة .. تسابق المنافقون في تقديم مـــا طلبتـــه ساره عن رضى وطيب خاطر .. المشويات والمقالي .. لحوم العجول الصـــغيرة المطبوخـــة باللبن الرايب .. الحملان المشوية على الفحم .. أو المحشوة بالفريـــك واللـــوز .. الزغاليـــل والدجاج والديوك والبط والحبش .. الكباب والكفتـــة .. خـــبز القمـــح الغـــزاوي .. أطبـــاق الحلوى .. كنافة غزة المعمرة بالجوز .. أما الشراب فقد أصر نابليون ألا يضـــعوا المســـكر على مائدته احتراماً لشهر رمضان المعظم .. وإكراماً للمشايخ الذي يشيعون فـــي العامـــة أن ساري عسكر يكتم إسلامه تحيناً للفرصة المناسبة حتى يظهره على الملأ .

الضباط والقادة الذين جلسوا بعيداً عن طاولة ساري عسكر .. ســـطوا علـــى تركـــة درويش باشا من نبيذ الجليل المعتق في قبو الدار .

أبدت سارة اثناء الحفلة من ضروب الحفاوة بضيوفها .. ما جعل نـــابليون يصـــر أن تجلس على يمينه .. بينما جلس على يساره سيدنا القاضي معروف معززاً مكرماً .. يحيط بهم الأفندية والوجهاء وكبار القادة ..

حين انتهت الحفلة صحبها نابليون لقضاء باقي السهرة معه في الدبوية .

أسفرت تلك الليلة عن كتابين ممهورين بخاتم ساري عسكر .. الأول ينص على تعيين شقيقها داوود مستحفظانا لغزة وتوابعها .. والثاني بيان من نابليون لتوزيعه على يهود فلسطين .

أصرت ساره على أن تحمل البيان بنفسها إلى حاخام الطائفة في القدس .. قرأ الحاخام البيان وهو يشرق بالدمع :

– ((إن العناية الإلهية أرسلتني إلى هنا على رأسِ جيشي هذا .. وقد جعلت العناية الإلهية نشر العدل وتحقيقه مطلبي .. وتكفلت بظفري المستمر .. وجعلت القدس مقري العام .. وبعد قليل سوف تجعل مقري في دمشق .. وسوف أكون جارا لبلد داوود .. يا ورثة فلسطين الشرعيين .

إن الأمة العظيمة التي تتجب الرجال تناديكم الآن .. لا للعمل على إعادة احتلالكم لوطنكم فحسب .. ولا لإسترجاع ما فقد منكم .. بل لأجل حمايته من جميع الطامعين بكم .. ولكي تصبحوا أسياد بلادكم الحقيقيين .

انهضوا وبرهنوا على أن القوة الساحقة التي كانت لأولئك الذين اضطهدوكم .. لم تفعل شيئاً ولم تثبط همة ابناء الأبطال .. أجدادكم الذين كانت محالفتهم تشرف اسبرطة وروما .))

حين انتهى من القراءة .. مسح دموعه .. وقال لساره :

– لا أدري يا ابنتي ماذا كنا نصنع بدونك .. فليباركك الرب كما بارك استير .



اتخذ شيخ الحارة مجلسه في المضافة .. كانت أيام العزاء في يونس قد انتهت .

دخل نظمي أفندي .. القى التحية .. ناوله شيخ الحارة فنجان القهوة وسأله :

– كيف الأحوال ؟

– عادت المدينة إلى سابق عهدها .. الدكاكين فتحت أبوابها .. والأسواق اكتظت بالناس ..

في البداية .. كان السابلة ينطلقون بحذر .. ولا تخرجهم من بيوتهم إلا الضـــرورة .. وشـــيئاً فشيئاً انتظمت الدورة .. مطالب الحياة لا تنتظر .. وتكاليف المعيشة لا يمكن دفعها .. لكـــن والحق يقال .. الناس ليسوا كالسابق يا شيخ الحارة .. إنهم يسيرون منكسري النفس .. الحزن يطل من عيونهم .. يترحمون على من مات .. ويشفقون على من بقي حيا تحت سلطان هـــذا الفرنسي الكافر .

– سمعت أنك عدت إلى عملك في الدبوية يا نظمي أفندي .

– طلب ساري عسكر من القاضي معروف وباقي الموظفين العودة إلى وظائفهم .. وقـــال أن مراده أن يبقى دين الإسلام معتزاً .

– ومثل ساري عسكر من يعز دين الإسلام وأيم الحق ؟

– لماذا تسخر مني ؟ أنا لست ملاّكاً مثلك .. ولا أجيد حرفة أخرى أعيش منها .. إذا تركـــت وظيفتي ألف واحد غيري يتمنى القيام بها .

– أنا لا ألومك يا نظمي أفندي .. على الأقل سنعرف منك أخبار أمير الفرنسيس .

– ساري عسكر .. عين داوود شقيق ساره مستحفظاناً لغزة مكان درويش باشـــا .. طـــرت بالخبر إلى رشيد عليان .. قلت له أن نسيبك صار مستحفظان غزة .. ويا بخت من كان إلـــو ضلع في السلطنة .

– وماذا فعل رشيد أفندي ؟

– جمع ما يستطيع من أمواله وهرب إلى الشام .. أعطاني ذهبية حتى أكتم خبر هروبه عـــن المستحفظان .

– وهل كتمت ذلك ؟

– كيف أبيع إبن ديني للكفار ؟

– شهم يا نظمي أفندي .

وضع الكلاغاصي الفنجان واستأذن في الإنصراف .

حمل شيخ الحارة بكرج القهوة وفناجنين ودخل إلى الدار .. لم يكن من عادته أن يفعل ذلك .. لكنه منذ فجعت فاطمة في زوجها لا يدع فرصة تفوته دون أن يظهر حدبه عليهـــا .. صـــب لزوجته فنجان قهوة .. وصب لفاطمة فنجاناً .. وحين أبت أقسم عليها :

– ورحمة يونس تشربيه .

تناولته ساهمة :

سألته زوجته :

– هل هناك أخبار عن مبارك ؟

– مبارك بخير .. كم مرة يتوجب علي أن أخبرك ؟

- هل مازال ؟

- نعم إنه مازال يجمع الرجال وينظم صفوفهم للجهاد .

- الله يرضى عليه بقدر إبزازي ما درت عليه .

انخرطت في البكاء .

- لماذا تبكين .. حق لك أن ترفعي رأسك عالياً وأن تفخري به .

سلمناه لتاج الدين .. فنفخ فيه من روحه .. وولاه قيادة المجاهدين رغم أنه أصغرهم سناً .. وها هو يطاول برأسه رأس ساري عسكر .

- أعلم يا رمضان ولكن قلب الوالدين مشوم .

قالت ذلك وهي تمسح دموعها .

نظرا إلى فاطمة .. كانت ماتزال ساهمة وكأنها لا ترى ولا تسمع .

دخل سالم المضافة .. وجد عمه ساهماً أمام بكرج القهوة .. ألقى التحية .

رد شيخ الحارة بفتور .. صب له فنجاناً من القهوة .. قال سالم :

- يا عمي ألم تقرأ المنشور الذي وزعه الفرنسيس على الأهالي ؟

أخرج واحداً من جيبه وبدأ يقرأ بتمعن :

- (من طرف بونابرته أمير الجيوش الفرنسية .. إلى كافة المفتين والعلماء وكافة أهالي نواحي غزة والرملة ويافا .. حفظهم الله .

نعرفكم أننا حررنا هذه السطور .. لنعلمكم أننا حضرنا هذا الطرف .. بقصد طرد المماليك وعسكر الجزار عنكم .. وإلى أي سبب حضور عسكر الجزار .. وتعديه على بلاد يافا وغزة التي ما كانت في حكمه .. وإلى أي سبب أرسل عسكره إلى قلعة العريش .. وبذلك هجم على أرض مصر .. فلا شك أن مراده إجراء الحرب معنا .. ونحن لهذا حضرنا نحاربه .. وقصدنا أن القضاة لا يتركون وظائفهم وإن دين الإسلام لا يزال معتزاً ومعتبراً .. والجوامع عامرة بالصلاة .. والذي يتظاهر لنا بالحب يفلح والذي يتظاهر لنا بالغدر يهلك) .

قال شيخ الحارة لإبن أخيه :

- وهكذا فأنت تريد أن تتظاهر لهم بالحب حتى تفلح .

- قال المثل : إللي بياخد أمي بقوللو يا عمي .. واحفظ رأسك عند تغيير الدول .. أم أنك تريد أن تتظاهر لهم بالعداء حتى تطير الشيخة من أيدينا .

- وماذا عن قول الله (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء) .

- نحن لا نتخذهم أولياء .. لكننا نصانعهم طالما هم حكام هذه البلاد .. ومن كانت له عند الكلب الأسود حاجة يناديه يا حاج بيوض .

- لن أصانع .. ولن أقول للكلب الأسود النجس يا حاج بيوض ولو طارت الشيخة .

- إذا كنت زاهداً في الشيخة فاسمح لي يا عمي أن آخذها .. أنا أولى من الغريب .

- كنت أعرف أنك ستفعل ذلك ياسالم .. مبروكة عليك الشيخه سبع بركات

- غداً إذهب إلى المستحفظان الخواجه داوود .. واطلب منـــه أن يثبتني مكانك .. سأقول أنك تعبت وتريد أن تستريح .

- افعل ما بدا لك .

قام سالم .. لاحظ عمه أنه يلبس العباءة التي أهداها له يونس يـــوم ولـــدت نعمـــة .. عاوده شريط من الذكريات .. طفولة سالم وكيف أحبه ورعاه حتى بلغ مبلغ الرجال .. وكيف كان سالم يرد إحسانه بالإساءة .. ثم همس لنفسه :

- ربي هزيل المال ينفعك .. وربي هزيل الرجال يقلعك .

انطلق سالم إلى حمام شمعون ليعقد الصفقة هناك .. لم ينس أن يتفقد ما بجيبـــه مـــن النقود وهو يحدث نفسه : ((ثلاث ذهبيات ثمن بخس للشيخة .. بعد الشـــيخه أذهـــب لعمـــي فأطلب يد فاطمة ليس حباً في سواد عيونها هذه المرة فقد هدها موت يونس .. صارت حطاماً ليس فيه مطمع .. لكن من أجل وادي الزيت .. هكذا يا شيخ سالم (مط كلمة شيخ) تصطاد عصفورين بحجر واحد .. الشيخة ووادي الزيت .



أربعة آلاف أسير ساقهم نابليون من غزة إلى يافا .. في أول الطريق كانوا يغذون السير حتى يحاذوا خيول حراسهم .. لكن الطريق طالت .. بدأوا يتطوحون من التعب .. هدهم البرد والجوع .. صاروا يتساقطون على جانبي الطريق .. ثم بدأت تسمع طلقات رصاص .. متفرقة أول الأمر ثم متشابكة .

قال المقدم صقر لجوهر :

- الذي يتخلف عن الطابور يطلقون عليه النار .

- بعد يونس ما عدت أبالي بشئ .. صار باطن الأرض خيراً من ظاهرها

صهل جواد قريب فاقشعر بدن جوهر :

- جوادي .. إنه الغوج .. انظر يا مقدم .. يمتطيه أحد فرسانهم .

نظر المقدم فرأى الجواد يلوي عنقه باتجاه جوهر ..الدموع في عينيه والفرنسي يكيل له الضرب .

فاضت قريحة المقدم فأرسل عقيرته بالشعر :

غـزة اشــهدي يـوم الحــرب ما ولينـا
و ارصـاص فـي صـــدور العـدا مللينـا
الا شـيخ منطـار فيك الطـوب عثمانـــي
الا شـيخ شـعبان فيـك الـدم غـــدران
الا باب الدارون فيك السيف صال وحكـم
جيـش الفرنسيس يا غــزة سباكي وحكم
بكيت خيـول لنـا فـي الأسـر وبكينــا

سالت دموع جوهر .. بكى أخاه طوال الطريق .. والمقدم صقر يهون عليه .. حتى أشرفا على يافا .. سقط المقدم صقر فحمله جوهر على أكتافه حتى نهاية الطريق .. وضعهم الفرنسيون في منبسط من الأرض بين تلين .. نصبوا المدافع حولهم .. كانوا يوزعون عليهم قسماطة واحدة بحجم الكف كل يوم .. فعل الجوع والبرد فعله .. صار عددهم يتناقص .. خلف التلة أعدت حفر عميقة لمن عجزوا عن الإحتمال .

صمدت يافا في وجه بونابرت .. حشد فيها الجزار اثنى عشر ألفاً من خيرة جنوده وممن فر من العريش وغزة .. قاتل أهل المدينة والعسكر جنباً إلى جنب .. مدافع بونابرت دكت المدينة طوال النهار .. إلا أن المقاتلين كانوا يخرجون لعسكره من تحت الأنقاض .. يشتبكون معهم بالسيوف والخناجر .

في نهاية اليوم التالي كان ثلاثة آلاف من المدافعين عن المدينة قد استشهدوا.. الباقون لاذو بالفرار .. قبل أن يدخل نابليون المدينة أحصى خسائره .. فبلغت تسعمائة قتيل .. جن جنونه .. أباح المدينة لعسكره .. خاضوا في الدماء إلى الركب .. قتلوا واغتصبوا ونهبوا كل ما وقع تحت أيديهم .. انطلق الوحش الكامن في قلب الإنسان من عقاله .

راقب شامبليون مذهولاً ما يدور حوله .. قال لبورين :

- هكذا ننشر مبادئ الثورة الفرنسية إذن ؟

رد عليه بورين بسخرية :

- مبادئ الثورة الفرنسية صالحة للتطبيق على أرض فرنسا فقط .. أما في بلاد الهمج هذه .. فسوف نطبق مبادئ أخرى أكثر ملاءمة .

وضع يده على مقبض سيفه .. امتقع وجه شامبيلون .

- ولكن ؟

قبل أن يعلن احتجاجه .. اقتحم المكان كافارللي كبير مهندسي الحملة .. وهو يحجل بساقه الخشبية .. وبيده مجموعة من التصاميم .

- لقد انتهيت منها تواً .. تصاميم مدفعي الجديد .. سيصنعونه في القاهرة ويرسلونه إلينا .

وجه كلامه لبورين :

- كم يبلغ عرض أسوار عكا يا جنرال ؟

- ستة أمتار .

- صدقني يا عزيزي شامبليون (قال ذلك وهو يحتضنه) إن مدفعي سيجهز عليها .

تخلص منه شامبليون بلباقة .

- كلنا نعرف عبقريتك يا كافارللي ونصدقك .

- عرضت التصاميم على القائد العام .. قال لي : يا كافارللي إذا فتحت عكا .. استلم مفتاح الشرق .. ادخل القسطنطينية عاصمة قياصـرة الرومـان .. وبذلك نملك شرقي وشمالي أوروبا ونصبح أسياد العالم .

قبل أن يغادر ساري عسكر أمر بقتل جميع الأسرى .

أربعة آلاف اسير من العريش وغزة ويافا .. كانوا يستلقون تحت المطر بأسمالهم الباليـــــة .. وبطونهم الخاوية .. وقد عضهم الجوع والبرد .

هدرت المدافع على التلال المحيطة .. التمع شواظها في غبشـــة الفجــر .. بعضـــهم صرخ .. وبعضهم مات قبل أن يصرخ .. البعض تراكض مذعوراً .. ثم وقع غير بعيد كطير سرقته السكين .. خفت الصراخ شيئاً فشيئاً .. لم يبق غير الأنيـــن .. أنيـــن مكتـــوم كبكـــاء الثواكل .. حين أسفر النهار تفقدهم كبير الحراس .. كتب في دفتره :

– ماتوا جميعاً .. ثم تمتم : لقد كانوا أنصاف موتى على اية حال .

أدار ظهره ومضى .

عند الظهيرة أفاق جوهر .. كان قد نزف دماء كثيرة .. أزاح عن صدره وكاهله جثث القتلى .. وقف يقلب النظر فيمن حوله .. نادى على رفيقه المقدم :

– أين أنت يا مقدم .. يا سبع الرجال .

كان المقدم ملقى غير بعيد جثة هامدة .

أغلق عينيه الشاخصتين ووسده التراب .. جثا إلى جواره .. هـــم بقـــراءة الفاتحـــة فغـــص

صوته .. كان قد نزف دماء كثيرة .. أدركه الدوار .. نهض متحاملاً على نفسه يجر خطـــاه باتجاه يافا .

يافا صارت مدينة للموتى .. قتل الفرنسيون كل من صـــادفوه .. النســـاء والأطفـــال والشيوخ .. حتى البهائم .. الموتى يفترشون الطرقات والأزقة .. يتدلون مـــن الشـــرفات .. يتكومون على مداخل البيوت .. بعضهم مازال فيه رمق والحشرجة تتردد في صدره .

شخص جوهر ببصره إلى السماء وهو يهز قبضته :

– أين عدالتك ؟ ما الذي جنيناه ؟ لماذا كل هذا القتل والخراب ؟ ما الذي صنعه يونس ؟ مـــا الذي صنعه هؤلاء ؟ ألم يكن ظلم الأتراك كافياً حتى أرسلت إلينا الفرنسيس .. أين أنت .. أين أنت ؟

تهاوى على جانب الطريق .. وجراحه تنزف .

❋ ❋ ❋

(17)

صار سالم شيخاً لحارة التفاح .. أخلص في خدمة أسياده الجدد .. جمع لهـــم بهمـــة ونشاط ما فرضوه من أتاوة على الحارة .. قمح ..شعير .. دواب .. وشى لهم بأسماء الـــذين يبيتون لهم العداء .. اصطنع لنفسه أعواناً من الأوغاد والسفله ممن لا خلاق لهم .

حين جاءه نعي عمه الشيخ رمضان .. حسب أن السماء تسرع في تحقيق رغباته .. صـــحيح أنه ارتج عليه لحظة (عظم الله ساعة الموت) إلا أنه في قرارة نفسه أحس بالإرتياح .. لـــم يثر هواجسه موت عمه المفاجئ .. رآه بنفسه يصلي العصر في المسجد ثم لم يطلـــع عليـــه الصباح .

حين ذهب يتقبل العزاء في عمه .. كانت فاطمة تجلس في ركن الغرفة متلفعـــة بالســـواد .. كأنها شبح أو ظل من الظلال .. لم تجد دموعاً في مآقيها لبكاء والدها .. استنزفت كل دموعها

في البكاء على يونس .

سأل الناس عن مبارك .. كان قد اختفى منذ احتل الفرنسيون غزة .. ولم يعثر له على أثر .

ظل سالم ونساؤه والأولاد يحتلون البيت بحجة تقبل العزاء .. يعيثون فساداً في مخزونه من أطايب الطعام .. معرضين فاطمة وأمها لفنون الكيد والأذى .. ولولا زيارات سكينة .. وحدب ليلى .. وإخلاص مرجانة .. لاقتربت المرأتان من الجنون .

لكن ذلك لم يقدر له أن يستمر طويلاً .. سقطت بركة زوجة المرحوم الشيخ رمضان بنفس مرض زوجها المفاجئ .. ارتفعت حرارتها يوماً .. ثم ظهرت البقع الداكنة على الجلد في اليوم التالي .. وماتت في اليوم الثالث .. وجاء دور نعمة .. ظهرت على الطفلة نفس الأعراض .. ولقيت نفس المصير .. عندها أدركت نساء سالم أن بالبيت لعنة وأن الموت قد استوطنه .. خشين أن يصيبهن ما اصاب الدارجين من أهله فولين الأدبار .. مخلفات وراءهن أكوام البرغل والشعيرية .. وصحاف السمن وما بقي في البيت من المؤونة .

لم تصمد إلى جوار فاطمة سوى جاريتها مرجانة .. وصديقتها الوفية ليلى بنت سالم .. دأبت ليلى على مواساة فاطمة والحديث عن مبارك وعودته الوشيكة .. أما فاطمة فلم تكن تفتح فمها بالحديث إلا لماماً.

في لحظات شرودها .. كانت تتحدث إلى نفسها أو إلى الراحلين من الأهل .. عندها كانت ليلى تمسك عن الكلام وتراقبها بأسى وحسرة .

ذات يوم اقتحمت رقية الدار.. انهالت على ابنتها بالضرب المبرح وهي تسب وتلعن :

– ألا تعرفين يا مقصوفة الرقبة .. أن فاطمة ستصير ضرة لأمك ؟ لقد أقسم سالم أن يتزوجها بعد أن تلد .. (ثم التفت إلى فاطمة) :

– لا تفرحي كثيراً يا فأل الشؤم .. يا مخربة الديار .. خربت ديار يونس ..وديار أهلك وأنت تنعبين كالبومة .. إنه لن يفعل ذلك محبة في سواد عيونك .. ولكن من أجل وادي الزيت .. يريد أن يرثك ويرث يونس .

سحبت ابنتها من شعرها .. خرجت وهي تنذر فاطمة بالثبور وعظائم الأمور ..

بكت فاطمة كثيراً قبل أن تستنجد مرجانة بسكينة وزوجها حسان .. الذين هرعا لنجدة فاطمة .. بعد أن طيبا خاطرها قالت لهما :

– خذوني إلى بيتي في وادي الزيت .. فإنني أحس بمنيتي تقترب .. وأريد أن أموت هناك .. في كنف سيدي يونس .

ربتت سكينة خدها :

– لا تقولي ذلك يا فاطمة .. ستعيشين وتلدين لنا ولداً يعوضنا عن يونس .. يونس إللي كان للسيف وللضيف .

حملوها الى الوادي .. كان الدخان يتصاعد من الفرن .. خفق قلب فاطمة بشـــدة .. هل هم قطاع الطرق .. أم أنهم عبيد يونس عادوا إلى الوادي أم .

قالت في نفسها ليكن ما يكون .. فما جئت هنا إلا لكي أموت .

طرقت الباب فانفتح .. أخذتها المفاجأة .. صرخت :

- مبارك .

كان مبارك ورجاله يعتصمون في البيت .. يتخذون الوادي قاعدة لهم في مناوشـــاتهم مع الفرنسيين منذ سقطت غزة .

❋❋❋

استيقظ القاضي معروف .. وجد الشمس قد ارتفعت إلى مستوى النوافذ .. مـــا كـــان يجدر به أن ينام بعد أن نهض لصلاة الصبح .. اليوم موعده للقاء ساري عســـكر .. خطبـــة الجمعة الأخيرة التي ألقاها في الجامع العمري الكبير حازت إعجاب بونابرته .. أمر بطبعهـــا وتوزيعها على المسلمين في بر الشام كله .

تبسم معروف راضياً عن نفسه .. كانت خطبة لم تسمع المنابر مثلها .. في الثناء على موفد العناية الإلهية (ساري عسكر) .. الذي جاء ليخلص البلاد والعباد من ظلـــم الجـــزار وزبانيته حتى الشيخ الدسوقي شهد لتلك الخطبة:

- الأحاديث النبوية التي استشهدت بها يا شيخ معروف .. لم تخطر على بال شيوخ الأزهـــر وحينما ترجموا لبونابرته (اسمعوا وأطيعوا ولو أمر عليكم عبد حبشي) ضحك ساري عسكر وقال لقواد جنده ((لاشك أنني افضل من عبد حبشي)) .

لعل الرجل يجزل لي العطاء اليوم .

نهض معروف متثاقـــلاً وهو يلم أطرافه المبعثرة وينوء بثقل كرشه .. لم يكـــن فـــي حياته متعباً كما هو الآن .. ما الذي جرى له ؟

تذكر ما حدث بعد قيامه لصلاة الصبح .. فتمتم لنفسه : سوف تقتلني هذه الجارية اللعينة .

كان قد نادى جاريته مسكه .. لتعد له الحمام .. بدا سعيداً منشرح الصدر موقناً بقرب نيلـــه لمكافأة ساري عسكر .

أجلسته الجارية في الطشت .. دلكت جسده المترهل بالليفة والصابون .. مركزة على

موضع لا تبرحه إلا لتعود إليه .. دب في مولانا نشاط لم يكن يعهده فـــي نفســـه .. لابـــد أن الدواء الذي أعطاه له حكيم ساري عسكر قد فعل فعله .

هؤلاء الفرنسيين الملاعين قد بلغوا من العلم كل مبلغ .. خرج من الطشت فلفته مسكه بالمنشفة .. محتفية بما نشط من جسده .. قادته إلى فراش قريب .. نالت منه بركة لم تنلها من ستة اشهر .

بعدها أغرق مولانا في النوم .. وها هو يستيقظ وقد فاتته صلاة الصبح .. صـــفق براحـــتيه ونادى :

– مسكه .

جاءته أم البنين وقد ضاع طولها في عرضها من البدانة .. كانت تتماوج في شـــميتها كأنها تزحف :

– محظيتك نائمة يا ســيدي .. ثم غمغمت بلؤم وهـــي تمصـــمص شـــفتيها : (نوم السراري للضحى العالي) .

قال في نفسه:

زوجتي اللعينة ..إنها تنام بعين واحدة وتراقب ما يجري بالعين الأخرى .. ثـــم لا تلبـــث أن تضع همها في الطعام منذ اشتريت هذه الجارية من قافلة الطاهر .

سلقها بنظرة اقشعر لها جلدها السميك .. ثم هتف بعلو صوته :

– الحمام .

استحم وارتدى ثيابه .. صلى الصبح قضاء بعد أن فاتته الصلاة حاضـــراً .. وضـــع جبته واختار أغلى عمامة لديه ..تلك التي اشترى شاشها من دمشق الشام.. تعطر وبالغ فـــي التعطر .. تناول عصاه المصنوعة من العاج .. ألقى التحية على أهـــل بيته وخرج .

لم يكد يبتعد خطوات حتى بـــرزوا له .. أحاطوا بـــه من كـــل جـــانب .. قـــال لـــه مبارك :

– أحمد باشا الجزار يهديك السلام أيها القاضي .

بلع معروف ريقه .. قبل أن ينبس بكلمة كمموا فاه .. مددوه إلى جـــانب الجـــدار .. تدحرجت عمامته تحت أقدامهم وانسابت في عرض الطريق حتى استقرت تحت الجدار المقابل .. استلوا خناجرهم وأغمدوها في صدره الواحد بعد الآخر .. همد تماماً .. ربطـــوه بشـــاش عمامته من عرقوبه .. وعلقوه في شجرة جميز قريبة .. مضوا دون أن يلتفت إليهم أحد مـــن المارة .

(18)

سطعت شمس آذار فبددت بقايا غيمة كانت ما تزال تسح على الطريق .. شكل شهوان أذيال قنبازه حتى لا تعلق بالوحل .. ظهر طرف خنجره المتدلي على فخذه .. تأمل قوس قزح .. قال في نفسه :

سوف يتوقف المطر بعد أن حبسني في البيت يومين .. تأكد من وجود الشبابة في عبه .. ثم لولب بخيزرانته في الهواء وتوكأ عليها .. مقلداً شيوخ حارته .. حين وصل دكان الزهار تناهى إلى سمعه صوت أبو غوش وهو يتحدث عن إحدى زوجاته :

– قلت لها ما قاله الشايب غانم لزوجته في التغريبة .

شبنا ولا في الشيب شي يعيبنا وساق الله على أيام الشباب ملاح

إحنا لشبنا نقطف خياركم وإنتو لشبتو لشيل الصغار ملاح

سأله شهوان مازحاً :

– هل شبت حقاً يا عماه ؟

هتف أبو غوش بعلو صوته :

– فشر .

أفسح له الزهار مكاناً إلى جانبه في الشمس وهو يتمتم :

– لم نعد نفرح بالشمس كثيراً هذه الأيام .

رد عليه أبوغوش :

– آذار ابو الزلازل والأمطار .. بتنطر سبع تمرار .. وبتنشف عبارة الراعي بلا نار .

دخل الإسي السقا وهو يبكي .. وقفوا مشدوهين :

– خير يا أبو أسعد عسى ما شر ؟

– لقد نهب الفرنسيون حماري .

قالوا بصوت واحد :

– حمارك ؟!

– وكل حمار وجمل وحصان وبغل صادفوه في طريقهم .

قال أبو غوش :

– الحمد لله أنهم لم يأخذوك إذن .

ضرب الزهار كفاً بكف :

– أول دخولهم البلاد كانوا يدفعون ثمن ما يأخذونه .. وأبطلوا السخرة والمظالم ونهب الأرزاق .

أعول الإسي :

– الآن رجعوا في كلامهم .. تركتهم ينهبون سوق الغلة .. وهم يحملون الأرزاق على الدواب التي نهبوها منا ويرسلونها إلى عكا .

تابع الزهار :

– طلعنا من تحت الدلف خشينا تحت المزراب.

أخذ يجمع حوائجه ويدخلها إلى الدكان .. ساقفل الدكان وأخفي ما بها من بضاعة.. قبل أن يصل نهبهم الى الحارة .

ربت شهوان على كتف الإسي :

– ألم تبلغ شيخ الحارة الجديد أو نظمي أفندي ؟ فربما استطاعا بما لهما من دالة على المستحفظان أعادة حمارك .

– نظمي أفندي قال لي سوف يعيدون حمارك بعد فتح عكا .

استأذنهم شهوان ومضى في الطريق الصاعدة إلى المدينة .. ناداه الأسى

– عد يا شهوان حتى لا يصيبك مكروه .

رد شهوان :

– ليس لدي ما أخشاهم عليه .

كان يريد مقابلة نظمي أفندي لكي يندس في صفوف الفرنسيين وعملائهم .. حسب تعليمات مبارك .

عرض عليه نظمي أفندي الفكرة منذ شهر :

– هؤلاء الفرنسيين يحبون اللهو والرقص والغناء .. يقيمون حفلة في ساحة الدبوية كل ليلة .. لماذا لا تأتي وتضرب لهم على الشبابة .. قد تعجبهم أنغامك فيجزلون لك العطاء .

وقتها رد عليه شهوان :

– يا نظمي أفندي قعرنا الدف وبطلنا الغنا .

لكن مبارك حين سمع القصة في وادي الزيت كان له رأي آخر .. قال له :

– إذا عرض عليك نظمي ذلك مرة أخرى فلا تتردد في القبول .. إنها فرصة لنعرف ما يدور في الدبوية .

– نظمي أفندي لم يعد يخاطب أحداً من أهل الحارة .. صار لا يأكل ولا يشرب إلا مع الفرنساوية.

دخل شهوان حارة بني عامر .. في الطريق الموصلة إلى السوق .. قرقعت عجلات إحدى عربات التموين التابعة للفرنسيس .. انحاز إلى الجدار ليفسح لها .. اجتازته مسرعة .. صرخت إمرأة من داخل العربة :

– شهوان .

ثم انزلقت من بين الأكياس والصناديق وهرعت تحتمي به .

توقفت العربة .. انهال سيل من الشتائم .. كان الشارع خالياً من المارة .. جرى في أثرها جنديان شاكي السلاح .. غمغم شهوان كأنه لا يصدق نفسه

– وضحا .

– كنت أبيع الجبنة في السوق .. أخذا كل ما معي من الجبنة .. زعما أنهما سيدفعان الثمن في الدبوية .. ركبت معهما .. في الطريق اقترب أحدهما مني و.... أنا في عرضك يا شهوان .

وصل الجنديان .. أمسك أحدهما بيد وضحا .

– هيا إلى العربة يا حلوة .

قال شهوان :

– دعها .

أجابه الجندي وهو يدفع بها أمامه :

– روخ أخسن .. بعدين إنت في مشكل .

حاولت أن تتخلص من الجندي .. حملها على كتفه ومضى .. أخذت تضربه بقبضتيها وتصرخ :

– شهوان .

استل شهوان خنجره .. أغمده بين كتفي الجندي .. تهاوى الجندي إلى الأرض .

– أهربي الآن .

انطلقت تعدو مجنونة .. اتخذ الجندي الآخر وضع إطلاق النار .. وأطلق على شهوان .. حشى بندقيته ثانية .. كان شهوان قد وصله .. أغمد خنجره في رقبته .. سقطا مضرجين

بالدم .. صهلت الخيل التي تجر العربة وأطلقت سيقانها للريح .
حين فتح شهوان عينيه .. رأى الناس يتحلقون حوله .. ورأى وجه وضحا ينشج بالدمع .
سألته بحرقه:
– لماذا فعلت ذلك ؟

ابتسم وهو يغمغم بأحد مواويل محمد العابد :

لا شـد لك سـلايا الخيـل ضمـر

وأخـوض الحـرب مـن غـزه لدمر

وأقـول للسـيف يعلـى ويتأمـر

ويقطـع راس مـن كلـم عتابـا

كان الدم يتدفق غزيراً من خاصرته .. أسند جذعه إلى الجدار .. أخرج الشبابة من عبه .. حاول أن يعزف .. لكن الشبابة سقطت في حجره المملوء دماً .. صرخت وضحا :
– شهوان .

أغمض شهوان عينيه .. احتضنته وضحا .. دفنت وجهه في صدرها
– عد يا شهوان أنا لك .. لن أكون لأحد سواك .. عد يا شهوان .. عد .
لكن شهوان ذهب ولم يعد .

بكى الناس حتى انشقت صدورهم .

❋ ❋ ❋

بدأت دعوة العارف بالله تاج الدين الخروبي تفعل فعلها في نفوس الناس .. توافدوا على مسجد الجاولي خفافاً وثقالاً .. رجالاً وعلى كل ضامر .. هذا يقدم نفسه أو ولده أو أخاه .. وذلك يقود فرساً أصيله نذرها للجهاد .. وآخر باع حلي زوجته واشترى اتفنكه أو طبنجه .

نظم تاج الدين ذلك كله على أحسن وجه .. قسم الرجال إلى قسمين .. مقاتلة وأنصار .. المقاتلة التحقوا بمبارك في وادي الزيت وتلال ومغاور الشعف وغابات الزيتون .. أما الأنصار فظلوا في مواقع عملهم وإقامتهم .. يجمعون الأخبار .. يتحسسون من العدو غرة يفاجئونه بها دون أن يعرف كيف أو من أين أتته الضربة .

قال أبو الطايع صاحب خان الزاوية .. للدريملي شيخ الحدادين وهو يجاذبه الحديث

في دكانه :

– ما هذه الرماح الصغيرة التي انصرفت إلى صنعها منذ أيام .

تناول رمحاً وأخذ يقلبه بين يديه .. مقبض متين ورأس دقيق كرأس الإبرة ولكنه قصير لا يتعدى طوله شبراً واحداً .. هزه بيده وأنشد :

– صال وجال .. ولعب بالرمح العسال .. وقال أين المبارز أين المناجز .. لا يخرج لي كسلان ولا عاجز .. اليوم يوم الهزاهز .

ثم ألقى الرمح على طول يده .. هذا الرمح ليس عسالاً على الإطلاق .

توقف الدريملي عن طرق الحديد الأحمر .. توقف الشرر الذي كان يتصاعد تحت مطرقته .. توقف نافخ الكير عن تحريك ضلفتي المنفاخ .. انتظمت ألسنة النيران الصغيرة المضطربة في الموقد .. همس الدريملي في أذن أبي الطايع :

– وهبت نصف أموالك لتاج الدين كي ينفق على المقاتلة .

وضع أبو الطايع أصبعه على فمه مشيراً للدريملي بالسكوت ثم غمغم :

– يونس أعطى روحه ودمه يا شيخ الحدادين .

قال الدريملي وهو يعود إلى طرق القضيب الأحمر .

– هذه الرماح خفيفة يسهل حملها وإخفاءها عن العدو .. يربطها المجاهد على ساقه أو ذراعه أو جنبه أو يثبتها بعروتين في بطانة ثوبه .. وعند اللحظة المناسبة .. يستلها ويغرسها بسرعة البرق في قلب كافر استباح أرض الإسلام .

ربت أبو الطايع كتف الدريملي .. استأذنه ومضى لشأنه .. مر ببيت تيمور الضرغام .. نظر إلى شباك السوباط .. لم ير يلماز .. لكنه رأى خيال امرأة تراقب المارة من خلف الشيش .. أخبره طبوع صبي السقا .. أن نساء تيمور حملن أولادهن وانطلقن في أثره منذ سقوط غزه .. هنيه وحدها بقيت في البيت الكبير .. احتلت غرفة يلماز وشغلت نفسها بمراقبة السابلة كما كان يفعل .

حين وصل الباب لاحظ سلمى البلانة وهي تدلف إلى الداخل .. قال في نفسه : (خلي الميدان لإم حميدان) .

غمست سلمى المشط الأسود في وعاء الزيت .. أخذت تسرح شعر هنيه الأسود الطويل وهي تواصل الحديث :

– حين كان البيت يضيق بنساء تيمور وأولاده .. كان طبوع صبي السقا يملأ المزيرة بالماء كل أسبوع مرة .. وحين لم يعد في البيت أحد غيرك صار يملأها كل يوم .. أي عطش هذا ؟

ردت هنيه بلؤم :

– لا يتحدث الجمل عن إعوجاج رقبته .

بلعت سلمى ريقها :

– ماذا تقصدين ؟

– الفرنسي الذي كان يجري خلفك أمس .. رأيتكما من شباك السباط .

تنهدت سلمى :

– يدفعون كثيراً يا هنيه .. ثم أنهم يجيدون التعامل مع النساء .

صمتت سلمى هنيهة ثم تابعت :

– ألا تجربين واحداً منهم .. بدل هذا الجربوع المبلل بالماء .. الذي لا يعرف الفـــرق بيـــن المرأة والقربة .. أنا وأنت مقطوعتين من شجرة .. لا ولد ولا تلد .. وليس أمامنا إلا أن نتدبر أمر أنفسنا .

– والناس يا سلمى ؟

– الليل ستار .

أومأت هنيه برأسها .. فضحكت سلمى وقبلتها .

– اتفقنا .

كان أول من اكتشف الصفقة طبوع .. جمع مخلفات الفرنسيين من غـــرف المنـــزل ووضعها في المزيرة .. ثم ملأ المزيرة بالأقذار واختفى .

اشتدت حيرة هنية حينما عاد طبوع بعد أسبوع .. نظف المزيرة وملأهـــا بالمـــاء .. ادعى أنه كان مريضاً .. أنكر أن يكون هو الفاعل .

قالت سلمى :

– أكل العيش أجبره على العودة .. ثم أننا بحاجة إلى من يقف معنا آخر الليـــل .. لمحاســـبة السكارى .. وسوف نجعل له حصة مجزية .

ازدادت حيرة هنيه ودهشتها حين وافق طبوع بحماس ظاهر .. قالت له وقد أوجست خيفة :

– ألا تخشى العار ؟

قال بنبرة حاول أن يجعلها صادقة :

– وعد ومكتوب يا هنيه .. وعد ومكتوب .

جاءت ليلة الأحد .. الليلة الكبرى كما تسميها سلمى .. في تلك الليلة امتلأ بيت تيمور على سعته .. ظلوا يشربون ويقصفون إلى آخر الليل .. حين بـــدأ بعضـــهم بالإنصـــراف .. لاحظت هنيه وصول ثلاثة منهم متأخرين .. احتفى طبوع بهم وأجلسهم وحـــدهم فـــي ركـــن منعزل .. أمرته أن يصب لهم ففعل.. ثم انشغلت عنهم بمن حولها .

في تلك الليلة لم يقبض طبوع البقشيش من الفرنساوية .. لكنه ساعد رجال مبارك في

قبض أرواحهم .. خمسة عشر قتيلاً افترشوا باحات الدار .. قال فرج السويسي لرضوان البطش:

- هل نتبعهم بالمرأتين ؟

أجاب رضوان :

- بل نتركهما للمستحفظان .. يتدبر أمرهما .

❋ ❋ ❋

(19)

كأن له ألف عين وألف ذراع والف قدم .. يقسم الجنود المغاربة على الطابية الشرقية .. إنهم رأوه في عدة أماكن في نفس الوقت .. وأنه يتناسخ كالشبح .. أما الأتراك على الطابية الشمالية فما عادت لديهم الجرأة للتلفت وراءهم .. حتى لا ينهال عليهم بسوطه .. لاظوغلي أغا قائد الطابية بات مع زوجته أمس .. كان مجازاً لليلة واحدة .. ولكنه قبل الفجر ركض إلى الطابية نصف عار وسرواله في يده .. حين التقط أنفاسه .. أقسم أنه سمع صوت الجزار يأتيه من سقف الغرفة :

- نايم مع حريم لاظوغلي أغا ؟ اتفوه .

العرب الرماه على الأسوار يزعمون أن الجزار متصل .. وأن سره باتع .. وأنه يخاوي الجان .. الباشا بزق يشيعون في أزقة عكا أن الجزار كان يحبر بعض الرسائل في القلعة والحبر على أصابعه .. حين ورده كتاب نابيلون الأخير .. قال للرسول :

- قل لسيدك أن يرحل عن بلادي قبل أن أفقأ عينيه بأصابعي .

مد يده من شباك القلعة باتجاه بونابرته .. حين عاد الرسول إلى نابيلون .. وجد عينيه ملوثتين بالحبر الذي كان على أصابع الجزار .

الفرنسيون العملاء الذين يشتغلون في خدمة الجزار .. يرسمون الخطط .. ويقيسون المسافات .. وينصبون المدافع .. كفوا عن التخاطب بلغتهم حتى لا يشك الجزار فيما يقولون .. ويفسر ذلك على محمــل الغــدر به .

وحدهم تلاميذ تاج الدين الخروبي كانوا يسمعون ما يقال عن الجزار فلا يعيرونه التفاتاً .. لقد تطوعوا مع عدد من الأهالي .. ابتغاء مرضاة الله ودفاعاً عن ديار الإسلام .. منهم من اتسع وقته للتدريب على الرماية بالبندقية .. ومنهم من تسلح بسيف أو طبر .. ولكن عزمهم على الجهاد كان أمضى من كل سلاح .

العيون مسمرة على العدو .. والأصابع على الزناد .. كل شئ في عكا يدور بانتظام كما تدور الساعة .. امدادات الذخيرة والمؤن تصل تباعاً .. تبديل الجند يتم في ثوان معدودة .. فرق الإطفاء تعمل دون كلل .. في مكافحة الحرائق الصغيرة التي تشعلها قذائف الفرنسيين .. عربات الإسعاف تركض بالجرحى إلى الشفاخانة بعد إحلال آخرين محلهم .

الشبح الرهيب الذي إسمه الجزار يخيم على كل شئ .. يراقب كل شئ .. يرى ويسمع ويحس دبيب النمل داخل الأسوار وخارجها .

قال له الإنجليز :

- عليك أن تثق بنا .

وقال له عملاؤه الفرنسيون كلاماً مشابهاً .. وقال الصدر الأعظم وقال العرب .. وقال الشركس .. وقال البشناق .. لكنه يهز رأسه ولا يعلق بشئ .. أحياناً يهمس لنفسه :

- مغفلون .

دهر طويل مر منذ أن ركعت جلبار هانم على ركبتيها .. أمام ذلك اللملوك الغر مستعطفة متذللة .. إلى الجحيم أيتها الثقة .. الثقة بالنساء والدول والمماليك وقادة الجند .. أحمد باشا الجزار يثق في إنسان واحد .. هو أحمد باشا الجزار فقط .. أما باقي الناس فقد تكفل بهم السيف والذهب إلا أنت يا تاج الدين .. ما لي عليك حيلة إلا بالكلام المعسول .

طريق البحر سالكه .. المؤن والذخائر تصل تباعاً .. ولو انقطعت فإن بالعنابر ما يكفي لخمسة أعوام من الحصار .

ذات يوم استيقظ الجزار مبكراً على عادته .. لاحظ أن القصف يشتد على الطابية الشرقية .. يبدو أن نابليون قرر اقتحام السور من هناك .. انطلق بحصانه في اتجاه القصف .. لم يكد يقترب من الطابية حتى سمع تصايح الجند .. كانت المدافع الجديدة التي استقدمها نابيلون قد أفلحت في فتح ثغرة .. تدفق الخيالة الفرنسيون باتجاهها .. جنود الطابية لم يستطيعوا احتمال الرماية الفرنسية المركزة .. تركوا مدافعهم ولاذوا بالفرار .

رآهم مصطفى الكاشف يخلون مواقعهم .. فصرخ في رجاله :

- من يبايع على الموت ؟

اندفعوا وراءه وهم يهللون ويكبرون .. تبعهم عدد من الأهالي بفئوسهم وهراواتهم .. صاح مصطفى :

- الحجارة .. أمطروهم بالحجارة .. لا تدعوهم يقتربون من الثغرة .. أخذ الرجال يجمعون ما تهدم من حجارة السور.. ويلقون بها على رؤوس الفرنسيين .

موقعين فيهم خسائر كبيرة .. لم يستطع أياً من خيالتهم الوصول إلى مكان الثغرة .

لم يكد الجنود الهاربون يبتعدون قليلاً عن مواقعهم .. حتى تلقاهم أحمد باشا ببندقيته المشرعة .

- عودوا إلى أماكنكم قبل أن ألهب رؤوسكم بالرصاص .

ترددوا في العودة .. أطلق على رأس اقربهم .. تناثر دماغه على السور .. تواثب الباقون عائدين إلى مدافعهم .. هدرت الطابية من جديد .. انصب شواظ من نار على رؤوس الفرنسيين .. تساقطوا تحت عينيه فوجاً وراء الآخر .. بدأ الهجوم يفقد اندفاعه .. تباطأ سيلهم الزاحف .. ارتد على نفسه شيئاً فشيئاً .. أخيراً لاذ الباقون بالفرار .

أشار أحمد باشا إلى الثغرة التي أحدثها الفرنسيون .. هب عشرات من الرجال إلى مكان الثغرة .. في أقل من ساعة أعيد السور إلى ما كان عليه .. التفت الجزار إلى مصطفى الكاشف :

- لقد أبليتم بلاء حسناً في هذا الصباح .. من أنتم ؟

- نحن تلاميذ العارف بالله تاج الدين الخروبي .

قال الجزار وهو يضع يده اليمنى على قلبه .. مظهراً الخشوع والإحترام :

- قدس الله سره .

نادى الجزار آمر حرسه .. أشار إلى جنود الطابية الذين أخلوا مواقعهم أثناء المعركة .

- أضرب أعناق هؤلاء الخونة .. وعلق رؤوسهم على زوايا السور حتى لا يفر بعدهم أحد .

نفض الجزار عن ثيابه الرماد والبارود .. امتطى جواده ولكزه بقوه .. تناثر الشرر تحت سنابكه .. طار به تلفه سحابة من الدخان الأسود.

❋❋❋

لم يجرؤ أحد على إخبار سالم بهرب فاطمة .. ولم يجرؤ هو على دخول بيت عمه .. خوفاً من اللعنة التي حلت بأهله .. لكن بعد اسبوعين كاملين عرف سالم .. أفشى له السر أحد أتباعه نكاية بحسان السلامين .

لم يتحمل الفار أكثر من صفعة واحدة .. سرد على مسامع سالم القصة كلها .. قال سالم في نفسه (غداً أذهب أنا والمستحفظان إلى وادي الزيت .. مبارك يدخل السجن ولا يعود .. وفاطمة تدخل ذمتي .. والوادي يدخل عبي الذي وسع كل شئ .

قهقه سالم حتى استلقى على قفاه وهو يردد :

– كل العصافير بحجر واحد .. كل العصافير بحجر واحد .

حين انصرف حسان طلب سالم العشاء .. كانت صغرى زوجاته قد أعدت له زوجاً من الزغاليل محشو بالفريك .. لم تنس أن تزيد البهارات .. فالليلة ليلتها ولا تريدها أن تضيع سدى .. ارسل سالم يرجو المستحفظان الحضور إليه في الصباح .. التهم سالم عشاءه .. أحس أن حرارته ترتفع .. خلع عباءته .. استلقى على الفراش .. لكن الحمى بدأت تفعل فعلها .. خلع ثوبه .. نظرت زوجته إلى ملتقى الرقبة والصدر وصرخت :

نفس البقعة الحمراء الداكنة التي رأتها في جسد بركة عند موتها .. حاول سالم أن ينظر حيث أشارت .. لكنه لم يستطع .. كانت أوداجه قد بدأت في الإنتفاخ .. عندما وصل المستحفظان ورجاله صبيحة اليوم التالي .. كان سالم قد فقد النطق .. وقف المستحفظان بجوار فراشه :

– لو أن أحداً غيرك استدعاني لما حفلت به .. لكن خدماتك لنا جعلتنا نثق بك .. ونلبي مطالبك .. إلى أين كنت تنوي أخذنا ؟ لعلك عرفت مخبأ مبارك وعصابته .

اقترب المستحفظان من فراشه .. رآى جسده يتفصد من الحمى .. أزاح عنه الغطاء .. نظر الى البقعة الداكنة .. ثم لفظ كلمة قدر لها أن تملأ الحارة بالرعب :

– الطاعون !

أعاد الغطاء عليه .

كان سالم قد فارق الحياة .

قال المستحفظان : هذه هي الحالة الثالثة التي أعرف عنها .. ولابد أن هناك الكثير من الحالات التي لا نبلغ بها .. وإلا فما سر هذه الجنازات التي تملأ شوارع المدينة ؟

أشار المستحفظان داوود لرجاله :

– خذوه إلى حفرة البلدية .. وأهيلوا عليه كثيرا من الجير .. أغلقوا بيته فلا يفتح إلا بإذننا .. سلموا أهله إلى الكرنتينا .

لم يمش خلف جنازة سالم أحد .. لفه الرجال في خرقة وحملوه إلى الحفرة .. تبعهم حسان السلامين .. حين أهالوا عليه الجير كان بعض الجير قد تحجر في كتل صغيرة .. أخذ حسان يتأملها وهي تهوي على جسد سالم ثم هتف :

– كل الأحجار تصيب الآن عصفوراً واحداً .. هو انت يا سالم.

❃❃❃

مضى جوهر يسحب أقدامه سحباً نحو غزة .. لا رصاص الفرنسيين .. ولا الطاعون .. ولا الموت نفسه .. كان قادراً على أن يوقف خطاه الزاحفة .. المدن والقرى في الطريق إلى غزة مهجورة تماماً .. إلا من الحيوانات الضالةالشاردة هنا وهناك .. تطاردها الكلاب المسعورة التي عادت وحشية .. كأن لم يدجنها أحد .. في الحقول كانت تصادفه جماعات أهزلها الجوع والخوف .. عيونها زائغة .. وجوهها صفراء .. لا تتحدث إلا لماماً .. تستعيض عن الكلام بالإشارة في أغلب الوقت .. أكلوا كل شئ صادفهم .. حتى أوراق الشجر وضلوع الصبر .

حين وصل وادي الزيت كان الوقت عصراً .. إجتاز صفين من الرجال المدججين بالسلاح دون أن يكلم أحداً منهم .. أما هم فكانوا يفسحون له الطريق كما لو انه شبح .. توقف على باب المضافة .. عبقت رائحة جروحه النتنة .. التفتوا إلى الباب .. صرخ مبارك :

– جوهر .

قام ليحتضنه .

إذن رجعت من الموت .. قالـوا أنك قتلت في يافا مع بـاقي الأسـرى .. نحـاه جوهـر جانباً .. واتجه إلى فراشه .. في أقصى المضافة .. سقط على الفراش دون حراك .. عشرة أيام كاملة .. تولت مرجانة أمره .. بعد كي جراحه بالنار .. كانت تدهن لـه الجـراح بالمومياء ثلاث مرات في اليوم .. وتسـقيه الحلبة المغليـة ممزوجة بالحليب والعسل .. إلى أن أبل من سقامه .. فتح عينيه ووعى ما حوله .

– هات ما عندك يا مبارك منذ سقط يونس .

– الطاعون يا جوهر أخذ والدي وإخوتي وأخذ نعمه .. وكنس بيوت الحارة بيتاً بيتاً .

– وفاطمة ؟

– ما تزال حاملاً .. إنها معنا في الوادي وقد فرحت بعودتك .. قالت : حمـدا لله أن الطفـل سيجد له خالاً وعماً .

قال جوهر وقد تهللت أساريره لأول مرة منذ فقد أخاه .

– إذن سيعود يونس حياً ..

وتابع ساهما:

– عسى الله من بعد نخلي بيزرع لي زماني نوا.

تابع مبارك :

– لن تعرف فاطمة.. لم تترك منها المصائب سوى حطام بائس .. ابيض شـعر رأسـها .. وانتابها الذهول عمن حولها .. إنها تعيش في عالم آخر .. دائماً تتحدث إلى يونس والراحلين من الأهل .. لولا الطفل الذي أوشكت على وضعه لما حفلت بالبقاء حيـة لحظـة واحـدة .. ليتداركها الله بلطفه .

سكت لحظة .. رآى جوهر الدموع تلتمع في عيني مبارك .. أراد أن يغير الموضوع :

– حدثني عن الحارة يا مبارك .

– هجرها البطوش والريفية والسويسية ..أكل الطاعون من أكل منهم والبـاقون اسـتوطنوا الكروم والحقول المجاورة .. رحم الله الزهار .. اغتنى من بيع الأكفان لأهل الحارة .. حين مات لم يجدوا في دكانه كفناً له لا.. لفوه بثوبه .

حبوش نصب خيمة في المقبرة حتى يظل إلى جانب عمله .. فالجنـازات لا تنقطـع .. قـال لزوجته حين لامته على ترك البيت (مطرح ما بترزق الـزق) مضى يسحبه طبـوع أبـو الرواكي .

شكت زوجته لأبي غوش فضحك حتى دمعت عيناه .. قال لها :

– دعيه يا حرمة .. هذا موسمه الخاص قال المثل (مـوت الحميـر .. فـرج عالكلاب) .

لكن موسم حبوش لم يطل كثيراً .

في صباح اليوم التالي وجدوه في خيمته جثة هامدة .. حسان السلامين مات بعد موت سالم بأسبوع .. بكت عليه سكينة يوماً واحداً .. ثم انشغلت عنه بوفاة إبنهـا البكـر .. الـذي مازالت تبكيه حتى يومنا هذا .. سكت مبارك فجأة .. قفز جوهر كالملدوغ :

– لا تقل أن شهوان قد ..

– لماذا جزعت على شهوان فقط .. شهوان مات شهيداً يا جوهر .

– جزعت على الجميع .. لكن شهوان روح الحارة ونبض قلبها .

ضرب كفاً بكف .. ما أعظم فجيعتي فيك يا شهوان .. لاحول ولا قوة إلا بالله .

أطرق مبارك لحظة ثم تابع :

– منذ وفـاة يونس .. صار الموت ضيفاً ثقيـلاً على قلوبنـا .. لا يفـارق إلا ليعود .

❋ ❋ ❋

اصطحب مبارك جوهر إلى مسـجد الجاولي بعد أن أتقنـا تنكرهما .. شقا طريقهما بصعوبة بين الجالسين لاستماع درس العصر .. كان صوت تاج الدين يدوي كما لو أنه فـتى في العشرين :

((قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم .. وأموال اقترفتموها وتجـارة تخشون كسادها .. ومساكن ترضونها .. أحب إليكم من الله ورسوله وجهـاد فـي سـبيله .. فتربصوا حتى يأتي الله بأمره .. والله لا يهدي القوم الفاسقين)) .. صدق الله العظيم .. وقال تعالى :

((يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القتال وهو كره لكم)) .. وقال تعالى :

((إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة .. يقـاتلون فـي سـبيل الله فيقتلون ويقتلون .. وقال تعالى : ((يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم .. تؤمنون بالله ورسوله .. وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم .. ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون)) .

وهكذا اقترن الإيمان بالجهاد .. في معظم الآيات والأحاديث .. ولا ايمان بغير جهـاد

في سبيل الله .. وقد فضل الله المجاهدين على القاعدين .. وأجزل لهم العطاء ووعدهم بإحدى الحسنيين .. النصر أو الشهادة .. أما الذين ينالون الشهادة فأولئك الذين قال عنهــم الحــق : ((ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون)) .

وفي الحديث الشريف : ((من لــم يغــز ولــم يفكــر بــالغزاة فليمــت يهوديــاً أو نصرانياً)) .. وفي الحديث أيضاً : ((الجهاد فريضة على كل مسلم)) وعنه صلى الله عليه وسلم قال ((لرباط يوم وليلة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها)) .

بكى تاج اليدن .. هاج الجمع وماج .. انطلقت الهتافات .

نهض الشيخ تاج الدين منصرفاً إلى غرفته الملحقة بالمسجد .. مضى مبارك وجوهر في أثره .. قبل مبارك يد الشيخ .. عانقه جوهر والدموع في عينيه .

رحب بهما تاج الدين وأجلسهما إلى جواره :

– وصلني كتاب من أحمد باشا الجزار يقول أن الحصار اشتد بأهل عكــا .. ويطلــب مــن المجاهدين مناوشة الفرنسيين المحاصرين للمدينة حتى تصبح إقامتهم صعبة ومكلفة .. ثم تابع حديثه بعد لحظة صمت :

– ما أظن أنهم سيصمدون في حصارهم طويلاً بعد أن تفشى بينهم الطاعون .

قال جوهر :

– لكن الطاعون تفشى فينا أيضاً .

– يا بني .. سوف نلد نحن اضعاف الذين يموتون منا .. أما هم فسوف يتناقصــون حــتى لا يبقى منهم أحد .

ثم تابع الحديث إلى مبارك :

– انهض برجالك إلى أسوار عكا .. دع أمر غزة لجوهر .. فوالله إنني أتوسم فيه الخير منــذ رأيته مع يونس .

هجم جوهر على يد الشيخ يقبلها :

– روحي فداك أيها الشيخ الجليل .

حين إنصرفا قال مبارك :

– توالت رسائل الجزار على تاج الدين منذ سقطت غزة .. وفيها يعلن توبته وندمه على مــا سلف من سجنه للشيخ ونفيه .. ويعد إذا ما قيض الله له النصر .. ألا يعمل إلا بالكتاب والسنة .. وأن يكون طوعاً للشيخ ورهناً لإشارته .. وقعت على أحد كتبه وفيه يقول للشيخ : ((إنني لست أهلاً لأن أغسل وجهي بالماء الذي يتخلف من وضوء قدميك)) .

– وهل صدقه تاج الدين ؟

– يقول تاج الدين : نحن نجاهد في سبيل الله وليس في سبيل الجزار أو غيره .. فإن تصادف

إن اختار الجزار طريق الجهاد .. ففي الطريق متسع للجميع .. أما عن وعود الجزار فإن الله وحده يعلم السرائر .

– والآن .. ما الذي نويته يا مبارك ؟

– سأعطي رجالي مهلة أسبوع ليتدبروا أمرهم قبل الرحيل إلى عكا .

❋ ❋ ❋

في السفح المواجه لقلعة عكا .. نصبوا خيمة ساري عسكر .. كانت خيمة كبيرة من غنائم المماليك .. فرشوا ارضها بالسجاد والطنافس .. بدت اقرب إلى بلاط أمير شرقي منها إلى خيمة قائد عام للجيش الفرنسي

جلس ساري عسكر في الصدر على كرسي مذهب .. التمعت نياشينه وألوان سترته فبدى كالطاووس .. لاحظ كليبر أن القائد لم يكن حسن المزاج .. تردد في تقديم التقرير اليومي .. لكن بونابرت فاجأه :

– أعلم ما لديك يا كليبر .. تزايد غارات البدو على خطوطنا .. لكن لماذا تصمم في تقاريرك أنهم البدو .. مع أنك تعرف أن سائر أهل البلاد مشتركون في مقاومتنا .. أي خداع للنفس حين نتوهم أن أهل البلاد معنا .. الأكثر ازعاجاً هو انتفاض مماليك مصر علينا .. عادوا إلى طبعهم في الخيانة .. كلفونا ثلاثمائة قتيل في الأسبوع الماضي .. كأن الطاعون وحده ليس كافياً .

– لماذا تتكرر حوادث اختفاءالجند في القاهرة .. هل بدأ الأهالي يتنمرون علينا ؟

سمعوا دوي المدافع .. اشار بونابرت إلى جهة البحر .. شهر كامل وهذا اللعين سدني سميث يدك تجمعاتنا حول عكا .. يحبط هجماتنا على أسوارها من سفن الاسطول البريطاني في البحر .. لو لم يغرق أسطولي في أبي قير .. هل كانت هذه المدينة تصمد أمامي أسبوعاً واحداً

تدخل بوريين :

– لا تنسى يا سيدي ما يقوم به الفرنسيون الهاربون من أعداء الثورة الفرنسية داخل الأسوار من دور هام في إعداد خطط الدفاع .

هز نابليون قبضته :

– هؤلاء الخونة .. لم نكن نعلم بإنضمامهم إلى الجزار حين هاجمنا القلعة أول مـــرة .. كنـــا واثقين من النصر حتى أننا ارتجلنا خطة الهجوم ارتجالاً .

ضحك الجنرال كليبر :

– هاجمنا عكا على الطريقة التركية .. فإذا بهم يدافعون عنها على الطريقة الفرنسية .

حدجه نابليون بنظرة قاسية .. فأمسك عن الحديث .

تشاغل نابيلون بتقليب صفحات الفيجارو .

قال كليبر في نفسه : سينزعج أكثر بعد قراءته للصحيفة .

انفلت عيار القائد مرة ثانية .

– يتجاهلون أخبارنا .. انظروا أين نشروا خبر انتصاري في معركة طـــابور .. ســـتة آلاف جندي فرنسي .. يهزمون ثلاثين ألفاً من خيرة جنود السلطنة العثمانية .. ثم ينشر الخبر فـــي ذيل الصفحة الاخيره.

نحى نابليون الصحيفة جانباً :

– إن إقامة امبراطورية فرنسية في الشرق .. لا يعني أحداً غيرنا يا بورين .

أراد بورين أن يلطف غضبه :

– سيدي .. إن فرنسا كلها معك .

– كلا يا بورين .. إنهم يتعمدون تصغيري أمام الشعب الذي أحبني .. وأنا أعرف على وجه التحديد من الذي يفعل ذلك في باريس .. ثم وجه كلامه إلى كليبر :

– كليبر ايها الجنرال الشجاع .. يبدو أن احتلال قرية على أطراف اللورين .. يلامس قلـــب فرنسا أكثر من فتح الصين .

ثم تابع كأنه يحدث نفسه :

– إن علي أن أعطي فرنسا ما تريده .. لكي تعطيني بدورها ما أريد .

صفق بونابرت بيديه .. دخل الحاجب وانحنى أمامه :

– رسول من غزة يا سيدي .

– أدخله .

دخل ضابط فرنسي وأدى التحية :

–سيدي لقد تم نسف مسجد الجاولي وتدميره تماماً كما أمرت .. ألقينا القبض على عدد مـــن أتباع الشيخ الخروبي وأودعناهم السجن .

– والشيخ الخروبي ؟

– أحضرناه إلى هنا حسب أوامرك .. عاملناه بالحسنى طوال الطريق .

– حسناً .

صرف الضابط بإشارة من يده ثم التفت إلى الحاجب :

– أخيراً سأرى هذا الشيخ الأحمق .. أدخلوه علي .

دخل تاج الدين يستند على عصاه .. تفرسه نابليون بعين مثل عين الصقر .. لعله ناهز المائة .. لشدما أثقلت عليه الشيخوخة .

نهض نابليون فنهض كليبر وبورين .. استأذنا وانصرفا .. أشار بونابرت إلى كرسي قريب :

– تفضل بالجلوس هنا أيها الشيخ .

لم يلتفت تاج الدين حيث أشار بونابرت .. أجاب بصوت بدا قوياً ونفاذاً بالنسبة لسنه :

– أفضل الجلوس هنا على الأرض .

جلس وتربع

تقدم نابليون إلى حيث جلس تاج الدين وتربع أمامه مباشرة :

– لماذا تحرض العامة علي ؟ لقد سجنك الجزار وأطلقت أنا سراحك .

– أطلقتني من السجن الصغير إلى السجن الكبير .

– منحتك الحرية .

– كيف يكون الإنسان حراً .. في وطن مستعبد ؟!

– لقد نصرني الله عليهم هؤلاء الأتراك .. وإن من قضاء الله وقدره أن تطيعني .

– لم يكن قتالك معهم قتالاً بين حق وباطل .. لكي ينصرك الله عليهم أو ينصرهم عليك .. كان قتالاً بين باطلين .. فغلب الباطل القوي الباطل الضعيف .

– ألم تسمع بمبادئ الثورة الفرنسية ؟ الحرية .. العدالة .. المساواة ؟

–هذه مبادئ جميلة ولكن أين سلوكك منها ؟ هل قتلك لأربعة آلاف أسير في يافا .. ينتمي إلى الحرية أو العدالة أو المساواة .. لعلك أردت أن تساوي بيننا بالموت ؟!!

– أنا ولي الأمر .. شيوخ الأزهر أطاعوني .

– أنت كافر ولا طاعة لك .

– إذا كان هذا ما يمنعك من طاعتي .. فإنني على استعداد لأسلم على يديك .. وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

– هذه الشهادة إن صحت كافية لأن تحقن دمك .. لكنها ليست كافية لأن تجعلك أمير المؤمنين يا ساري عسكر .

– ما الذي تريده أيها الشيخ المخرف ؟

– أنا جالس في بيتي لا اريد منك شيئاً .. أنت الذي أتيتني من وراء البحر شاهراً سيفك .. مشحوناً بكل الثارات والأحقاد القديمة .

– أية ثارات وأية أحقاد ؟

– الحرب بيننا وبينكم سجال .. منذ بدأت أوروبا تحلم باستعباد هذا الشرق .. أنت حلقة في سلسلة .. جاء قبلك الإغريق.. والرومان .. والصليبيون .. لست أول الغزاة ولا آخرهم .

اقترب هدير مدافع الأسطول البريطاني .. ضحك تاج الدين :

– لماذا تضحك ؟

– إن بعضهم يستعجل خروجك ليدخل .

– تقصد الإنجليز .. لعلك أحد عملائهم ؟

– هل نستجير من الرمضاء بالنار ؟ سنحاربهم كما حاربناكم وحاربنا من سبقكم .
كأنما كتب علينا أن نحاربكم بالحق .. وتحاربوننا بالباطل إلى قيام الساعة .. وإلا فبماذا تفسر وجودك هنا ؟

– جئنا لنشر الحضارة والمدنية .

– هذه مسألة تتم بالإقناع .. ومقارعة الحجة بالحجة .. ولا تتم بحد السيف .

– ألا تخاف مني أيها الشيخ الطاعن ؟

– ألم تسمع الآذان يا ساري عسكر ؟ هذا النداء يذكرنا خمس مرات في اليوم أن الله أكبر .. وأن كل ما سوى الله تافه وحقير ولا يخيف .

نهض بونابرت محنقاً .. نادى على الحراس :

– ألقوا بهذه القمامة إلى الخارج .

سأل كبيرهم :

– هل نقتله يا سيدي ؟

– كلا .. سأتركه للطاعون .

أخذ نابليون يذرع خيمته بعصبية جيئة وذهاباً .. وهو يضرب إحدى قبضتيه براحة كفه .. أخيراً جلس على كرسيه .. خط شيئاً بالقلم على ورقة أمامه .. دخل الحاجب :

– شامبيلون يطلب الإذن بالدخول .

– ما الذي يريده شامبليون ؟ لم يعد ينقصني غير حفرياته الآن .. أدخلوه

حياه شامبيلون :

– سيدي القائد ..عثرنا على بردية في تل العجول جنوب غزة ..مكتوبة بالهيروغليفية .. ترجمناها إلى الفرنسية .

– أسمعني ماذا تقول البردية ؟

قرأ شامبليون باهتمام بالغ :

– احترف الفينيقيون التجارة .. واحترف الهكسوس الرعي .. أما نحن أبناء كنعان فقد احترفنا طرد الغزاة .. إن الكنعاني لا يعرف على وجه التحديد .. كم مرة دق منجله سيفاً .. وكم مرة

دق سيفه منجلاً .

تنهد بونابرت :

- لن نبقى هنا حتى يطردنا الكنعانيون أو غيرهم .. لقد اتخذت قراري وقضي الأمر .

❋❋❋

(20)

استيقظت فاطمة مبكرة على غير عادتها .. أخذت تعيد ترتيب غرفتها كيوم تركها يونس .. سألت مرجانة أن تجهز لها الحمام .. استحمت .. أخذت في ترجيل ما تبقى من شعرها الطويل .. ثم تكحلت وتطيبت .. أخرجت علبة بها قطع من القماش الأحمر فركت بها وجنتيها كما كانت تفعل وهي عروس .

كل ذلك ومرجانة مشدوهة تنظر إليها في فزع .. ظنت أن بسيدتها مساً أو عارضاً من الجنون .. جلست فاطمة على الأريكة .. قالت لمرجانة :

- خسارة أنك لا تعرفين أغاني الفرح .. لو كانت أمي حية لغنت لي .. لماذا لا تستدعين سكينة ؟ إن لها صوتاً جميلاً .. لا بأس سأغني أنا ..

طلع القمر عالكوادي قالوا البلاد نهبوها

هادي العروسة يا عيني طالعة تمسي عابوها

أجهشت مرجانة بالبكاء .. احتضنت فاطمة:

- لست مجنونة يا مرجانة .. الليلة جاءني يونس على ظهر جواده الأشعل .. التأمت جراحه وجراح جواده .. وإن كانت آثارها باقية تفوح منها رائحة كرائحة المسك .. حينما رأى دهشتي قال لي :

- الشهداء لا يموتون .. لقد عرض الله عليَّ الحور العين .. قلت له يا رب لقد جاء في محكم كتابك (ولا تنس نصيبك من الدنيا) فكيف أنسى فاطمة وهي نصيبي ؟

قال الله:

- اذهب يا يونس وأحضرها .. لتكن لها مراتب الشهداء بما صبرت واحتسبت .. لتحيا معك هنا في ظل العرش ..

وقد جئت لآخذك .

مد يده ليردفني على ظهر الأشعل كما كان يفعل وأنا عروس .. هممت بالنهوض فأثقلني الحمل .. قال لي :

- سأعود غداً .. ستكونين خفيفة كالفراشة .. وستتركين أهل الدنيا للدنيا .

لوح بيده ولكز جواده .. طار به إلى الأفق البعيد .. ناشراً عرفه الأبيض كالسحابة .

خيم الصمت برهة .. كانت مرجانة تحاول التقاط أنفاسها المبهورة حين تابعت فاطمة :

- مرجانة ! سيكون المولود أمانة في عنقك .. كوني له أما يا مرجانة .. فوالله لو كان لي أخت شقيقة لما زادت عما فعلته من أجلي شيئاً .. أنت ومبارك وجوهر كنتم لي نعم الأهل .. فكونوا للمولود أيضاً .

رفعت يديها الناحلتين إلى السماء وهي تدعو :

- اللهم احفظ من حفظني .

حلت السكينة على قلب مرجانة فابتسمت والدموع في عينيها .

حينما أخبرت جوهر ومبارك في اليوم التالي .. رق جوهر حتى أشرقت عيناه بالدمع .. أما مبارك فأخذ ينكث الأرض بعود في يده .. وهمس في أسى :

- حتى أنت يا فاطمة .. ستلحقين بالراحلين من الأهل .. كيف ستطيب لنا الحياة بعد كل ذلك .

مع الفجر أخذ جوهر ومبارك يعدان السلاح للرجال في البايكة .. حان الرحيل إلى عكا .. سمعا جلبة وأصواتاً تقترب .. حمل كل منهما غدارته واتجها إلى الخارج .. أبصرا رضوان البطش ومعه عدد من الرجال الذين أوفدهم مبارك لنصب الكمائن للفرنسيس في طريق عكا .

- الفرنسيون ؟

- ما بالهم ؟

- انكسروا .. إنهم ينهزمون عن أسوار عكا ويعودون أدراجهم إلى مصر .. الأهالي وعـــدد من رجالنا يتابعون الجيش المنهزم .. ينهبون ما تصل إليه أيديهم مـــن الســـلاح .. والثيـــاب والمؤن .. ويوقعون به كثيراً من الخسائر .

ركع جوهر على الأرض رافعا راحتيه إلى السماء :

- الحمد لله المنتقم الجبار .. الآن تقر عظام يونس في التراب .. ما أعظم هذا اليوم .

نهض يعانق مبارك ورجاله .. دعاهم لدخول المضافة .

- سأسقيكم قهوة النصر .

أشعل جوهر النار ووضع البكارج عليها .. التف حوله رجال مبـــارك كـــأنهم أســـد الشرى .. ألقم جوهر بكرج القهوة .. أخذ يراقب البن حتى لا يفور .. فجأة سمع صراخ طفل وليد يشق هدأة الليل .. ثم صوت مرجانة تهتف :

- إنه ولد .

فاحت رائحة المسك .. سمع حفيف كحفيف أجنحة الملائكة .. صهل حصان عرفـــه جوهر :

- هذه صهلة الأشعل .

ابتسمت فاطمة .. شـــخصت ببصرها إلى الباب .. همست بصوت واهن :

- يونس ؟

مدت ذراعاً بيضاء نحيلة .. مثل شمعة على حائط السيد هاشم .

- هل تأخرت عليك ؟

سقط ذراعها إلى جانبها .. صرخت مرجانة بصوت وحشـــي يحطم القلب :

- سيدتي ..

جوهر ترك القهوة تفور على النار .. خرج إلى الساحة مجيلاً بصره في الفضاء .. لم يتبين في زرقة الفجر .. سوى سحابة فضية دنت حتى لامست أكتاف شجيرات الليمون .. تأملها جوهر وهتف :

- يونس .. أنت هنا ؟ خذني أنا أيضاً .. أنا أخوك .

مد ذراعيه باتجاه السحابة .. لكنها أخذت ترتفع شيئاً فشيئاً حتى غابت في الأفـــق .. مخلفة سماء صافية تلتمع فيها الكواكب .

- في جيرة الله .. سلمولي عالنجاشي .

تهالك على الأرض وهو ينشج .

هزه مبارك برفق :

- وحد الله يا جوهر .

– لا إله إلا الله .. إنا لله وإنا إليه راجعون .
التفت .. رأى مرجانة تقف بالباب مذهولة تحدق فيه :
– إليَّ بالطفل يا مرجانة .. إليَّ بالطفل .
لفته مرجانة بخرقة وناولته لجوهر .. قبله جوهر بين عينيه .. ضمه إلى صدره .
– سنسميه عبد الوهاب .. سبحان الذي وهبه لنا من الموت .
أعولت مرجانة :
– لا أصدق أن سيدتي ماتت .
– بل ماتت منذ استشهد أخي .. ألا تدركين ذلك أيتها الحمقاء .
أشار إلى مبارك :
– أرسل في طلب سكينة .. لكي تجهز عروس يونس .

❋❋❋

انجلى الطاعون عن غزة شيئاً فشيئاً .. توقفت عربات دفن الموتى عن الطواف في شوارع المدينه .. غسل المطر آثار الطاعون وآثار الفرنسيين أيضاً .. ابتعلت الأرض الموحولة جثثهم على طول الطريق من عكا إلى القاهرة .. بدأ الناجون بحياتهم طريق العودة إلى حاراتهم وبيوتهم

رحب جوهر بالعائدين من الفلاحين على أرض يونس .. وهنأهم بالسلامة .. وعزاهم في من فقدوا من الأهل والعشيرة .. أقامهم على نفس الشروط التي أقرها يونس .. لم يغير ولم يبدل .. أما الذين أخذهم الطاعون فقد أحل منهم الأبناء مكان الآباء .. والزوجات مكان الأزواج إذا كان الأبناء قصراً .. وظل باراً بهم بر يونس .. أقرضهم القمح والشعير .. سامحهم في الديون المتخلفة عليهم .

أسبغ عليهم حماية سيفه حين حاول قطاع الطرق التحرش بهم .. أكبروا له ذلك.. ودانوا له وللسيد الطفل بالولاء .

ثم ما لبث أن خطب مرجانة :
– أتقبلينني زوجاً .. نشدتك الله أن توافقي .. ليس من أجلي أو من أجلك .. ولكن من أجل عبد الوهاب .. يجب أن ينشأ الطفل في عائلة .. وبين أبوين كباقي الأطفال .
هجمت مرجانة على يديه تقبلهما .. فقال لها :

- هل تعاهدينني على الوفاء لسيدي وسيدك يونس حتى الموت ؟

هزت راسها والدموع في عينيها :

- مبارك صار شيخاً لحارة التفاح مكان أبيه .. تزوج ليلى بنت سالم .. ورعى من بقى حيا من أولاده .

حين زار جوهر حارة التفاح استقبله مبارك في المضافة .. كان مهموماً وعلى وجهه سحابة من الحزن .

أراد جوهر أن يستوضحه جلية الأمر .. لكن المضافة كانت تضيق بالحاضرين .. أجلسه مبارك حيث كان يجلس يونس .. قدم له فنجان القهوة .

- ليست كقهوة وادي الزيت .. لكنها جهد المقل .

ارتشف جوهر القهوة :

- سلمت يداك .. صدق من قال قهوة شيوخ .

قال فرج السويسي لأبي غوش :

- من رآك تبكي نساءك وأولادك الذين أخذهم الطاعون حسب أنك ستحزن عليهم مدى الحياة .. لكنك قبل الأربعين تزوجت زينب البتير .. أرملة ابن عمي جواد .

- يشهد الله أنني حزنت عليهم في الأسبوع الأول .. حزناً تمنيت معه أن أموت والحق بهم .. وفي الأسبوع الثاني قلت في نفسي : ما الفائدة ؟ لا حزنك ولا موتك أيضاً سيعيدهم إليك .. في الأسبوع الثالث فكرت أنني في الستين .. لم يعد أمامي طويل وقت إذا كنت أنوي أن أخلف من جديد .. وأطلب العوض من الله .. ثم رأيت زينب على حوض الجماقية .. قررت أن أخطبها قبل أن يسبقني إليها الطاعون أو يسبقها إلي .

سأله رضوان البطش وكان يحب مداعبته :

- وكيف وجدتها يا عماه ؟

ابتسم ابوغوش للمداعبة .

- أحلى كنافة صنعها مراد البتير طوال حياته .

- تابع رضوان مازحاً :

- أهي معمرة بالجوز ؟

شخر أبو غوش شخرة عصماء اضطربت لها عبس وذبيان .

- ولك إللي بلا جوز أنا جوزها .

دخل نظمي أفندي الكلاغاصي مهرولاً .. ألقى التحية وجلس يلهث .

تلفت حواليه بحذر قبل أن يهمس :

- فيكم من يكتم السر ؟

- سرك في بير يا نظمي أفندي .
- الجزار ضبط مراسلات بين بونابرته وبين أمين خزينة الولاية المعلم فارحي .. فقطع أنفه وأذنيه وسمل إحدى عينيه .
- ولماذا لم يجهز على الخائن ؟
- وعده بالاجهاز عليه .. حين يجد من يرضى باستلام الخزينة مكانه .
- لماذا لم ترشح نفسك لها وأنت صاحب قلم يا نظمي أفندي ؟
- أعوذ بالله .. ما تولى أحد خزينة الجزار وبقي حياً .. حين يذكرها الناس في عكا يقولون (كل من عليها فان) .

رشف نظمي أفندي قهوته .. ثم تابع :

- هل تعلمون من عاد إلى غزة اليوم ؟
- من يا نظمي أفندي ؟
- رشيد عليان .. الذي هرب إلى الشام بعد سقوط غزة .. أخبرني أن تيمور الضرغام وجد مقتولاً في أحد الخانات .. اختفى غلامه يلماز واختفت معه صرة الذهب التي كان تيمور يلفها حول وسطه .

تثاءب الحاضرون .. لاحظ نظمي أفندي أن مبارك كان ساهماً .. ولم يبادله الحديث .. استأذن وانصرف .

شيعه جوهر بنظراته حتى اختفى :

- حسبت أنه سيلاقي مصير القاضي معروف .

رد مبارك :

- نظمي أفندي اتخذ الحيطة .. راسل الجزار سراً بأخبار الفرنسيين فنجا برأسه .

دخل عطية ابن شهوان المضافة وسلم على جوهر .. احتضنه جوهر وقبله .. اتجه إلى حيث يجلس جده الشيخ محمود .. تربع إلى جواره .. ربت جده على كتفه :

- عطيه هو الطفل الوحيد الذي يسمح له مبارك بدخول المضافة .. إنه وشقيقه قرة عيني وتسليتي في وحدتي بعد رحيل جدتهما .

ثم قال كمن يحدث نفسه:

- لقد رفضت أمهما الزواج بعد استشهاد شهوان .. تظن أنني كنت أكرهه .. والله لقد أحببته طوال الوقت .. لكن شوفة النفس منعتني من إظهار ذلك .

رق رضوان لحزن الشيخ محمود .. أراد أن يغير الحديث .. قال لجوهر :

- كنت في السوق اليوم .. كيف رأيت غزة ؟

قبل أشهر كنا ننظر باتجاه غزة من تلة الوادي فلا نرى بصيصاً واحداً من النور .. أما الآن

فقد عادت هذه المدينة العتيقة تتوهج وتنبض بالحياة .. تلتمع أضـواؤها فـي ظلمـة الليـل كالثريات .. أما الزحام الذي رأيته في السوق اليوم فشئ لا يصدق .

أين كان كل هؤلاء الناس؟! .

قال رضوان الذي فقد جده وأعمامه :

– حسبت أن الطاعون لم يترك أحداً .

ابتسم جوهر :

– وأنا لو لم أعرف اسماء الذين أخذهم الطاعون .. لقلت أنه لم يأخذ أحداً

نهض أبو غوش وهو يفرك كفيه :

– عليكي وحشة يا بنت البتير .

نهض الحاج محمود وهو يستند إلى عطيـة .. ألقيا التحية وانصرفا .. تبعهما فـرج السويسي .. همس جوهر في أذن مبارك :

– أراك مهموماً هذه الليلة .

هم رضوان بالمغادرة حين سمع تهامسهما .. أشار إليه مبارك :

– لست غريباً يا رضوان .. اقترب منا فلا أسرار عليك .

اقترب رضوان .. ناول مبارك فنجان قهوة لكل منهما .. ارتشفا قهوتهما في انتظـار حديث مبارك .

– أرسل الجزار متصرفاً جديداً لغزة .. معه بالإضافة إلى أمر تعيينه أمراً بإلقاء القبض على تاج الدين وإيداعه السجن :

رقصت شوارب رضوان وصاح جوهر :

– سنمنعه بسيوفنا .. ألم تكن هذه رغبة يونس ؟

– إهدأ يا جوهر .. تاج الدين يرى أن الـوقت ليـس ملائمـاً للعصـيان وأن البلاد تحفهـا المخاطر .. الفرنسيون مازالو في بر مصر .. والإنجليز على سواحل الشام .

– كيف يسـجنون رجـلاً طاعنـاً في السـن مثله .. أخاف والله أن يموت في السجن .

– يقول تاج الدين أن العمر سيمتد به حتى يشهد نهاية كل الطغاة .

– ونحن يا مبارك .. هل نسند رؤوسنا على أيدينا في انتظار ذلك اليوم ؟

لشدما تغير تاج الدين .

– تاج الدين أعطى كل ما عنده .. أدى رسالته كاملة .. وليس من العدل أن نطلب منه المزيد .. لقد وضع أقدامنا على الطريق .. علينا أن نعتمد على أنفسنا في إكمـال مـا بـدأه .. وأن نواصل المسيرة حتى نبلغ الغاية أو نهلك دونها .

– وما الغاية يا مبارك ؟

– الحرية والعدل .. لقد حكمنا الأتراك بإسم الدين ثلاثمائة سنة .. لم يفتحوا خلالها مدرسة .. ولم يعبدوا شارعاً .. ولم ينهضوا بصناعة أو زراعة أو تجارة .. أو علم .. أو فن أو أدب .. أخضعونا لسلطانهم بدعوى أنهم حماتنا من الكفار .. أما وقد عجزوا حتى عن هذه .. فما عاد لسلطانهم في أعناقنا بيعة ولا ذمة .. هذه أرض العرب .. ولن يحميها غيرهم .. لقد انتزعنـــا أرضنا من أنياب بونابرته .. ولن نسلمها لأي طاغية آخر .

